الألف
كتاب
الثانى

معالم تاريخ الإنسانية

هـ. ج. ولز

المجلد الثاني

ترجمة





هـ. ج. ولز

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

في تاريخ الإغريق والرُّومان
ومَن عاصروهما

ترجمة

عبد العزيز توفيق جاويد

هذه ترجمة لكتاب:

The Outline of History

Being A Plain History of Life and Mankind from Primordial Life to Nineteen sixty-

By

H. G. Wells

Revised by

RAYMOND POSTGATE

With Maps and Plans by

J. F. HORRABIN

١- راجع الطبعتين الأوليين الأستاذ زكي علي، الأستاذ السابق للتاريخ القديم بجامعة القاهرة..

٢- وعاود المترجم مراجعة هذه الطبعة الثالثة على طبعة ١٩٦٣ التي أشرف عليها الأستاذ رايموند بوستجيت الكاتب والصحفي الإنجليزي المعروف.

معالم تاريخ الإنسانية

المجلد الثاني

ويحتوي الكتابين الرابع والخامس

الكتاب الرابع : بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند.

الكتاب الخامس : قيام الإمبراطورية الرومانية وانهيارها.

فهرس

كلمة المترجم

هذا هو المجلد الثاني من "المعالم"، أقدمه لقراء العربية راجياً أن يعود عليهم منه ما حفزني إلى ترجمته من نفع وفائدة. وسيجد فيه القراء ذكرًا مفصلاً لمجتمعات ثلاثة مرت في مواكب التاريخ: أولها ذلك المجتمع الذي ابتدع لنفسه فكرة الوعد وأرض الميعاد، واتخذ التوحيد والخلود له عقيدة، وكتبه المقدسة رباطًا ومُحتشدًا. وأعني به مجتمع العبرانيين الذين يعرفون باسم اليهود.

وأما المجتمع الثاني فمجتمع يونان الذي عرفت فيه الإنسانية أن لها عقلاً يفكر، وأن هذا العقل ينبغي له أن يفكر وهو طليق من أغلال الماضي وتقاليده، وأن ما لا يستقيم على صراط العقل وهم مبطل وخيال خادل. في ذلك المجتمع عرف الناس أنهم سواسية لا فرق بين حاكم ومحكوم إلا بحسن السيرة واحترام القانون، وعرفوا أن الحاكم ليس ظلا لله، وأن مشيئته ليست كما زعم الأقدمون قبسًا من إرادة الله؛ وإنما يستمد الحاكم قوته من فوق الأرض، من ذلك الشعب المحكوم الذي لا بد وأن تكون له إرادة وأن يكون له سلطان وأن تكون له أداة تعبّر عن تلك الإرادة وذلك السلطان، وهي الديمقراطية التي اتخذها أولئك القوم مذهبًا ومعتقدًا، وأورثوها من جاء بعدهم من القرون.

هنالك قام أفلاطون ينشئ خيالاً ويعبّر للإنسانية عن أمانيه العذاب فيما رسم لها في "جمهوريته" من خطط وما ارتضى لها من مثل، وقام أرسطو منقبًا في ضوء عقله، باحثًا في طوايا نفسه وفي أسرار هذا العالم وخفاياه، وذلك بعد أن أتم لولون وضع القوانين التي تصون كرامة البشر وحقوقهم، وبعد أن جاء رجل الدولة بريكليس فوطد للديمقراطية أركانها بما آتاه الله من حصافة وحسن تدبير وتقديس للحرية.

أولئك قوم نعجب بهم لا لأنهم قاموا بما قاموا به من أعمال، بل لأنهم كانوا – فيما يرى ولز – البادئين بمعالجتها السباقين إلى التفكير فيها دون من تقدمهم من أجيال الإنسانية جميعًا. تلك أمة قد خلت بعد أن خلّفت للدنيا تراثًا جليلاً ما أحوج العالم العربي وهو في إبّان نهضته الحديثة إلى تدبره والتفكر فيه.

وقبل انبثاق تلك البحوث الفكرية التي امتاز بها ذلك المجتمع تولدت أساطير اليونان جميلة جذابة ساذجة ونشأت الرطازات حلوة عذبة، تعبّر عن ذلك الخيال البدائي المبكر الحافل بالشاعرية الهادية الرقيقة.

أما المجتمع الثالث فمجتمع روما الجامع بين النقيضين الوارث للضدين: جاهلية الإتروديين ومدنية الإغريق. ففي مجتمع روما اجتمع من أسباب الحضارة أرقاها ومن دلائل الهمجية أحطها وأدناها. وفي مجتمع روما تطور فن المال نافعًا وضارًا وتنوعت أساليب استعماله. وفي مجتمع روما ازدهر فن عمارة عظيم لا يزال الناس يعجبون به ويفيدون منه إلى يومنا هذا. وفي مجتمع روما تجمعت كل حضارة الغابرين وتكدس ترف الأولين. ومدت الطرق وأنشئت الجسور. وفيه بدأت أساليب التلاعب بالضعفاء، وأحابيل العبث بإرادة الكثرة من الشعب وتزييف اتجاهاته. على أن مجتمع الرومان كان بين تجاريب إنشاء الدولة العظيمة صورتها الأولى فتبدى فيما يتبدى فيه كل تجريبي من نقص شائه لسنا نشعر أن الدنيا قد نضته عن نفسها حتى في عصرنا هذا على الرغم من تأخر الزمان وجهود المصلحين. وفي مجتمع روما الضخم عرف الناس أن في الإمكان أن يحكم المجتمع نفسه بنفسه مهما أوتي من الضخامة ومهما كثرت مدنه ودساكره.

وعن مجتمع روما أخذت أوربا قانون الظفر والنّاب، ألم تكن روما قدوة الدول الغربية ومعلمتها الأولى فيما أخذت به هذه الدول من استعمار وأنانية واستغلال للشعوب المغلوبة وعدم اهتمام بمصالحها أو الأخذ بيدها إلى طريق النهوض والتقدم؟ ولعل في أسطورة رومولوس منشئ روما وأنه قد غذته ذئبة بلبنها، انسجامًا مع ما اتسمت به هذه الدولة من جشع وغدر وذئبية. فلا عجب أن كانت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر، قرن ثورة الاستعمار وفورته تضع روما موضع التقدير والإعجاب بسياستها الغشوم ونظمها الاستنزافية.

إن العالم لم يلق من روما وضريباتها في العصر الحديث إلا كل شر ونكر، ولكن الشرق العربي الناهض الذي لا يزال يصلى أساليب الاستعمار الجهنمية خليق بأن يقلب الرأي في تاريخ روما عله أن يستفيد من سالف التجارب في رد ما يلقى من المحن في حاضره ومستقبله.

* * *

والمؤلف لا يقتصر في هذا السفر بالبداهة على التاريخ من الناحية السرديَّة وحدها، بل يتناوله من نواحيه الاجتماعية ثم الإنسانية ومن زاوية الحياة وتنظيماتها.

وإنك لا تدري إذ تطالع هذا السفر من أي أقطاره يأخذك الإعجاب به وبمؤلفه؛ بل إن رمت التاريخ وجدت فيه ما يملك مشاعرك من أحداث وعبر؛ وإن التمست السياسة أو الاجتماع ظفرت بكل رائع أخاذ، في نهج علمي محكم وتناسق بين الأقسام فريد.

وها هو ذا المؤلف يحلل بين يديك مقومات تلك المجتمعات ثم لا يقف عند هذا الحد بل يتقدم إلى الموازنات فيعقد الواحدة منها تلو الأخرى بين تلك المجتمعات وبين ما يشاكلها أو يجافيها في عصره، فتخرج من كل ذلك بأن تلك المجتمعات إنما هي هيئات إنسانية مركبة، تماثل أو – تكاد – معظم ما تنطوي عليه حياتنا العصرية من الظواهر. فإن ما كان يحرك عقول الرجال يومئذ من مشاكل وعواطف وشهوات، لا يزال يعتلج في صدور الناس إلى وقتنا هذا. ولم يفت ولز ألا يقصر حديثه على الوقائع مجردة، بل هو ينشئ للقارئ نسجًا محبوكًا، لحمته آراؤه ومذاهبه التي خلقها وآمن بها، جاعلاً من أحداث التاريخ سدى لذلك النسيج. فأنت إذ تطالع الكتاب تتناول معه خمائر ثمينة، منها ما يبثّك الديمقراطية، ومنها ما يدعوك إلى تقديس الحرية وصون الكرامة البشرية والتحلل من قيود التعصب أيًّا كان مبعثه، ومنها ما يحفزك إلى تقدير الإنسان ووضعه في مرتبته الشريفة بين الكائنات بوصفه إنسانًا: العالَمُ موطنه والإنسانية قوميته وجنسيته.

* * *

ولا يفوتني أن أسجل مزيد اغتباطي للتقدير الكريم الذي لقيه المجلد الأول من الأوساط العلمية ومن كثير من أساتذة الجامعة المحترمين وكبار رجال وزارة المعارف وخاصة أستاذي المؤرخ الكبير محمد شفيق غربال بك الذي يعد بحق راعي الكتاب ونصيره – فلقد تلقيت من حضراتهم من عبارات التشجيع ورسائل الرضاء ما لا يسعني إلا أن أشكر الله عليه أجزل الشكر وأعظمه. ولقد أحسنت لجنة التأليف الموقرة كل الإحسان كدأبها إذ عنيت بمواصلة طبع هذا الكتاب وإذاعته في الناس فأسدت إلى المكتبة التاريخية في لغة

الضاد فضلاً جديدًا. ذلك أني لست أعلم – ويشركني في ذلك حضرة الأستاذ المراجع وهو الأخصائي الثقة – بأنه قد صدر في العربية كتاب في تاريخ الإغريق والرومان انطوى على ما ينطوي عليه هذا المجلد من الإحاطة والشمول مع الدقة العلمية وصحة المعلومات ولذلك أشعر بالسعادة إذ أقدمه للأمة العربية مشفوعًا بشكري العظيم لحضرتي صاحبي العزة الأستاذ الجليل أحمد أمين بك رئيس اللجنة والأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكرداني بك سكرتيرها العام وحضرات أعضائها المحترمين.

ولقد بذل حضرة المراجع الأستاذ زكي علي أستاذ التاريخ القديم بجامعة الإسكندرية جهدًا صادقًا في مراجعة الكتاب والإشراف على خرائطه حتى أصبح على ما يلمس القارئ من يسر ولين.

* * *

وبعد فتلك هي انطباعاتي لدن تقليب الفكر في هذا الكتاب وبعد مداومة النظر فيه، أقدمها للقارئ، وأنا أشعر أنني مهما نوهت بفضل الكتاب ومؤلفه فما أنا ببالغ ما يبلغ القارئ بمطالعته من التأثر والتزكي.

ع.ت. جاويد

الكتاب الرابع

بلاد اليهودية وبلاد الإغريق والهند

الفصل الثالث عشر

الأسفار المقدسة العبرانية

والأنبياء العبرانيون

١- مركز الإسرائيليين في التاريخ

٢- شاول وداود وسليمان.

٣- اليهود شعب مختلط الأصل.

٤- أهمية الأنبياء العبرانيين.

١- مركز الإسرائيليين في التاريخ

في وسعنا الآن أن نضع الإسرائيليين ومعهم أعجب مجموعة من الوثائق القديمة في الموضع الصحيح اللائق بهم، بالنسبة إلى هذه المعالم العامة التي تؤرخ للإنسانية. وأعني بهذه المجموعة تلك الوثائق التي تعرفها جميع الشعوب المسيحية باسم "العهد القديم". وإنا لنجد في هذه الوثائق أكثر المستندات طرافة وأعلاها قيمة في تبيان تطور المدنية، كما نجد فيها أنصع الدلالات على انبثاق روح جديدة أخذت تتدسس إلى شئون البشرية أثناء المنازعات التي قامت بين مصر ومملكة آشور من أجل التسلط والسيطرة على العالم.

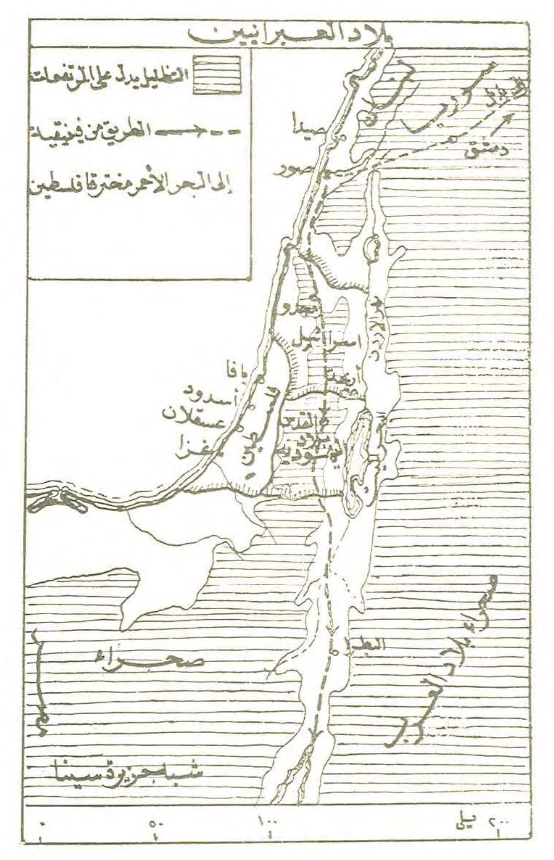
ولا شك أن جميع الأسفار التي يتكون منها العهد القديم كانت موجودة – وفي نفس صيغتها الحالية تقريبًا – في سنة ١٠٠ ق. م. على أقصى تقدير. والراجح أن معظمها كان يعتبر كتابات مقدسة في عصر الإسكندر الأكبر (٣٣٠ ق. م.)، وكانت هذه الأسفار هي الأدب المقدس للشعب اليهودي الذي نُقل قبل ذلك بزمن قصير – فيما عدا بقية صغيرة من الدهماء – من موطنه الأصلي إلى مملكة بابل عام ٥٨٧ ق. م. بأمر الملك الكلداني نبوخذ نصر الثاني. وكانوا قد عادوا إلى مدينتهم "أورشليم" (بيت المقدس)، وأعادوا بناء معبدهم هناك تحت رعاية قورش، ذلك الفاتح الفارسي الذي خلع نابونيداس آخر الحكام الكلدانيين في بابل (٥٣٩ ق. م.) كما ذكرنا آنفًا. دام الأسر البابلي قرابة خمسين سنة. ويعتقد كثير من الأعلام الثقات أن اليهود اختلطوا بالبابليين في أثناء هذه الفترة، اختلاطًا عنصريًا وفكريًا عظيمًا.

ولا يخفى أن موقع أرض اليهودية [١] وعاصمتها أورشليم فريد في بابه، فهي بقعة مستطيلة الشكل تشبه الشريط يحدها البحر المتوسط غربًا والصحراء الواقعة فيما وراء الأردن شرقًا. ويمر خلالها الطريق الرئيسي الطبيعي الذي يصل بين الحيثيين وسوريا وآشور وبابل شمالاً وبين مصر جنوبًا. فكانت لذلك قطرًا قدر له تاريخ مضطرب حافل بالأعاصير.

كانت هذه البلاد طريقًا لمصر وكل قطر عزيز الجانب إلى الشمال، وكانت الجيوش الزاحفة للفتح والتوسع تخترقها، كما يشنون على أهلها الحروب رغبة في شق طريق للتجارة. ولم يتوفر لها من سعة الرقعة ولا من القدرة الزراعية ولا الثروة المعدنية ما يكفل لها الأهمية. وقصة الشعب اليهودي التي حفظتها لنا تلك الأسفار المقدسة تجري كأنها تعليق مسطر على هامش التاريخ الأعظم شأنا، أعني به تاريخ نظامي الحضارة القائمين في الشمال والجنوب ومدنيّة الشعوب البحرية في الغرب.

---

(١) في هذا البيان التاريخي الدقيق الذي سطرته يد محايدة نزيهة ما يدحض كل مدعيات الصهيونية وإسرائيل في أرض فلسطين العزيزة. فلم يكن اليهود فيها في يوم من الأيام إلا مغتصبين لأرض لا يملكونها، وإذا هم اليوم يقولون للجهلاء إنها كانت لهم مستقرًا لملك عضود وموعد موعود.



(ش ٥٨) – خريطة بلاد العبرانيين

وتتكون هذه الأسفار المقدسة من عدة عناصر مختلفة. وكان الناس من قديم الزمان ينظرون إلى الأسفار الخمسة الأولى (توراة موسى) باحترام خاص. وهي تبدأ على صورة تاريخ عام يروي قصة مزدوجة تتناول خلق العالم والبشرية والحياة الأولى للجنس البشري، كما تتحدث عن طوفان عظيم قضى على البشر جميعًا سوى بضع أفراد محظوظين. وقصة الطوفان هذه عظيمة الانتشار في الروايات القديمة. وقد تكون صدى لذلك الفيضان الذي اجتاح وادي البحر المتوسط والذي حدث في العصر الحجري الحديث (النيوليثي) من تاريخ الإنسان. ولعلها تعيد إلى الأذهان ذكرى إحدى الكوارث العظيمة التي حدثت ببلاد جورجيا وإقليم بحر قزوين. وقد عثر القائمون بالحفائر الحديثة على نصوص بابلية تروي كلا من قصتي الخليقة والطوفان، وهي نصوص ترجع إلى زمن يسبق عودة اليهود إلى وطنهم. ومن ثم فإن نقاد الكتاب المقدس يحاجون بأن اليهود استولوا في أثناء أسرهم على تلك الفصول الافتتاحية، وهي قوام الإصحاحات العشرة الأولى من سفر التكوين.

ويتلو ذلك تاريخ آباء الشعب العبراني ومؤسسيه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب. وهم يمثّلون فيه على صورة رؤساء بدو يتبعون نظام الأبوة ويعيشون عيشة الرعاة الرحل في المنطقة الممتدة بين بابل ومصر. ويقول النقاد إن قصة التوراة الراهنة قد صيغت من نصوص عديدة سابقة. على أنه مهما يكن شأن مصادر القصة، فإنها بحالتها التي نجدها عليها اليوم ملأى بالحيوية وقوة التعبير. وكان ما يسمى اليوم باسم "فلسطين" يسمى في ذلك الحين "أرض كنعان" ويسكنه قوم ساميون يسمون الكنعانيين، وهم شعب وثيق القربى بالفينيقيين الذين أسسوا صور وصيدا، وبالعموريين الذين فتحوا بابل وأسسوا الإمبراطورية البابلية الأولى بقيادة حمورابي.

وكان الكنعانيون شعبًا عرف الاستقرار في زمن معاصر تقريبًا لحكم حمورابي – وقد مرت ببلادهم قطعان إبراهيم ورعلانه. وتقول رواية للكتاب المقدس إن رب إبراهيم وعده هو وأولاده بهذه الأرض البسامة ذات المدن العامرة. وعلى القارئ أن يرجع إلى "سفر التكوين" فيقرأ كيف أن إبراهيم الذي لم يكن له عقب قد ارتاب في هذا الوعد، ثم يقرأ أخبار مولد إسماعيل وإسحاق. وسيجد القارئ في "سفر التكوين" كذلك ترجمة حياة إسحاق ويعقوب، الذي تغير اسمه فأصبح إسرائيل، وسيرة أبناء إسرائيل الاثنا عشر وكيف أنهم هبطوا مصر أيام قحط عظيم. وبهذا ينتهي "سفر التكوين" أول الأسفار الخمسة الأولى ويختص الكتاب الثاني وهو سفر الخروج بقصة موسى.

وقصة استقرار أبناء إسرائيل في مصر واستعبادهم بها قصة عسيرة معقدة. وهناك سجل مصري يشير إلى نزول بعض الشعوب السامية بأرض "جاسان Goshen" بأمر الفرعون رمسيس الثاني، وجاء في هذا السجل أنهم لجئوا إلى مصر بسبب افتقارهم إلى الطعام. ولكن ليس هناك قط أي سجل مصري يتحدث عن حياة موسى وأعماله. ولم يصل إلينا أي بيان تاريخ عن إصابة مصر بالطاعون ولا عن أي فرعون أغرق في البحر الأحمر. وتحتوي قصة موسى على قدر كبير من شذى الأساطير. ومن أبرز الحوادث فيها، حادثة تخبئة أمه له في تابوت من الحلفاء، وهي قصة لها شبيه في أسطورة سومرية قديمة.

فالقصة السومرية المتحدثة عن سرجون الأول تجري كما يأتي: "هاأنذا سرجون الملك القوي ملك أكاديا. كانت أمي فقيرة، وما عرفت أبي قط، وكان شقيق أبي يعيش بين الجبال... وقد ولدتني أمي الفقيرة سرًا، ووضعتني في سلة من القصب، وأغلقت بابها بالقار، ثم ألقتني في النهر، فلم تبتلعني لججه بل حملتني مياهه حتى أوصلتني إلى (أكيّ) الموكل بالرّي. وقد تلقاني أكي هذا في طيب قلبه. ورباني أكي حتى أصبحت غلامًا يافعًا. وجعلني أكي بستانيًا. وأدخلت خدماتي كبستاني السرور على قلب (عشتار) وبذلك أصبحت ملكًا".

إن هذا لأمر يحير اللب. ومما يزيدنا حيرة تلك اللوحة الطينية التي كشفت أخيرًا والتي كتبها الولاة المصريون على إحدى مدن كنعان إلى فرعون "أمنحوتب الرابع" أحد ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فليس من الممكن أن يأسرهم ويضطهدهم رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة قبل أن يتموا فتح أرض كنعان. ومن الجلي أن قصة الخروج (Exodus) – وقد كتبت بعد الحوادث التي ترويها بزمن طويل – ربما كانت تركيزا وتبسيطًا، أو لعلها تمثيل ورمز لما كان في الحقيقة تاريخًا معقدًا طويلاً لغزوات قبلية. ولعل كل ما في الأمر أن إحدى القبائل العبرانية انحدرت إلى مصر وأصبحت مستعبدة، على حين كانت القبائل الأخرى قد أخذت بالفعل تهاجم المدن الكنعانية النائية. بل إن في الإمكان ألا تكون مصر (واسمها بالعبرانية مصرايم) هي أرض الأسر بل (مسريم) في شمال بلاد العرب، على الجانب المقابل من البحر الأحمر. وقد بحثت هذه المسائل بحثًا مستفيضًا دقيقًا في "موسوعة الكتاب المقدس Encyclopedia Biblica في مادتي موسى والخروج"، فليرجع إليها القارئ المحب للاستطلاع إن شاء.

ويتناول كتابان آخران من الكتب الخمسة الأولى هما "سفر تثنية الاشتراع وسفر اللاويين"، الشرائع والقواعد الكهنوتية. أما سفر الأعداد فيسرد تجولات بني إسرائيل في الصحراء وغزوهم كنعان.

ومهما تكن التفاصيل الدقيقة لغزو العبرانيين أرض كنعان، فمما لا ريب فيه أن ذلك القطر الذي فتحوه تغير تغيرًا عظيمًا منذ أيام أسطورة "الميعاد" الذي وعد به إبراهيم قبل ذلك بقرون. ثم يصبح القطر من بعد ذلك – فيما يلوح – أرضًا سامية إلى حد كبير وتتشأ به كثير من المدن التجارية المزدهرة. على أن موجات كبيرة من شعوب غريبة نزحت على طول شاطئه. ولقد ذكرنا من قبل كيف هوجمت الشعوب الأيبيرية البيضاء الداكنة أو شعوب البحر الأبيض القاطنة في إيطاليا وبلاد الإغريق، وشعوب المدنية الإيجية التي بلغت الأوج في كنوسوس، Conssos، إذ هاجمتها موجة زاحفة جنوبًا من أجناس ناطقة بالآرية من أمثال الإيطاليين والإغريق، وأوضحنا كيف نهبت كنوسوس حوالي (١٤٠٠ ق. م.)، وكيف دمرت تدميرًا تامًا حوالي (١٠٠٠ ق. م.). وبدهي أن سكان هذه الموانى الإيجية كانوا يجتازون البحر فرارًا من الأعداء وطلبًا لمستقرات أكثر أمنًا وسلامًا. لذلك غزوا الدلتا المصرية وما يليها غربًا من الشاطئ الأفريقي، وأنشئوا أحلافًا بينهم وبين الحيثيين وبعض الشعوب الآرية أو المصطبغة بصبغة آرية.

حدث هذا كله بعد عصر رمسيس الثاني أي في عهد رمسيس الثالث. وتسجل الآثار المصرية معارك بحرية عظيمة، كما تمثل مسير هؤلاء القوم إلى مصر على امتداد ساحل فلسطين. وكانت وسيلة النقل لديهم هي العربات التي تجرها الثيران وهي إحدى خصائص القبائل الآرية. ومن الواضح أن هؤلاء الكريتيين كانوا يعملون متحالفين مع بعض الغزاة الآريين الأول. ولم يتم بعد الوصول إلى صورة متصلة الحلقات لقصة هاته المنازعات التي استمرت بين ١٣٠٠ ق. م. و١٠٠٠ ق. م. على أنه يتضح من رواية الكتاب المقدس أنه عند ما نهض العبرانيون تحت إمرة "يشوع" لمواصلة إخضاع أرض الميعاد ببطء اصطدموا بشعب جديد هم الفلسطينيون الذين كانوا يستقرون على امتداد الشاطئ في سلسلة من المدن أصبحت أهمها وأعظمها غزة وجت (جات) وأشدود وعسقلان وعقرون [1]. وكان هؤلاء الفلسطينيون في الحقيقة نازحين جددًا كالعبرانيين تمامًا. والراجح أنهم كانوا بوجه خاص هم أولئك الكريتيون اللاجئون من البحر والهابطون من الشمال. وعلى ذلك فإن الغزو الذي ابتدأ بشكل هجوم على الكنعانيين سرعان ما أصبح نزاعًا طويلاً لم يحالفه التوفيق التام، نشب من أجل تلك الأرض الموعودة التي كانت مطمع الأنظار، بينهم وبين هؤلاء الفلسطينيين النازحين الذين كانوا أكثر قوة وأشد بأسًا.

ولا يستطيع أحد أن يقول إن أرض الميعاد وقعت يومًا في قبضة العبرانيين تمامًا. ويلي الكتب الخمسة الأولى في الكتاب المقدس أسفار "يشوع" والقضاة وسفر راعوث (وهو استطراد عن سياق الموضوع) وصموئيل الأول والثاني والملوك أول وثان. مع سفر الأيام بجزءيه، وهو يكرر في شيء من التنويع كثيرًا من مادة سفر صموئيل الثاني وسفر الملوك. وينطوي الشطر الأكبر من هذا التاريخ المتأخر على ظل للحقيقة يزداد على اطراد الأيام ظهورًا. وفي هذه الأسفار نجد الفلسطينيين قد شددوا قبضتهم على ما امتلكوه من أراضي الجنوب المنخفضة الخصبة، كما نجد الكنعانيين والفينيقيين صامدين في الشمال ضد أعدائهم الإسرائيليين. وليست انتصارات يشوع الأولى مكررة.

وكتاب القضاة إنما هو سرد محزن لسلسلة من الهزائم والنكبات يفقد القوم بسببها شجاعتهم، ويتخلون عن عبادة ربهم الخاص "يَهْوَهْ Jehovah" ويعبدون بعلا وعشتورث ويختلطون بالفلسطينيين والحيثيين وغيرهم حتى صاروا شعبًا مختلط الجنس، كما ظل هذا طابعهم فيما بعد. وكانوا يخوضون – وهم تحت إمرة سلسلة من الحكماء والأبطال – غمار حروب اتسمت بالفشل على وجه العموم، ولم تتحد كلمتهم أثناءها قط. فقهرهم على التعاقب المؤابيون (Moabites) والكنعانيون والمديانيون والفلسطينيون. ويتحدث سفر القضاة عن قصة هذه الحروب التي خاضها جدعون وشمشون وغيرهم من الأبطال الذين يلقون بين الفينة والفينة بصيصًا من أمل فيما كان يلم بإسرائيل من نكبات. ويروي سفر صموئيل الأول قصة الكارثة العظيمة التي حلت بهم عند حجر المعونة (Ebenezer) أيام أن كان "عالي" قاضيًا.

([1]) ضبطت هذه الأسماء وغيرها على ما ورد بالكتاب المقدس. (المترجم).

كانت المعركة حربًا ضروسًا أعد لها الطرفان عدتهما واشتبكت فيها جيوشهما برمتها وخسر فيها بنو إسرائيل ٣٠,٠٠٠ رجل (!) وكانوا قبل ذلك أصيبوا بهزيمة فادحة خسروا فيها ٤٠٠٠ رجلاً، وعند ذلك أبرزوا أقدس رمز لديهم، وهو تابوت عهد الرب [1].

"وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلّة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافًا عظيمًا حتى ارتجت الأرض، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا: ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة. فخاف الفلسطينيون لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة. وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله. ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية. تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم.

"فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل، وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جدًا. وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل، وأخذ تابوت الله ومات ابنا عالي حفني وفينحاس.

"فركض رجل من بنيامين من الصف وجاء إلى شيلوه في ذلك اليوم وثيابه ممزقة وتراب على رأسه. ولما جاء فإذا عالي جالس على كرسي بجانب الطريق يراقب لأن قلبه كان مضطربًا لأجل تابوت الله. ولما جاء الرجل ليخبر في المدينة صرخت المدينة كلها، فسمع عالي صوت الصراخ فقال ما هو صوت الضجيج هذا؟ فأسرع الرجل وجاء وأخبر عالي، وكان عالي ابن ثمان وتسعين سنة وغامت عيناه ولم يقدر أن يبصر.

"فقال الرجل لعالي أنا جئت من الصف، وأنا هربت اليوم من الصف. فقال كيف كان الأمر يا ابني؟ فأجاب المخبر وقال: هربت إسرائيل أمام الفلسطينيين، وكانت أيضًا كسرة عظيمة في الشعب، ومات أيضًا ابناك حفني وفينحاس وأخذ تابوت الله. وكان لما ذكر تابوت الله أنه سقط عن الكرسي إلى الوراء إلى جانب الباب فانكسرت رقبته ومات، لأنه كان رجلاً شيخًا ثقيل الجسم. وقد قضى لإسرائيل أربعين سنة.

"وكنته امرأة فينحاس كانت حبلى تكاد تلد، فلما سمعت خبر أخذ تابوت الله وموت حميها ورجلها ركعت وولدت لأن مخاضها انقلب عليها، وعند احتضارها قالت لها الواقفات عندها: "لا تخافي لأنك قد ولدت ابنًا فلم تجب ولم يبال قلبها، فدعت الصبي إيخابود قائلة "قد زال المجد من إسرائيل لأن تابوت الله قد أخذ ولأجل حميها ورجلها".

وكان خلف (عالي) وآخر القضاة هو صموئيل، وقد حدثت في أواخر حكمه حادثة في تاريخ بني إسرائيل تتمشى مع ما مر بالشعوب العظمى المحيطة بهم من تجارب، بل هي التي أوحت بها إليهم، إذ نشأ بينهم ملك حكم فيهم وظهرت فيهم الملكية. وهم يقصون علينا بأوضح عبارة نبأ الصراع المحتدم بين طريقة الحكم العتيقة على يد الكهنة وبين الطريقة الأحدث منها في تصريف شئون البشر. ومن المستحيل علينا ألا نقتبس اقتباسًا ثانيًا فكم يبدو استياء الكاهن واضحًا جليًا في حديث الرب إلى صموئيل.

---

(1) الإصحاح السابع من صموئيل الأول من الكتاب المقدس.

"فاجتمع كل شيوخ إسرائيل وجاءوا إلى صموئيل إلى الرامة، وقالوا له: هو ذا أنت قد شخت وابناك لم يسيرا في طريقك، فالآن اجعل لنا ملكاً يقضي لنا كسائر الشعوب.

"فساء الأمر في عيني صموئيل إذ قالوا: أعطنا ملكًا يقضي لنا. وصلى صموئيل إلى الرب. فقال الرب لصموئيل: اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون لك. لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم. وحسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم، وتركوني وعبدوا آلهة أخرى. هكذا هم عاملون بك أيضًا. فالآن اسمع لصوتهم، ولكن اشهدنّ عليهم وأخبرهم بقضاء الملك الذي يملك عليهم.

"فكلم صموئيل الشعب الذين طلبوا منه ملكًا بجميع كلام الرب وقال: "هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم: يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه، لمراكبه وفرسانه. فيركضون أمام مراكبه، ويجعلهم لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين، فيحرثون حراثته، ويحصدون حصاده، ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه. ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده. ويعشر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله. ويعشر غنمكم وأنتم تكونون له عبيدًا. فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم. فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم. "فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: لا بل يكون علينا ملك، فنكون نحن أيضًا مثل سائر الشعوب، ويقضي لنا ملكنا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا". (صموئيل الأول الإصحاح الثامن).

٢ – شاول وداود وسليمان

على أن طبيعة بلاد العبرانيين وموقعها كانت عوناً عليها، لذا لم يكن ملكهم الأول شاول أوفر حظاً في النجاح من القضاة، هذا إلى أن المكايد الطويلة التي كان يدبرها المغامر داود ضد شاول مسرودة في الجزء الباقي من سفر صموئيل الأول. وكانت خاتمة شاول هي الهزيمة المنكرة التي أصابته على جبل جلبوع (Gilboa) إذ قضت بسالة رماة السهام من الفلسطينيين على جيشه قضاء تامًا.

"وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعروا القتلى وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع. فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وأرسلوا إلى أرض الفلسطينيين في كل جهة لأجل التبشير في بيت أصنامهم وفي الشعب. ووضعوا سلاحه في بيت عَشْتُورَثَ وسمروا جسده على سور بيت شان.

(صموئيل الأول الإصحاح ٣١).

وكان داود (٩٩٠ ق. م. على وجه التقريب) أشد كياسة وأكثر نجاحًا من سلفه. ويلوح أنه وضع نفسه في حماية حيرام ملك صور. فثبتت هذه المحالفة الفينيقية ملكه، وكانت العامل الجوهري في عظمة ابنه سليمان. وقصة داود بما تحوي من قتل وسفك دماء واغتيالات متلاحقة يأخذ بعضها برقاب بعض [٤]، أشبه بتاريخ أحد رؤساء المتوحشين منها بتاريخ ملك ممدّن. والقصة مسرودة بأسلوب رائع واضح في السفر الثاني من صموئيل[١].

ويبدأ سفر الملوك الأول بحكم الملك سليمان (٩٦٠ ق. م. على وجه التقريب) وأمتع ما في تلك القصة من وجهة نظر المؤرخ الذي يتناول التاريخ من الوجهة العامة، علاقة سليمان بالديانة القومية والكهانة وتصرفاته إزاء الهيكل والكاهن صادوق (Zadok) والنبي ناثان.

كانت بداية حكم سليمان مخضبة بالدماء كحكم أبيه سواء. وآخر ما سجل من حديث داود تدبيره لوله الوسيلة لقتل شِمعي (Shimei)، وآخر ما سجل من كلماته هي "الدم" إذ يقول لابنه "وأحدر شيبته بالدم إلى الهاوية [٢] " هكذا يقول مشيرًا إلى أنه كان شِمعي الشيخ يحميه القسم الذي أخذه داود على نفسه للرب ما دام حيًا، فما من عهد يرتبط به سليمان في هذا الشأن. ويغلو سليمان فيقتل أخاه، الذي حاول أن يغتصب العرش، ثم ما لبث أن تخاذل وقدم الطاعة. ومن ثم أخذ يتصرف بملء حريته في أنصار أخيه. وإن ضعف سلطان الدين على العبرانيين المختلطة أجناسهم والمبلبلة في ذلك الأوان عقولهم، ليتضح من السهولة التي يستبدل بها سليمان برئيس الكهنة المعادي له نصيره صادوق، كما يتضح ذلك بشكل أدعى للعجب من قتل يوآب (Joab) في الهيكل على يد بناياهو أعظم صنائعه إجرامًا، على حين لاذت الضحية بقدس حرم المعبد، واستمسكت بقرني مذبح يَهْوَهْ (Jehovah) ثم شرع سليمان بعد ذلك يجد في العمل، بأسلوب كان يعد بالنسبة لذلك الزمان ذا روح عصرية حقة. فعمد إلى صوغ ديانة شعبه في قالب جديد. وقد استمر في تحالفه مع حيرام ملك صور، وطفق هذا يستخدم مملكة سليمان طريقًا عامًا يسلكه لينفذ بوساطته إلى البحر الأحمر فيبني فيه السفن. ونتيجة لهذه الشركة بينهما تكدست في أورشليم ثروة لم يسمع بها من قبل.

---

(١) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول وصموئيل الثاني.

(٢) المصدر السابق.

وقد ظهرت فرق العمال عند بني إسرائيل، فكان سليمان يرسل أفواجًا من العمال تحل إحداها محل الأخرى لقطع أخشاب الأرز من لبنان في عهد حيرام. كما أنه نظم في أرجاء بلاده مجاميع من الحمالين. (وفي هذا كله الكثير مما يذكر القارئ بعلاقات أحد الرؤساء في أفريقيا الوسطى بهيئة تجارية أوربية). وبعد ذلك بنى سليمان لنفسه قصرًا ومعبدًا ليهوه الرب لا يكاد يضارع قصره في الضخامة. وكان تابوت عهد الرب – ذلك الرمز المقدس لهؤلاء العبرانيين الأقدميين – قد استقر مقامه حتى ذلك الحين في فسطاط كبير. كان ينقل من مكان مرتفع إلى آخر، وكانت تقدم القرابين لرب إسرائيل في عدد من الأماكن المرتفعة المختلفة. فالآن أدخل التابوت بين الروائع الذهبية الموجودة في حجرة داخلية من معبد كسيت جدرانه الحجرية بخشب الأرز، ووضع بين تمثالين عظيمين لهما أجنحة، ومصنوعين من خشب الزيتون المذهب، وتحتم منذ ذلك الحين ألا تقدم القرابين على غير المذبح الذي بين يديه.

وهذا التجديد المنطوي على المركزية الدينية يذكرنا بكل من إخناتون ونابونيداس. ولا يتم لمثل هذه الأمور نجاح إلا متى هوت إلى الدرك الأسفل سطوة هيئة الكهنوت ونفوذها وتقاليدها وعلمها.

"وأوقف حسب قضاء داود أبيه فرق الكهنة على خدمتهم واللاويين على حراساتهم للتسبيح والخدمة أمام الكهنة عمل كل يوم بيومه والبوابين حسب فرقهم على كل باب. لأنه هكذا هي وصية داود رجل الله. ولم يحيدوا عن وصية الملك على الكهنة واللاويين في كل أمر وفي الخزائن".

بيد أن إقامة سليمان لعبادة يهوه في أورشليم على هذا الأساس الجديد، ورؤياه لربه ومحادثته له في مستهل حكمه لم تحل دون ابتداعه في أواخر أيامه ضربًا من العبث بالأمور الدينية. فإنه أكثر من الزواج. وإن يكن ذلك لأسباب تتصل بالدولة وأبهة الملك. وكان يرفه عن زوجاته الكثيرات بتقديم الضحايا لآلهتهن القومية، فهو يقدم القربان لربة صيدا "عَشتُورَثَ" وكضمُوش (وهو رب مؤابي) ومُولَكَ وهلم جر. والواقع أن وصف الكتاب المقدس لسليمان يصوره لنا ملكًا متقلبًا كغيره من الملوك، لا يفضل البتة أيًّا منهم في تمسكه بأهداب دينه، كما يصور لنا في قومه شعبًا معتقدًا بالخرافات وذا عقلية مبلبلة ككل شعوب العالم المحيط بهم.

وفي قصة سليمان ناحية ذات أهمية كبيرة جدًا لأنها تسجل طورًا جديدًا في الشئون المصرية وهي زواجه من ابنة فرعون. ولا بد أن هذا الفرعون كان أحد فراعنة الأسرة الحادية والعشرين. ففي أيام عظمة أمنحوتب الثالث، كما تشهد بذلك رسائل تل العمارنة، كان من الجائز أن يتنازل فرعون فيقبل في حريمه أميرة بابلية. ولكنه كان يرفض رفضًا باتًا أن يسمح لأميرة مصرية لها ما لها من قداسة، أن تصبح زوجة لعاهل بابلي. ومما يدل على انحطاط مهابة مصر واطراد تدهورها أن يحدث الآن بعد انقضاء ثلاثة قرون، أن ملكًا صغيرًا كسليمان، يستطيع أن يتزوج من أميرة مصرية على قدم المساواة. ومع ذلك فإن مصر نهضت من كبوتها إبان حكم الأسرة المصرية التالية (الثانية والعشرين) يوم اغتنم الفرعون شيشنق مؤسس تلك الأسرة فرصة الانشقاق بين إسرائيل ويهوذا (Judah) وهو الانشقاق الذي ظل ينمو طوال حكم كل من داود وسليمان – فاستولى على أورشليم ونهب كلا من مستودعي الأبهة والعظمة القصيرة الأجل وهما المعبد الجديد وقصر الملك.

ويبدو أن شيشنق استطاع كذلك أن يخضع فلسطين. وجدير بالذكر أن الفلسطينيين ذوت أهميتهم منذ ذلك التاريخ. فنجدهم قد فقدوا لغتهم الكريتية واتخذوا لغة الساميين الذين كانوا أخضعوهم. ومع أن مدائنهم ظلت مستقلة إلى حد ما، فإنهم اندمجوا رويدًا رويدًا في غمار الحياة السامية العامة لفلسطين.

وهناك من الشواهد ما يدل على أن قصة حكم سليمان الأصلية على صورتها البدائية الأولى المقبولة عقلاً، وقصة ما أتاه من اغتيالات متنوعة، وارتباطه بحيرام، وابتنائه القصر والمعبد [1]، وذلك البذخ الذي أوهن مملكته ثم مزقها آخر الأمر شطرين – قد تعرضت (أعني القصة) لحشو وإضافات على نطاق واسع على يد كاتب متأخر، كان مشغوفًا بالمبالغة في وصف رخاء عصر سليمان مولعًا بتمجيد حكمته. وليس هذا مجال معالجة موضوع نقد أصول الكتاب المقدس ومصادره، وإن لم يتطلب الأمر منا إلا شيئًا عاديًا بسيطًا من الإدراك دون تفقه في العلم – لندرك ما يتجلى في المادة الرئيسية لقصة داود وسليمان من حقيقة جلية وصدق واضح. وهي قصة يعمد كاتبها إلى الشرح والتوضيح آونة، وإلى التبرير أخرى، وإن كانت مع ذلك تسرد كل الحقائق مهما بلغ بعضها من القسوة، على نحو لا يفعله إلا كاتب معاصر أو كاتب يكاد يكون معاصرًا، يقصها وهو مقتنع بأن لا سبيل إلى إخفائها. ثم يلاحظ الإنسان أيضًا ذلك التحول المفاجئ إلى الإطراء والثناء ساعة ظهور الفقرات التي أضيفت إلى القصة. ومما يشهد بقوة تأثير القول المكتوب وتغلبه على الحقائق الماثلة في أذهان الناس، أن رواية الكتاب المقدس هذه استطاعت أن تحمل العالم المسيحي بل الإسلامي على الاعتقاد بأن الملك سليمان لم يكن من أشد الملوك عظمة وأبهة فحسب بل كان أيضًا من أحكم الرجال. فإن سفر الملوك الأول يسهب في الكتابة عن أقصى ما وصل إليه مجده من أبهة وفخامة، وإذا قيست هذه إلى حمال وعجائب المباني والتنظيمات التي قام بها عاهل عظيم كتحوتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو نفر من الفراعين الأخر، أو سرجون الثاني أو سردانابالوس أو نبوخذ نصر العظيم، فإنها تبدو من التوافه الهينات. كان بُعد معبده من الداخل عشرين ذراعًا عرضًا أي ما يقرب من خمسة وثلاثين قدمًا (وهذا لا يزيد عن عرض فيلا للسكنى العادية)، وستين ذراعًا أي مائة قدم طولاً. وتختلف الأقوال في تقدير الذراع، وهو على أكبر تقدير يعادل أربعًا وأربعين بوصة. وعلى هذا الاعتبار يتسع العرض فيصبح سبعين قدمًا ليس غير ويصبح الطول مائتي قدم. فأما حكمته ومعرفته بأصول الحكم وتدبير السياسة، فما القارئ بمحتاج أن يجاوز الكتاب المقدس [2] لكي يعرف أن سليمان لم يتجاوز بالنسبة للملك التاجر حيرام منزلة المعاون له على تحقيق خططه ومشروعاته الواسعة النطاق، فأما مملكته فهي رهينة تتجاذبها مصر وفينيقيا. وترجع أهميتها في معظم أمرها إلى ضعف مصر الموقوت، ذلك الضعف الذي أثار طموح الفينيقيين وألزمهم باسترضاء القابض على مفتاح طريق آخر للتجارة إلى الشرق. كان سليمان في عين شعبه ملكًا مبذرًا جائرًا، وقد أخذت مملكته تتداعى قبل موته تداعيًا ظاهرًا وتتجزأ بددًا.

---

(1) الكتاب المقدس سفر الملوك الأول والأيام.

(2) يستطيع القارئ إذا شاء استزادة أن يرجع إلى أسفار صموئيل والملوك، الأول والأيام الثاني التي رجع إليها المؤلف من الكتاب المقدس. (المترجم).

وينتهي بانتهاء حكم سليمان مجد العبرانيين القصير الأمد، فإن القسم الشمالي من مملكته وهو الأكثر ثراء، والذي طال تحمله عبء الضرائب المفروضة في سبيل بذخه، انسلخ عن أورشليم وأصبح مملكة منفصلة هي إسرائيل. وقد فصم هذا الصدع تلك العلاقة التي كانت تربط بين صور وصيدا وبين البحر الأحمر، وهي التي مهدت السبيل لومضة الثروة التي هبطت على سليمان فجأة. وليس هناك بعد ذلك أي ثراء في التاريخ العبراني. فأما أورشليم فإنها ظلت قصبة قبيلة واحدة هي قبيلة يهوذا، وحاضرة أرض ملؤها التلال المجدبة، تحول فلسطين بينها وبين البحر ويحيط بها الأعداء من كل جانب.

ويظل هذا القطر بعد ذلك ثلاثة قرون مسرحًا لحروب ومنازعات دينية واغتصابات واغتيالات وقتل الإخوة للإخوة طلبًا للملك. وهي قصة سافرة في همجيتها. فإن إسرائيل تحارب يهوذا وما جاورها من دول، وتعقد المحالفات مع إحداها ثم تعقدها مع الأخرى، وتبدأ قوة سنوريا الآرامية في الصعود كنجم يؤذن العبرانيين بالشر والأذى. ثم تنهض من خلفها القوة العظيمة النامية، قوة الإمبراطورية الآشورية الأخيرة. لقد ظلت حياة العبرانيين طوال ثلاثة قرون شبيهة بحياة رجل أصر على العيش وسط سوق صاخب فكان مصيره أن تدهمه سيارات الجمهور والبضائع.

وكان "فول Pul" (وواضح أنه تَغْلَثَ فَلاسِرُ الثالث نفسه Tiglath Pileser) أول ملك آشوري فيما تقول رواية الكتاب المقدس، ظهر في أفق العبرانيين، فدفع له مَنَمَحِيمُ ألف تالنتوم [1] talent من الفضة (٧٣٨ ق. م.) ثمنًا لخلاص البلاد منهم. على أن قوة آشور كانت تتجه آنذاك قدمًا نحو أرض مصر التي شاخت وتدهورت. ويخترق طريق المغيرين أرض اليهودية ويعود تَغْلَثَ فَلاسِرُ الثالث أدراجه ويعقبه في الزحف شَلْمَنَأسَرُ فيتآمر ملك إسرائيل التماسًا للعون مع مصر – تلك "القصبة المرضوضة"، وفي ٧٢١ ق. م. اجتيحت مملكته كما ذكر آنفًا ووقعت في ربقة العبودية وزالت من التاريخ تمام الزوال. وكانت يهوذا (Judah) عرضة لنفس المصير ولكنها نجت منه فترة من الزمان. ولقد ذكرنا لك من قبل مصير جيش الملك سَنْحاريب أيام حكم الملك حَزَقِيَّا [2] (٧٠١ ق. م.). وكيف قتله ابنه (سفر الملوك الثاني الإصحاح ١٩: ٢٧). وليس في الكتب المقدسة أية إشارة لما يلي ذلك من إخضاع الآشوريين لمصر. على أنه من الواضح أنه قبل حكم سنحاريب، كان الملك حزقيًا يتبادل المراسلات السياسية مع بابل(٧٠٠ ق. م.)، التي كانت ثائرة على سرجون الثاني ملك آشور. وتبع ذلك غزو آسَرْحَدُّون لمصر، ثم شغلت آشور فترة من الوقت بمشاكلها الداخلية. ذلك أن الاسكيذيين (الإشقوذيين) والميديين والفرس كانوا يتهددونها من الشمال، وكانت بابل نهبًا للفتن. وقد أسلفنا كيف أن مصر خف عنها الضغط الآشوري فترة من الزمان فأخذت تنهض من كبوتها. وكان هذا أول الأمر في عهد أبسماتيك ثم في عهد نخاو الثاني.

---

(1) نص عبارة الكتاب المقدس "فأعطاه ألف وزنة من الفضة" الملوك الثاني ١٥: ٢٠. [المترجم].

(2) حزقيا بوزن زكريا. [المترجم].

وهناك خان التوفيق مرة أخرى القطر الصغير الواقع في الوسط فلم يحسن اختيار حلفائه. ولكن أين يجد العبرانيون السلامة وعلى كلا جانبيهما عدو؟ فإن يوشيا (Josiah) وقف في وجه نخاو فذبح في معركة مجدّو (٦٠٨ ق. م.) وأصبح ملك يهوذا تابعًا يدفع الجزية لمصر. ولكن عندما سقط نخاو أمام نبوخذ نَاصَّرُ الثاني بعد أن توغل حتى وصل إلى الفرات سقطت يهوذا معه (٦٠٤ ق. م.) حتى إذا نصب نبوخذ ناصَّر ثلاثة ملوك خاضعين له كالألعوبة، ساق غالبية الشعب أسرى إلى بابل (٥٨٦ ق. م.)، أما الباقون فقاموا بثورة ذبحوا منها الموظفين البابليين، ثم التجئوا إلى مصر فرارًا من انتقام كالديا.

"وجميع آنية بيت الله الكبيرة والصغيرة وخزائن بيت الرب وخزائن الملك ورؤسائه أتي بها جميعًا إلى بابل. وأحرقوا بيت الله وهدموا سور أورشليم وأحرقوا جميع قصورها بالنار وأهلكوا جميع آنيتها الثمينة. وسبى الذين بقوا من السيف إلى بابل فكانوا له ولبنيه عبيدًا إلى أن ملكت مملكة فارس".

(سفر الأيام الثاني إصحاح ٣٦: ١٨، ١٩، ٢٠).

وهكذا انتهت القرون الأربعة التي عاشتها الملكية العبرانية وكانت من بدايتها إلى نهايتها مجرد حدث صغير على هامش أحداث تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا، ذلك التاريخ الأكثر سعة وعظمًا. ولكن جرى القدر بأن تنشأ عنه إذ ذاك نتائج أخلاقية وعقلية ذات أهمية كبرى للبشرية كافة.

٣- اليهود شعب مختلط الأصل

واليهود الذين عادوا بعد فترة تربو على الجيلين إلى أورشليم من بابل أيام الملك قورش كانوا شعبًا مختلفًا جد الاختلاف عن أولئك المتقاتلين من عباد "بعل" وعبّاد "يَهْوَهْ"، وعمن يقدمون القرابين في المرتفعات، ومن كانوا يقدمون القرابين في أورشليم في مملكتي إسرائيل ويهوذا. والحقيقة المجردة المستخلصة من رواية الكتاب المقدس هي أن اليهود ذهبوا إلى بابل همجًا وعادوا منها ممدنين. خرجوا جمهورًا مختلطًا منقسمًا على نفسه، لا يربطه وعي ذاتي وطني، وعادوا بروح قومية شديدة وجنوح إلى الاعتزال، جعلهم ينئون بجانبهم عمن عداهم، ذهبوا وليس لهم أدب مشترك معروف بينهم كافة، إذ لم يحدث إلا قبل الأسر بأربعين عامًا أن اكتشف الملك يوشيا كما يقال "سفر الشريعة" في المعبد (سفر الملوك الثاني الإصحاح ٢٢: ٨)، وفيما عدا ذلك فليست هناك أية إشارة في السجل إلى تلاوتهم أي كتاب، وعادوا إلى وطنهم ومعهم الشطر الأكبر من مادة "العهد القديم" وواضح أن اليهود وقد تخلصوا من ملوكهم القتلة المتنازعين وحجبوا عن السياسة، وعاشوا في ذلك الجو الباعث على النشاط الذهني في العالم البابلي، فإن العقل اليهودي ما لبث في أثناء مدة الأسر أن خطا إلى الأمام خطوة عظيمة.

كان ذلك العصر في بابل عصر بحوث تاريخية ونهضة علمية، وكانت المؤثرات البابلية التي حملت سردانا بالوس على اقتناء مكتبة عظيمة من مخطوطات قديمة في نينوي، لا تزال تعمل عملها. ولقد أخبرناك من قبل كيف بلغ انشغال نابونيداس بالبحوث الخاصة بالآثار القديمة حدا جعله يهمل الدفاع عن مملكته ضد اعتداء قورش. ومن ثم كانت كل الظروف مما يحفز اليهود المبعدين على البحث في تاريخهم الخاص، ثم إنهم وجدوا في نبيهم حزقيال زعيمًا يستنهض هممهم. ومن أمثال تلك السجلات المخبأة والمنسية التي كانوا يحملونها معهم – ما بين تواريخ أنساب وتواريخ معاصرة تؤرخ لداود وسليمان وغيرهما من الملوك، وما بين أساطير وتقاليد قديمة – صاغوا قصتهم وأطنبوا فيها ثم قصوها على بابل وعلى أنفسهم.

وقصة الخليقة والطوفان، والكثير من قصة موسى، والشيء الكثير من قصة شمشون قد جمع شتاتها من مصادر بابلية. وهناك نصّان، نص عن قصة الخليقة، ونص آخر عن قصة عدن، يلوح أنهما وإن كانا في أصلهما بابليين، كانا معروفين للعبرانيين قبل النفي، وعندما عاد اليهود إلى أورشليم، لم يكن قد اكتمل لهم بين دفتي سفر واحد غير الأجزاء الخمسة الأولى المسماة بالبنتاتويك [1]، ولكن لم يكن مفر من أن يتلو ذلك تجميع سائر الكتب التاريخية.

ولقد ظل سائر أدبهم قرونًا طويلة في صورة كتب منفصلة، كانت تلقى من الاحترام قدرًا متفاوتًا جدًا. ولا ينكر أحد أن بعض الكتب المتأخرة قد ألف بعد الأسر. هذا وأضيفت إلى كل هذا الأدب أفكار رئيسية بأعيانها. فثمة فكرة كانت هذه الكتب نفسها تدحضها في تفصيلها، وهي القول بأن كل الناس قاطبة أبناء إبراهيم الخلص الدماء. وثمة فكرة أخرى عن وعد قطعه يهوه لإبراهيم بأن يفضل الشعب اليهودي على جميع الأجناس

([1]) وهي المسماة بتوراة موسى كما أسلفناه. [المترجم].

الأخرى. وثمة فكرة ثالثة هي ما كان يخالجهم قبل كل شيء من الاعتقاد في أن يهوه هو أعظم وأق وى آلهـ ة القبائل طرًا، وأنه كان على ذلك ربًا يعلو كل الأرباب، وأخيرًا أنه كان الرب الحق الوحيـ د. وانتهـ ى الأمـ ر بالشعب اليهودي بأن اقتنعوا – على بكرة أبيهم – بأنهم الشعب المختار للرب الأوحد للأرض قاطبة.

وكانت هناك فكرة رابعة نشأت نشوءًا طبيعيًا جدًا من هاته الفكرات الثلاث، وهي القول بزعيم منتظـ ر، مخلّص للعالم، ومسيح يحقق ما ترامى به الزمن من وعود ياهوه التي طال الأمد عليها.

ولا مراء أن هذا الالتئام الذي ضم شتات اليهود فأصبحوا في مدى هذه السنين السبعين شعبًا تؤلف بينـ ه تقاليد مكتوبة متواترة، هو أول مثال في التاريخ للقوة الجديدة الكامنة بين القرطاس والقلم في شئون البشرية. كان ذلك الذي حدث تماسكًا عقليًا لم يقف أثره عند توحيد الشعب الذي عاد إلى أورشليم، بل تجـ اوز ذلـ ك كثيرًا. وهذه الفكرة القائلة بالانتساب إلى شعب مختار قدرت له الرفعة من قبل، كانت فكرة خلابة. واستولت هذه الفكرة أيضًا على لب اليهود الذين ظلوا في بابل ووصل الأدب الخاص بها إلى اليهـ ود الـ ذين كـ انوا مستقرين في مصر إذ ذاك، كما أنها أثرت في الشعب المختلط الذي أسكن السامرة، (وهي العاصمة القديمـ ة لملوك إسرائيل) عندما أبعدت القبائل العشر إلى ميديا. وهي التي أوحت إلى عدد كبير من البابليين وغيـ رهم أن يدعوا في إبراهيم أبا لهم، وأن يفرضوا أنفسهم علـ ى اليهـ ود العائـ دين. وكـ ذلك أصـ بح العمونيـ ون (Ammonites) والمؤابيون (Moabites) أنصارًا لهم. وسفر نحميا (Nehemiah) حافل بأخبـ ار المحـ ن التي نجمت عن انتحال هؤلاء المتطفلين لامتيازات الشعب المختار. كان اليهود من قبل شعبًا متناثرًا في أقاليم ومدن كثيرة، يوم توحدت عقولهم وأمانيهم، ثم أصبحوا شعبًا ذا نزعة انعزالية متباعدًا عمـ ن عـ داه، ولكـ ن نزعتهم الانعزالية كانت بادئ الرأي مجرد رغبة في حفظ التعاليم والعبادة سليمة مصونة خشية تكرار أمثـ ال تلك الكبوات المحزنة التي حدثت في عهد الملك سليمان. وظلت العقيدة اليهودية زمانًا طويلاً فاتحة ذراعيهـ ا مرحبة بمقدم كل من ينضوي مخلصًا تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى.

ولا بد أن الفينيقيين بعد سقوط صور وقرطاجة كانوا يرون الدخول في العقيـ دة اليهوديـ ة أمـ رًا يمتـ از بسهولته وجاذبيته. وكانت لغتهم وثيقة القربى بالعبرانية. ومن المحتمل أن الغالبية العظمـ ى ليهـ ود أفريقيـ ا وإسبانيا، كانت في حقيقة الأمر ذات أرومة فينيقية. كذلك دخل العرب في زمرتهم أفواجًا. وكما سنلحظ فيما بعد، كان في جنوب الروسيا يهود من الجنس المغولي نفسه.

٤- أهمية الأنبياء العبرانيين

والأسفار التاريخية من سفر التكوين إلى نحميا، التي أقحمت عليها فيما بعد فكرة الوعد المقطوع للشعب المختار، كانت ولا شك العمود الفقري الذي تقوم عليه الوحدة الفكرية ولكنها ليست البتة الفصل الختامي الذي يتم به الأدب العبراني، الذي تكون منه الكتاب المقدس آخر الأمر. وما هذا بمجال الكتابة عن أسفار من أمثال سفر أيوب Job (الذي يقال إنه محاكاة للمأساة الإغريقية) هذا إلى نشيد الإنشاد لسليمان، والمزامير، والأمثال وغيرها، على أن من الضروري معالجة الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء في شيء من التوسع والاستيعاب. وذلك لأن هذه الأسفار تكاد تكون أقدم الشواهد، بل هي ولا مراء أفضل الدلائل على ظهور صنف جديد من الزعامة في شئون البشر، هو زعامة الأنبياء.

وليس هؤلاء الأنبياء بطبقة جديدة في المجتمع، وذلك لأنهم ينتمون إلى أصول وطبقات متباينة إلى أقصى حد. فكان حزقيال مثلاً من طائفة الكهنة، وكان ذا عواطف كاهنية، وكان عاموس (Amos) راعيًا، على أنهم يشتركون جميعًا في كونهم يبثون في الحياة قوة دينية خارج نطاق القرابين والشكليات المرعية لدى الكهانات والمعبد. ويبدو أن الأنبياء الأول أشد الناس شبهًا بالكهنة الأول، فإنهم يستلهمون الوحي ويقدمون النصح وربما لم يكن هناك في البداية أي فارق كبير بين الكاهن والنبي إبان الأيام التي كانت العبادة فيها تقام على مرتفعات كثيرة في البلاد، والتي كانت الفكرات الدينية في أثنائها غير مستقرة نسبيًا.

وكان الأنبياء يرقصون فيما يلوح بطريقة تشبه إلى حد ما طريقة الدراويش، وينطقون بالوحي. وكانوا يرتدون على وجه العموم رداء يميزهم مصنوعًا من جلد الماعز الخشن، وكانوا يتبعون تقاليد البدو الرحّل وينفرون من "بدع المستقرين الجديدة". على أن طراز الأنبياء ظل بعد بناء المعابد وتنظيم الكهانات عاملاً آخر قائمًا ومنعزلاً عن الخطة الدينية الرسمية. والراجح أن الكهان لم يبرحوا يتبرمون بالأنبياء تبرمًا يتفاوت قدره. إذ إنهم أصبحوا الناصحين غير الرسميين للناس في الشئون العامة، والناعين عليهم الخطايا والتصرفات الغريبة، وهم قوم "نصبوا أنفسهم بأنفسهم" إن جاز مثل هذا القول، ولم يكن لهم من سند يستندون إليه إلا ما يحسون من نور باطني. وفي الكتاب المقدس صيغة ثابتة هي (وعند ذلك جاءت كلمة الرب إلى فلان).

وفي الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا وهي أشد أيامها اضطرابًا، ويوم أطبقت مصر وشمال بلاد العرب ومملكة آشور ثم مملكة بابل إطباق المنجلة على البلاد، أصبح لهؤلاء الأنبياء شأن وقوة عظيمان، وكانت دعوتهم موجهة إلى العقول القلقة الوجلة، وقد ركزوا جل نصحهم وترغيبهم في بادئ الأمر على الندم خاصة وعلى هدم هذا المكان المرتفع أو ذاك وعلى إعادة العبادات إلى أورشليم وما شاكل ذلك. ولكن بعض نبوءاتهم كانت تحمل بين طياتها بالفعل نغمة تشابه النغمة التي تصدر في أيامنا هذه عمن نسميهم (بالمصلحين الاجتماعيين). كقولهم "إن الأغنياء يسحقون وجوه الفقراء"؛ وإن المترفين ليستنفدون خبز الأطفال؛ وإن ذوي النفوذ والأثرياء ليقلدون بذخ الأجانب ورذائلهم ويضحون بالعامة على مذبح هذه البدع الجديدة، وهذا ما لا يرضاه الإله "يهوه"، ولا مراء أنه منزل بالبلاد من أجل سخطه وعقابه.

ولكن اتساع أفق الأفكار الذي نجم عن الأسر، أفضى إلى تغيير نغمة التنبؤ وتوسيع مجالاتها. فإن الوضاعة المشوبة بالحسد والتي كانت تشوه الصورة القبلية الأولى للإله، قد حلت محلها صورة جديدة تقول بإله كله بر وصلاح مطلق، وواضح أن سلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودي، بل كان شيئاً يحدث في تلك الأيام في كافة أنحاء العالم السامي. فإن تفتيت الشعوب والممالك لتكوين إمبراطوريات ذلك العصر العظيمة الدائبة التغير، وتحطيم النحل ونظم العبادات والكهانات، وما كان يجري من تبادل التكذيب والتحقير بين المعبد والمعبد في تنافسهما ومنازعاتهما، كانت كلها مؤثرات تفك عقال أذهان الناس وتفتح أمامها آفاقًا أكثر سعة وأشد حرية في النظرة الدينية. كانت المعابد تكدس كنوزًا عظيمة من المواعين الذهبية ولكنها فقدت سيطرتها على أخيلة الناس.

ومن العسير علينا أن نقدر ما إذا كانت الحياة في ظلال هذه الحروب المستديمة قد صارت أقل استقرارًا وسعادة مما كانت عليه من قبل، ولكن مما لا سبيل إلى الشك فيه أن الناس أصبحوا أشد إدراكًا لما فيها من شقاوة وعدم اطمئنان. فلم يبق للناس إلا القليل من الارتياح والاطمئنان – اللهم إلا في قلوب الضعفاء والنساء – إلى تلك القرابين والطقوس وإلى عبادات المعبد الشكلية. هكذا كان العالم الذي شرع أنبياء إسرائيل المتأخرون يحدثونه عن الرب الأوحد وعن الوعد بأنه لا بد أن يأتي يوم يسود العالم فيه السلام والوحدة والسعادة. وهذا الإله العظيم الذي شرع الناس إذ ذاك في الكشف عنه كان يعيش في معبد "لم تصنعه يد، وهو سرمدي في السموات". ولا يخالجنا إلا القليل من الشك في وجود مقدار كبير من أمثال هذه الأفكار وتلك القواعد في مملكة بابل ومصر وفي كل أرجاء الشرق السامي. وأسفار الأنبياء في الكتاب المقدس لا تعدو أن تكون نماذج لتنبؤات ذلك الزمان.

ولقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى تسلل الكتابة والعرفان تدريجيًا من أفقهما المحدود المقصور على الكهنة وخدم المعابد وحرمها المقدس، أعني من تلك القوقعة التي نمت فيها وترعرعت أول الأمر. ولقد اتخذنا من هيرودوت نموذجا شائقًا لما أطلقنا عليه اسم الذكاء الطليق للجنس البشري. وها نحن أولاء نعالج تدفقًا جديدًا لآراء وأفكار أخلاقية تنساب في المجتمع العام. وإن في ظهور الأنبياء العبرانيين، وفي الانتشار المطرد الذي لقيته فكراتهم المتجهة إلى الاعتقاد بوجود رب واحد في هذا العالم بأسره، لتطورًا آخر مماثلاً لذاك، تهيأ لضمير البشرية الحر. ومنذ ذلك الزمان فصاعدًا، والفكر الإنساني تخالجه – إما في شيء من الضعف والخفاء، وإما على حالة من التآزر وحشد القوى – فكرة تهدف إلى إقامة حكم واحد في العالم، وفكرة أمل ورجاء في سلام فعال بديع وسعادة رائعة يسودان شئون البشر. بذلك تحولت الديانة العبرانية من ديانة معبد من الطراز القديم، وأصبحت إلى حد كبير ديانة أنبياء خلّاقة من طراز جديد. ويتعاقب الأنبياء نبيًا بعد نبي.

ثم ولد فيما تلا ذلك من أيام – كما سنذكر لك – نبي ذو قوة لم يسبق لها مثيل، هو عيسى، الذي أسس أتباعه تلك الديانة العالمية العظيمة، وأعني بها الديانة المسيحية، وبعد ذلك ظهر أيضًا نبي آخر، هو محمد، وكان ظهوره في بلاد العرب، وقد أسس الإسلام، وعلى الرغم من انفراد كل منهما بما له من خصائص مميزة، فإن هذين المعلمين قد نشآ بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء اليهود. وليس من عمل المؤرخ أن يناقش صدق الدين أو كذبه، وإنما يقتصر عمله على تسجيل ظهور الآراء والفكر البنّاءة العظيمة. فمنذ ألفين وأربعمئة من السنين، وبعد أن انقضت ستة أو سبعة أو ثمانية آلاف من السنين على بناء حوائط المدن السومرية الأولى، ظهرت في العالم فكرتا الوحدة الخلقية للبشرية والسلام العالمي.

الفصل التاسع عشر

الشعوب الناطقة بالآرية

في عصور ما قبل التاريخ

١- انتشار الناطقين بالآرية.

٢- عن حياة الآريين الأصلية.

٣- العائلة الآرية.

١ – انتشار الناطقين بالآرية

تكلمنا عن اللغة الآرية بوصفها لغة نشأت على الأرجح في إقليم الدانوب وجنوب الروسيا ثم انتشرت من منطقتها الأصلية إلى مناطق أخرى. ونحن إنما نقول "على الأرجح" لأنه لم يثبت قط ثبوت محققًا أن ذلك الإقليم كان مركزها. ولقد أثيرت حول هذا الموضوع مناقشات واسعة النطاق وحدث بصدده اختلاف كبير في الرأي. لذا فنحن إنما نقدم إليك وجهة النظر السائدة. كانت تلك اللغة في الأصل لغة مجموعة من الشعوب النوردية الجنس. فلما أن انتشرت الآرية انتشارًا واسعًا أخذت في التفرع والانقسام إلى عدد من اللغات الثانوية. فالتقت في الغرب والجنوب بلغة "الباسك" التي كانت سائدة في إسبانيا، ولعلها لقيت أيضًا لغات أخرى متنوعة على شواطئ البحر المتوسط.

وقبل انتشار الآريين من بلادهم الأصلية نحو الجنوب والغرب كان الجنس الأيبيري موزعًا بين بريطانيا العظمى وأيرلندا وفرنسا وإسبانيا وشمال أفريقية وجنوب إيطاليا، كما كان على حالة أكثر مدنية وتحضرًا في بلاد الإغريق وآسيا الصغرى. وكانت بينه وبين المصريين صلات وثيقة. وإذا حكمنا عليه بآثاره الباقية في أوربا، قلنا إنه كان صغير الحجم أو يكاد، وكان بوجه عام بيضاوي الوجه مستطيل الرأس. وكان يدفن رؤساءه وذوي المكانة من أفراده في حجرات من الجندل [1] مغطاة بروابٍ عظيمة من التراب. ولما كانت هذه الروابي أكثر طولاً منها عرضًا، فإنها تعرف بالقبور [2] المستطيلة، وكان هؤلاء الأقوام يحتمون في بعض الأحيان في الكهوف، كما كانوا أيضًا يدفنون بعض موتاهم فيها. ومن آثار العظام الإنسانية، سواء المحترق منها والمهشم والمقطع، بما في ذلك عظام الأطفال – نستنتج أنهم كانوا من أكلة لحوم البشر.

هذه القبائل الأيبيرية القصيرة الأجساد الداكنة اللون (يضاف إليهم الباسك إن كانوا جنسًا مغايرًا) قد دفعوا إلى الخلف جهة الغرب، ثم هزموا واستبعدوا على أيدي موجات تتقدم وئيدًا من أولئك الناطقين بالآرية الأطول قامة والأشد شقرة الذين نزحوا نحو الجنوب والغرب عابرين أوربا الوسطى، وهم الذين نسميهم الكلت. ولم يقف في وجه ذلك اللسان الآري القاهر غير شعب الباسك وحده. وشرع أولئك الناطقون بالكلتية يتخذون طريقهم رويدًا رويدًا نحو المحيط الأطلسي، وكل ما يتبقى اليوم من أعقاب الأيبيريين مختلط بالسكان الكلتيين. أما مدى تأثير الغزو الكلتي في سكان إرلندة فهو مثار جدل إلى وقتنا هذا. وربما كان الكلت في تلك الجزيرة مجرد طائفة من الغزاة فرضوا لغتهم على رعية من السكان أكثر عددًا. وربما صح مثل هذا القول عن إسبانيا. بل يشك بعض الناس فيما إذا كان شمال إنجلترة نوردي الدم أم يغلب عليه الدم السابق للكلتي. فإن بين أهل ويلز من هو قصير داكن البشرة، كما أن بين الإرلنديين طرزات مماثلة، وكلاهما أيبيري الجنس. والبرتغاليون العصريون يغلب عليهم كذلك الدم الأيبيري.

([1]) الجندل: هو الصخر الضخم. (المترجم).

([2]) وقد أسميناها أيضًا في المجلد الأول باسم تلعات الدفن. (المترجم)

وكان الكلت يتكلمون لغة هي الكلتية، يقال عنها إنها كانت تجمع بين مفردات آرية، وبين أجرومية البربر Berbers (أي الأيبيريين)، وهي اللغة التي قدر لها أن تتفرع بدورها فتصبح لغة غالة واللغ ات (Gallic) الويلزية والبريطونية (Briton) والاسكتلندية والإرلندية الغيلية (Gaelic) وألسنة أخرى. وك ان الكلتي ون يدفنون رماد رؤسائهم وعظمائهم في قبور مستديرة. وعلى حين كان هؤلاء الكلتيون النورديو ون ينتش رون غربًا، كانت هناك شعوب آرية نوردية أخرى تضغط جنوبًا على شعب البحر المتوسط ذي الل ون الأب يض الداكن في أشباه الجزائر الإيطالية والإغريقية وتطور مجاميع الألسن اللاتينية والإغريقية. وثمة قبائل آري ة معينة كانت تندفع نحو البلطيق وعبره حتى تدخل اسكنديناوة، وهي تتكلم ضد روبًا م ن الآري ة أصد بحت النورسية القديمة – وهي أصل السويدية والدانمركية والنرويجية والإيسلندية – والقوطية والجرماني ة العلي ا والسفلى [1].



([1]) انظر اللغات البشرية ص ١٣٩ من المجلد الأول. (المترجم)

وفي نفس الوقت الذي كان اللسان الآري البدائي ينتشر فيه على هذا النحو، وينقسم إلى لغات وليدة في الغرب، كان ينتشر ويتفرع في الشرق كذلك. فإن القبائل الناطقة بالآرية كانت تستعمل في شمال جبال الربات والبحر الأسود لهجة تميزها تسمى السلافونية (الصقلبية) التي منها جاءت الروسية والصربية والبولندية والتشيكية وألسنة أخرى. وثمة لهجات أخرى للغة الآرية موزعة في آسيا الصغرى وبلاد إيران، تجسمت ذاتيتها في صورة الأرمنية "والهندوإيرانية" وهي أم اللغتين السنسكريتية والفارسية. ولقد أطلقنا في هذا الكتاب كلمة الآرية على كل هذه المجموعة الضخمة من اللغات، وإن كان اصطلاح "الهندوأوربية" مستعملاً في بعض الأحيان للدلالة على العائلة بأسرها، على حين اقتصر استعمال كلمة الآرية على حيز أضيق هو اللسان الهندوإيراني، ثم قدرت الأيام لهذا اللسان الهندوإيراني أن يتشعب فيما بعد فيصبح عددًا من اللغات من بينها الفارسية والسنسكريتية، والأخيرة إنما هي لغة قبائل بعينها من الناطقين بالآرية ذوي البشرة الشقراء، زحفوا شرقًا ودخلوا الهند في زمان ما بين ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق. م.، وتغلبوا على الشعوب الدرافيدية السمراء الذين كانت تلك الأرض في أيديهم إذ ذاك.

ولقد انتشرت قبائل آرية أخرى من مجال جولانها الأصلي إلى شمال البحر الأسود وجنوبه، كما سارت حول شمال وشرق بحر قزوين ملازمة شواطئ بحار تلك المنطقة أثناء انحسارها أمامهم وإفساحها الطريق لهم. وبذلك أخذت تنشب المنازعات فضلاً عن الاختلاطات بينهم وبين الشعوب المغولية من مجموعة الأورال آلتاي اللغوية، وهم القوم الذين يربون الخيل في سهوب آسيا الوسطى المعشبة. ويلوح أن الآريين اكتسبوا طريقة استخدام الخيل في الركوب والحرب من هاته الشعوب المغولية. ولقد كانت هناك في عصر ما قبل التاريخ ثلاثة أو أربعة أنواع أو أجناس مختلفة من الخيل في أوربا وآسيا. على أن أرض السهوب أو الأراضي شبه الصحراوية هي التي أعدت في مبدأ الأمر خيولاً ذات بنية مهيأة لغاية أخرى غير الانتفاع بها كغذاء.

وليكن مفهومًا أن كل هذه الشعوب القاطنة في السهوب الروسية والآسيوية، كانوا يغيرون مواطنهم بسرعة. ذلك أن تعاقب الفصول المتطرفة المناخ ربما قذف بهم مئات كثيرة من الأميال. ولذا فليس في ميسورنا اليوم أن نستدل على مضارب أقدامهم وتنقلاتهم إلا على سبيل الظن والاستدلال. فكانوا ينزحون إلى الشمال في كل صيف، ثم يعودون أدراجهم إلى الجنوب من جديد عندما يحل الشتاء. وكان مدى هذا التأرجح السنوي يبلغ في بعض الأحيان مئات الأميال. ورغبة منا في التبسيط، تمثل خرائطنا انتقالات الشعوب المترحلة بخط مستقيم، وإن كانوا في حقيقة الأمر يتحركون في تأرجحات سنوية مثلهم في ذلك مثل خادم يكنس دهليزًا فتتنقل مكنسته من جانب إلى جانب آخر وهو يخطو إلى الأمام في عمله. وكانت المنطقة الممتدة حول شمال البحر الأسود وربما كذلك شمال بحر قزوين، والمبتدئة من مجال القبائل التيوتونية الأصلية القاطنة في أوربا الوسطى وأوربا الشمالية حتى منطقة الشعوب الإيرانية التي تفرعت إلى الميديين والفرس والهنود (الآريين)، – كانت هذه المنطقة كلها هي أراضي الرعي التي تنتجعها قبائل اختلط حابلها بنابلها اختلاطا يجعل الإبهام لا الدقة بالنسبة لها أقرب إلى الحقيقة، وهي قبائل من أمثال الكمّريين، والسرماتيين وأولئك الإسكيذيين (الإشقوذيين) الذين اشتركوا مع الميديين والفرس في الاتصال بالإمبراطورية الآشورية اتصالاً له أثره الفعال قرابة سنة ١٠٠٠ ق. م. أو قبلها.

وإلى الشرق والجنوب من البحر الأسود بين الدانوب وبين الميديين والفرس وإلى الشمال مـ ن الشـ عوب السامية وشعوب البحر المتوسط الساكنة على السواحل وفي أشباه الجزر، استقرت سلسلة أخرى مـ ن قبائـ ل آرية لا تقل عن الأخرى في عدم تحديد مستقراتها، وهي تتنقل تنقلاً سهلاً هيناً من مكان إلى آخـ ر وتخـ تلط اختلاطًا حرًا، وهو أمر يورث المؤرخين أعظم الحيرة والارتباك، إذ يلوح مثلاً أنهم مزقوا الحضارة الحثّيـ ة وتمثلوها، وهي حضارة كانت على ما يرجح سابقة للآريين في أصل نشأتها. وربما لم يكن هؤلاء الآريـ ون الأخيرون قد وصلوا إلى نفس المرحلة العالية من حياة الترحل التي بلغها اسكيذيو السهول العظيمة.

٢- عن حياة الآريين الأصلية

أي نوع من الحياة كان يعيشه هؤلاء الآريون في عصر ما قبل التاريخ؟ أولئك الآريون النورديون الذين هم أهم أسلاف معظم الأوربيين ومعظم الأمريكيين البيض والمستعمرين الأوربيين في أيامنا هذه، كما هم أسلاف الفرس والطائفة العليا من الهندوك، وربما كانوا أيضا أسلاف الأرمينيين، على أن هؤلاء الأخيرين كانوا على الأرجح شعبًا غير آري، ولعلهم شعب حيثي تعلم لغة آرية.

ولدينا في الإجابة عن هذا السؤال مصدر جديد من مصادر المعرفة يضاف إلى ما كشف عنه الحفر من الآثار والبقايا التي التزمنا أن نعتمد عليها في حالة أسلاف الآريين، لدينا ميدان اللغة نطرقه. ذلك أن دراسة اللغات الآرية دراسة عناية وتمحيص تبين أن من الممكن استنتاج طائفة من النتائج عن حياة هؤلاء الشعوب منذ ٥٠٠٠ أو ٤٠٠٠ سلفت من السنين.

فإن بين كل هاته اللغات مشابهة عامة، فإن كلاً منها كما سبق أن بينا تشتق الكلمات المختلفة بإدخال تغييرات على عدد من الأصول أو (الجذور) المشتركة بينها. فمتى وجدنا نفس أصل الكلمة وجذرها متداولاً في كل هذه الألسن أو جلها بدا من المعقول أن نستنتج أن المعنى الذي يومئ إليه أصل الكلمة هذا، كان لا ريب معروفًا للأجداد المشتركين. وبدهي، أنه إن وجدت بلغاتهم نفس الكلمة بالضبط فربما اختلف الحال إذ إنها قد تكون اسمًا جديدًا دالاً على شيء جديد أو فكرة جديدة انتشرت في العالم في زمان حديث جدًا، فكلمة "غاز" مثلاً لفظة صاغها "فان هلمونت" وهو كيماوي هولندي، حوالي سنة ١٦٢٥، فانتشرت في معظم الألسن الممدنة، وكلمة "التبغ" كذلك كلمة هندية أمريكية جاءت في أثر انتشار التدخين في كل مكان تقريبًا. على أنه إذا وجدت نفس الكلمة في عدد من اللغات وإذا كانت تتبع في تصريفاتها خصائص التصريف في كل لغة على حدة جاز لنا أن نوقن أنها كانت في تلك اللغة، وأنها ظلت جزءًا من تلك اللغة. وإنا لنعرف مثلاً أن الكلمتين الدالتين على العربة والعجلة تتداولان على هذا المنوال في جميع الألسن الآرية، وبذلك نستطيع أن نستنتج أن الآريّن البدائيين، وأعني بهم الآريين النورديين الخلص، كانت لديهم عربات، وإن كان يبدو من عدم وجود أي كلمات مشتركة دالة على برانق العجلة وإطارها ومحورها، أن عجلاتهم لم تكن من صنع صانع عجلات ولا كانت ذات برانق، بل كانت تؤخذ من جذوع الشجر وتسوى فيما بين الأطراف ببلطة.

وكانت هذه العربات البدائية تجرها الثيران، إذ لم يكن الآريون الأول يركبون أو يسوقون الخيل ولم يكن للخيل عندهم كبير منفعة. وكان مغول العصر الحجري الحديث شعبًا من الفرسان راكبي الخيل، على حين كان آريو نفس العصر الحجري الحديث شعبًا يستخدم البقر، فكانوا يأكلون لحم البقر، لا لحم الخَيل. وشرعوا بعد عصور كثيرة في استخدام الماشية في الجر، وكانوا يقدرون الثراء بعدد الأبقار، ويضربون بها في الأرض طلبًا للمرعى، ويحملون بضائعهم على عرباتهم التي تجرها الثيران كما يفعل بوير أفريقيا الجنوبية، وإن كانت عرباتهم بطبيعة الحال أقبح شكلاً من أية عربة توجد الآن في العالم، والراجح أنهم كانوا يتنقلون في مناطق فسيحة مترامية الأرجاء، إذ كانوا شعبًا نزوعًا إلى الهجرة، ولكنه لا يدخل تحت المعنى الدقيق

لكلمة "الرحّل" لأن انتقالاتهم كانت أبطأ وأثقل وأقل مهارة من الشعوب التي أصبحت فيما بعد هي الشعوب المترحلة الأكثر تخصصًا. كانوا قوم غابات أو أحراش خفيفة (Parklands) لا خيل عندهم، وكانت حياتهم تتطور متجهة صوب الهجرة متحولة عن حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر استقرارًا والمشتغلة بقطع الغابات، وقد تكون التغيرات المناخية التي كانت تحيل الغابات إلى مراع، وكذلك احتراق الغابات بالنار عرضًا، من العوامل التي ساعدت على هذا التطور.

سبق أن وصفنا لك نوع البيت الذي يسكنه الآري البدائي، كما وصفنا لك حياته المنزلية بقدر ما سمحت لنا بقايا مساكن البحيرات السويسرية وكانت بيوته في معظم الأحوال رثة بالغة الضعف، كما كانت مصنوعة من الطين وفروع الأشجار المتشابكة، بحيث لم تقو على البقاء. ولعله كان يتركها لأتفه الأسباب، راحلاً عنها بعرباته التي تجرها الأبقار، وكانت الشعوب الآرية تحرق موتاها، وهي عادة لا يزالون يرعونها في الهند، على أن أسلافهم أصحاب القبور المستطيلة وهم الأيبيريون، كانوا يدفنون موتاهم راقدين على جنوبهم في هيئة الجالسين. وفي بعض ركام الدفن الآرية القديمة (وهي القبور المستديرة) كانت الأوعية المحتوية على رماد الراحلين مصنوعة على صورة المنازل، وهذه تمثل أكواخًا مدورة لها سقوف من القش.

وكان انتجاع الآري البدائي للمرعى أعظم أهمية لديه من الزراعة. وكان يزرع في مبدأ الأمر بفأس خشبي بدائي، ثم ما لبث حين اكتشف استخدام الماشية لأغراض الجر أن بدأ في الحراثة الحقيقية بالثيران متخذًا محراثه في مبدأ الأمر من فرع شجرة معوج اعوجاجًا يفي بحاجته. وزراعاته الأولى التي ظهرت قبل ذلك، لا شك أنها كانت أقرب إلى صورة البساتين الصغيرة المجاورة لمباني المنازل منها إلى زراعة الحقول. وكانت معظم الأراضي التي تنزلها قبيلته أرضًا مشاعة ترعى فيها الماشية بعضها مع بعض.

وهو لم يستعمل الحجر قط في بناء جدران المنازل حتى شارف حافة العصر التاريخي ذاتها. وكان يستعمل الحجر في المواقد (أمثال ما يوجد في جلاستونبُري Glastonbury، كما كان يستعمل الحجر أحيانًا في الأجزاء السفلى من المباني. على أنه قد شاد بالفعل نوعًا من البيت الحجري في وسط الركام العظيمة التي كان يدفن فيها رماد النابهين من موتاه، ولعله تعلم هذه العادة عن جيرانه وسابقيه الأيبيريين، فقد كان هؤلاء البيض الداكنون أصحاب الثقافة الجندلية [1]، وليس الآريون البدائيون هم أصحاب الفضل في إقامة معابد من أمثال ستون هنج (Stonehenge) في ولتشير (Wiltshire) وكارناك (Carnac) في بريتاني (Brittany).

وما كان هؤلاء الآريون يحتشدون في مدن، ولكن في مناطق الرعي في هيئة عشائر ومجتمعات قبلية، ويؤلفون فيما بينهم أحلافًا مفككة هدفها التعاون المتبادل بزعامة رؤساء مختارين. وكانت لهم مراكز يستطيعون أن يلجئوا إليها مع ماشيتهم إن دهمهم خطر، وكانوا يقيمون المخيمات المحوطة بالجدران الطينية والسياجات. ولا يزال من الممكن تقصي آثارها في طبقات ما عفا عليه التاريخ من معالم البلاد الأوربية. والزعماء الذين كانوا يقودون الناس في الحرب، هم في غالب الأمر نفس الأشخاص الذين يقومون بالتطهير من الرجس بتقديم القرابين، وهم كهنتهم الأول.

---

[1] انظر ص ١٠٢، ١٠٧ من ج١ (ط٣) من المعالم. (المترجم).

وقد انتشرت معرفة الإنسان للبرونز في أوربا في أوان متأخر. فإن الأوربي النوردي ظل يسير في سبيل التقدم البطيء جيلاً بعد جيل مدة ترامت إلى ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ سنة قبل ظهور المعادن، وكانت حياته الاجتماعية قد تطورت في تلك الفترة حتى لقد كان هناك رجال ذوو حرف مختلفة فضلاً عن رجال ونساء من مراتب مختلفة في المجتمع، فكان هناك رجال يعملون في الخشب والجلد، وكان ثم الفخرانيون والنحاتون. وكانت النساء يغزلن وينسجن ويطرزن، وكان هناك رؤساء عائلات تسنموا مراتب الزعامة والنبالة.

وكان الرجل من أفراد القبيلة الآرية يذهب عن نفسه سآمة حياة الرعي والتجول بأن ينذر النذور ويقيم الحفلات ابتهاجًا بالنصر، ويقيم الجنازات ويميز بين فصول السنة التقليدية بما يقيم من أعياد وولائم. ولقد مر بنا من قبل حديث اللحوم التي كان يتناولها. وكان شغوفاً بتناول المشروبات المسكرة يصنعها من الشهد ومن الشعير. ثم عاد فصنعها من العنب مع انتشار القبائل الناطقة بالآرية جنوبًا. فإذا شربها تملكته نشوة السكر والمرح. ولسنا نعرف ما إذا كان قد عرف الخميرة واستخدمها لتجفيف خبزه ورفعه أو لتخمير مشروباته.

وكان في ولائمه أفراد أوتوا موهبة المجون والسخرية يعمدون إلى ذلك لا جرم للفوز بضحك إخوانهم، على أنه كان هناك نوع آخر من الرجال أوتوا أهمية عظيمة في عصرهم وأهميتهم لدى المؤرخ أعظم وأكبر، أولئك هم بعض المغنين الذين كانوا يرجعون الأغاني وينشدون القصص، وهم المنشدون أو الشعراء المتجولون. وكان هؤلاء الشعراء يعيشون بين ظهراني كافة الشعوب الناطقة بالآرية. جاء ظهورهم نتيجة لذلك التطور الذي أصابته لغة الكلام بل هم عامل آخر مساعد في تطور تلك اللغة التي كانت رأس كل ما أصابه الإنسان من تقدم في العصور الحجرية الحديثة.

وكانوا ينشدون أو يلقون أقاصيص عن الماضي، أو أقاصيص عن رئيسهم الراهن وشعبه، كما ينشدون أيضًا أقاصيص أخرى استحدثوها، وكانوا يستظهرون النكات والقفشات. وهم الذين استحدثوا الأوزان والقوافي وتمسكوا بها وحسنوها كما وفقوا إلى السجع وجناس الحروف الأولى من الكلمات وما شابه ذلك ومما يتهيأ في اللغة من احتمالات كامنة. والراجح أنهم بذلوا جهدًا كبيرًا في سبيل إحكام قواعد اللغة ووضعها على أسس ثابتة. وكانوا فيما يحتمل أول من أمتع الأذن من عظماء الفنانين على نحو ما كان مصورو الصخور الأورينياكيون فيما بعد أول عظماء الفنانين الذين نعمت بآثارهم الأيدي والعيون. ولا ريب أنهم كانوا يأتون بالكثير من الحركات والإشارات. والراجح أنهم كانوا يتعلمون الحركات والإشارات المناسبة وهم يحفظون أناشيدهم. على أن ترتيب اللغة وعذوبتها وقوتها كانت لا جرم شغلهم الشاغل.

وهؤلاء الشعراء يؤذنون بخطوة جديدة خطتها إلى الأمام قوة العقل الإنساني وآفاقه. وإليهم يرجع الفضل في توجيه أذهان الناس إلى شعور جديد "بكائن" أعظم من أشخاصهم هو القبيلة، وشعور آخر بحياة ترجع إلى الماضي البعيد. فلم يقتصروا على مجرد تذكير قومهم بقديم الإحن والمعارك، بل أخذوا يترنمون بذكرى المحالفات القديمة والتراث المشترك، فبعثت على أيديهم جلائل أعمال السالفين من الأبطال. وبذا صار الآريون يعيشون بخيالهم قبل مولدهم وبعد انتهاء أجلهم.

وهذه التقاليد الشاعرية نمت في مبدأ الأمر نموًا وئيدًا، ثم ما لبث نموها أن زاد سرعة كمعظم أمور الإنسان. حتى إذا حان الزمان الذي كان البرونز يدخل فيه إلى أوربا، لم يكن هناك شعب آري واحد لا يقوم فيه احتراف الشعر وتدريب الشعراء. وعلى أيديهم أصبحت اللغة كأجمل ما يمكن أن تكون فقد كان هؤلاء الشعراء كتبًا حية، وكانوا تواريخ في صورة رجال، وكانوا قوامين ومنشئين لتقاليد جديدة في الحياة الإنسانية أشد قوة. وكان لكل شعب آري سجله الشاعري الطويل يتوارثونه على هذا الوجه نقلاً وسماعًا. فكان للألمان قصائد الساجا كما تسميها اللغة التيوتونية، وللإغريق ملاحمهم وللهنود الآريين شعرهم القصصي الفيدانتي بالسنسكريتية القديمة. وأقدم الشعوب الآرية كانوا في جوهر أمرهم شعب صوت؛ إذ يلوح أن الإلقاء كان متسلطًا على كل شيء حتى على تلك الرقصات الطقوسية والدرامية وعلى "ارتداء ثياب الماضي" وهي أمور كان لها أيضًا لدى معظم الشعوب الإنسانية الفضل في نقل التقاليد من السلف إلى الخلف.

ولم تكن هناك في ذلك الزمان كتابة. ولما أن تسرب فن الكتابة لأول عهده في أوربا – كما سنقص عليك نبأه فيما بعد – فلا بد أن الناس رأوا فيه طريقة تسجيل أشد ما تكون بطئًا أو سماجة وجمودًا، حتى لأوشكوا آن يضنوا على القرطاس بهذه الكنوز الوهاجة الجميلة التي تعيها ذاكرتهم. وقصرت الكتابة في أول الأمر على الحسابات والحقائق الواقعية. وازدهر شأن الشعراء والمنشدين المتجولين، حتى بعد إدخال الكتابة بزمن بعيد جدًا، بل الواقع أنهم بقوا في أوربا حتى العصور الوسطى في صورة المغنين المتجولين. Minstrels.

ولم يكن لتقاليدهم لسوء الحظ ما للسجل المكتوب من ثبات. إذ إنهم كانوا لا ينفكون يصححون ويهدمون ويبنون، وكانت لهم طرائقهم المتجددة وكانت لهم نواحي إهمالهم فترتب على ذلك أن لم يبق من ذلك الأدب غير المسطور لعصور ما قبل التاريخ غير آثار ضئيلة دخلها الشيء الكثير من التحوير والتنقيح. ومن أمتع تواليف الآريين قبل التاريخ وأحفلها بالمعلومات تلك الملحمة التي خلدتها الإلياذة الإغريقية. ويرجح أن صيغة أولى من الإلياذة كانت تتلى على الناس إبان ١٠٠٠ ق. م. ولكن لعلها لم تدون حتى (٧٠٠ أو ٦٠٠ ق. م.) ولا بد أن لكثير من الرجال يدًا فيها، إما مؤلفين أو محسنين منقحين. على أن ما عقب ذلك من متوارث التقاليد الإغريقية تنسبها إلى شاعر ضرير يدعي هوميروس، كما ينحلونه كذلك الأوديسيا، وهي مؤلف شديد الاختلاف عنها في الروح والنظرة. ويحتمل أن يكون بين الشعراء الآريين كثير من المكفوفين. والشعراء كما يقول الأستاذ ج. ل. مايرز Myres كانوا يُسلبون البصر لمنعهم من الشرود من القبيلة. ولقد رأى المستر ل. لويد في روديسيا موسيقارًا لدى جوقة ممن احترفوا الرقص من الأهالي، وقد سلبه رئيسه بصره لهذا السبب عينه. وكان السلاف (الصقالبة) يسمون الشعراء باسم سليباك Sliepae، وهي الكلمة التي يطلقونها أيضًا على الرجل الضرير.

ونص الإلياذة الأصلي الذي كان الناس يتلونه أقدم من الأوديسيا عهدًا. ويقول الأستاذ جلبرت مري: "إن الإلياذة بوصفها أثرًا شعريًا نص كامل أقدم من الأوديسيا عهدًا، وإن كانت مادة الأوديسيا (وهي إلى حد كبير من التراث الشعبي (Folk-lore) الذي لا يمكن تحديد تاريخه) أقدم من أية مادة تاريخية في الإلياذة. ويرجح أن كلاً من الملحمتين كتبت مرة ثانية، ثم أعيدت كتابتها في تاريخ لاحق، على نفس النحو الذي أعاد به لورد تنيسون أمير شعراء الملكة فكتوريا في كتابه "أناشيد الملك" كتابة قصة "مورت آرثر Morte d'Arthur"، وهي بذاتها التي أعاد كتابتها السير توماس مالوري قرابة ١٤٥٠ نقلاً عن الأساطير السابقة لعصره، وفيه ما

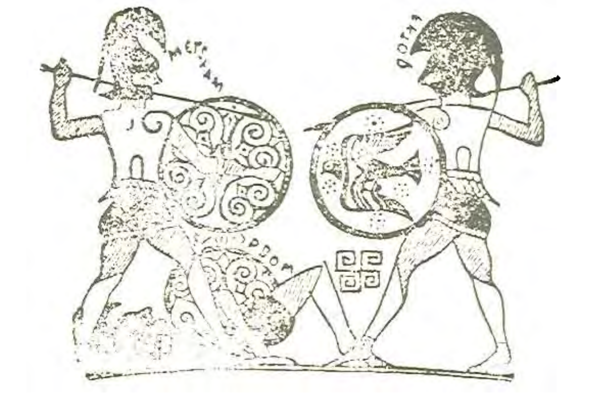
جعل الأقوال والمشاعر والشخصيات أقرب إلى الاتساق مع عصره. على أن حوادث الإلي اذة والأوديسـ يا، وطريقة العيش التي تصفان، وروح الأفعال المدونة فيهما، تنتمي إلى القرون الختامية لعصر ما قبل التاريخ. ثم إن هاته الأشعار سواء منها الساجا والملاحم والفيدا تزودنا هي وعلم الآثار القديمة وعلم فقه اللغة بينبـ وع ثالث للإحاطة بأنباء هاته الأزمان الغابرة. وإليكم مثلاً فقرة الإلياذة الختامية، وهي تصف على وجه الضـ بط طريقة إقامة القبر قبل التاريخ [1]:

أسرعوا جملة لشـ د البغـ ال   وقويِّ الثيران حول العجـ ال
ثم ساروا بهن فورًا وجـ دوا   وإلى السور أقبلـ وا أسـ رابًا
أنهرًا تسعة بجمـ ع الضـ رام   لبثـ وا ثـ م عاشـ ر الأيـ ام
رفعوا الميت والعيون هوام
فوق ذاك الوقود ثـ م النـ ارا   أضرموها بـ ـه تـ ؤج أوارا
ولهم حين لاح ورد بنان الـ .   فجر من حوله أقاموا عصابا
حيث هبت لواهب النيـ ران   أخمدوها بصرف خمر الدنان
ولفيف الإخوان والخلان
جمعوا كل أعظم الميت جمعا   بكئيب الفؤاد يـ ذرون دمعـ ا
أودعوها من ثم حُق لجـ ين   وكسوه برفيرهم [2] جلبابًـ ا
أنزلوها في حفرة حفروهـ ا   وبجلمود صخرهم طمروهـ ا
ثم شادوا الضريح إذ دفنوها
وحواليه أوقفـ وا الأرصـ ادا   من سراة السُّرى قروما شدادا
خشية من عدوهم أن يفـ اجي   بغتة حين غفلـ ـة واحتسـ ابا
وإذا القبـ ر أكملـ وا وأتمـ وا   صرح ذاك المليك فريام أمُّوا
حيث حواليه للعزاء انضموا
ولهم هيـ أ المليـ ك طعامًـ ا   كان في مأتم الفقيـ د ختامـ ا
ذاك ما كان من مناحة هكطوا   والذي روض الجياد الصلابا

---

(1) اعتمد المؤلف في هذا الاقتباس على ترجمة تشابمان الشعرية للإلياذة مصححًا بعض الكلمات بمساعدة ترجمة لانج وليـ ف ومايرز النثرية ونقلناه نحن عن ترجمة البستاني العربية لها ص ١١٤٨ (المترجم).

(2) البرفير والفرفير ضرب من الألوان مركب من الأحمر والأزرق، والثوب صبغ به ويعرف بالأرجوان. (المترجم).



ولا تزال هنا أيضًا ملحمة إنجليزية قديمة (ساجا) هي بيووُلْف (Beowulf) وقد صنفت قبل عبور الإنجليز من ألمانيا إلى إنجلترة بزمن طويل. وهي تختم بوصف منظر للدفن شبيه بذاك. وهي تبدأ بالحديث عن إعداد كومة الحطب للإحراق. وقد علقت من حولها التروس والدروع، وتحمل الجثة وتوقد النار، وبعد ذلك يدأب المحاربون عشرة أيام على إقامة مقبرة ضخمة لكي يراها عن بعد كل مسافر بالبر أو البحر.

وملحمة بيوولف التي ظهرت بعد الإلياذة بألف سنة على الأقل شائعة هي الأخرى، وذلك لأن إحدى مغامراتها الكبرى تدور حول نهب كنوز مقبرة قديمة ترجع إلى عهد أقدم من ذلك.

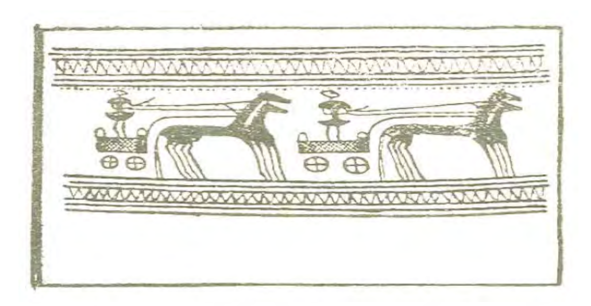
٣- العائلة الآرية

والملاحم الإغريقية تصور لنا الإغريق الأوائل على غير علم بالحديد، صفرًا من كل معرفة بالكتابة، كما تصورهم قبل أن يؤسسوا أي مدن إغريقية في تلك البلاد التي تدل كل الدلائل على حداثة عهدهم بفتحها. فأخذوا ينتشرون جنوبًا من مواطن الآريين الأصلية، وكانوا فيما يلوح قومًا من الشقر نازحين، حديثي عهد ببلاد الإغريق أي حديثي العهد بأرض كان يتملكها إلى ذلك الحين شعوب البحر المتوسط أو الشعوب الأيبيرية.

وتوخيًا للوضوح وإن تعرضنا لشيء طفيف من التكرار في هذه المسألة بالذات، نذكرك بأن الإلياذة لا تعطينا صورة حياة العصر الحجري الحديث البدائية بذلك الإقليم الآري الأصلي، بل تعرض علينا تلك الحياة وقد سارت حثيثًا صوب حالة جديدة، وكانت طريقة العيش الحجري الحديث قد انتشرت فيما بين ١٥٠٠٠، ٦٠٠٠ ق. م. بانتشار الغابات ووفرة النباتات في الحقبة المطيرة – فوق الجزء الأكبر من العالم القديم من نهر النيجر إلى نهر الهوانج هو، ومن إرلندة إلى جنوب الهند. وبينما كان مناخ أجزاء عظيمة من الأرض يرتد من جديد إلى حالة أكثر جفافًا وأشد تعريًا من النبات، كانت حياة العصر الحجري الحديث السابقة الأكثر بساطة تتطور في اتجاهين: أحدهما يؤدي بها إلى حياة أكثر تجوالاً وانتقالا، أي إلى حياة تنتهي آخر الأمر إلى أن تصبح حياة هجرة مستديمة بين مراعي الصيف والشتاء وهي ما تسمى باسم "حياة الترحل أو البداوة"، والآخر يفضي بها في وديان لأنهار معينة تسطع عليها الشمس – إلى حياة ري يختزنون فيها الماء. وهي التي تجمّع فيها الناس فكوّنوا المدن الأولى وأقاموا المدنيات الأولى. ولقد أسلفنا وصف المدنيات الأولى وألمحنا إلى تعرضها من وقت لآخر لغزوات الشعوب المترحلة ولحظنا من قبل أنه في خلال آلاف عديدة من السنين ظلت المدنيات تتعرض للغزوات يتردد عليها المترحلون ترددًا يكاد يكون إيقاعيًا كخفق الطبول.

وينبغي لنا أن نلحظ أن الإغريق كما تصورهم لنا الإلياذة ليسوا مجرد رحّل من العصر الحجري الحديث عارين من كل حضارة ولا هم بالقوم الممدنين، وإنما هم بدو مترحلون في حالة انفعال واضطراب، لأنهم كانوا التقوا من فورهم بمشهد الحضارة ورأوا فيه فرصًا للحرب والمغنم والسلب.

وإغريق الإلياذة الأوائل محاربون شديدو المراس، ولكن يعوزهم النظام – وما معاركهم إلا فوضى قوامها النزال الفردي. ولديهم الخيل ولكن ليس لديهم فرسان، وهم يستخدمون الحصان وهو حيوان عرفه الآريون في زمن حديث نسبيًا، يتخذونه لجر مركبة حربية. بدائية في ميادين القتال. وكان الحصان لا يزال في ذلك الزمان شيئًا جديدًا حتى لقد كان في حد ذاته مبعثًا للرعب. فأما أغراض الجر العادية فكانت الثيران أنعامها، كما رأينا من الاقتباس الذي قدمناه لك من الإلياذة.



ولم يكن لهؤلاء الآريين من كهنة سوى سدنة المقاصير والأماكن المقدسة. ومن رؤساء العائلات من كان يقوم كذلك بتقديم القرابين، ولكن لا يبدو أن ديانتهم تنطوي على خفايا كثيرة أو شعور بأسرار مقدسة. فعندما يخرج الإغريق للقتال، يلتئم من هؤلاء الرءوس والأكابر مجلس ينصّبون عليهم فيه ملكًا، يتمتّع بسلطات فضفاضة. وليست لديهم قوانين بل لديهم العرف وحده دون أي معايير مضبوطة للسلوك والأخلاق.

وكانت الحياة الاجتماعية لدى الإغريق الأوائل تدور حول دوارات [1] هؤلاء الزعماء. وكان هناك ولا ريب أكواخ للقطعان وما شابهها، ومبان "للعزب" منعزلة. على أن بهو الرئيس كان مركزًا جامعًا يؤمه الناس لحضور الولائم وسماع الشعراء والأخذ بنصيبهم من الألعاب والرياضة. وكان أرباب الحرف البدائيون يتجمعون هناك. وكانت من حوله حظائر البقر وإسطبلات الخيل وما إلى ذلك من المرافق. وكان الدهماء من غير ذوي المكانة ينامون في أي مكان حول ذلك البهو على النحو الذي كان يفعله الخدم والأتباع في قلاع القرون الوسطى، وكما يفعل الناس حتى الآن في الدوارات الهندية. وفيما عدا وجود الممتلكات الشخصية البحتة كان لا يزال يحيط بالقبيلة جو من الشيوعية القائمة على نظام الأبوة. فكانت القبيلة أو رئيس القبيلة يملك أرض المرعى، وكانت الغابة والأنهار مشاعًا بين الجميع.

ويلوح أن النظام الاجتماعي الآري – بل في الحق كافة المجتمعات الأولى . لم يكن يقوم على المنازل الصغيرة المنفصلة التي تتكون منها في الوقت الحاضر كتلة السكان في أوربا الغربية وأمريكا، بل كانت القبيلة عائلة كبيرة. وكانت الأمة جماعة من العائلات القبلية. وكان الدوار كثيرًا ما يضم مئات من الناس. وقد ابتدأ المجتمع البشري أمره على نفس الشاكلة التي ابتدأ بها تكوين القطعان والأسراب بين الحيوانات، وذلك بأن كانت العائلة تؤخر تفككها وانقسامها. وإنك لتجد الأسود في الوقت الحاضر في شرق أفريقيا جانحة بشكل واضح لأن تصبح حيوانات اجتماعية من هذه الناحية، وذلك في ملازمة الصغار لأمهاتها بعد استكمالها لنموها ثم في خروجها للصيد جماعة. وكان الأسد حتى حين أقرب شيء إلى حيوان منفرد. ولئن لم يتعلق الرجال والنساء بعائلاتهم في الوقت الحاضر بالقدر الذي كانوا يتعلقون به في الماضي، فذلك لأن الدولة والمجتمع يزودان الناس بالطمأنينة والعون والتسهيلات التي كانت في يوم ما في متناول جماعة العائلة دون غيرها.

([1]) الدوار كما هو معلوم هو دار الوجيه الريفي. (المترجم).

ومجتمع الهندوك في الوقت الحاضر لا يزال يحتوي تلك الدورات الكبيرة التي كانت في المراحل الأولى للجماعة البشرية. وقد وصف (المستر بهو بندرانات باسو) من أمد قريب دوارا هندوكيًا طرازيًا، هو دوار آري تهذب وتلطف بمرور آلاف من سني المدنية. بيد أن تكوينه الاجتماعي هو عين تكوين الدوارات التي تتحدث عنها الملاحم الآرية.

قال: "إن نظام العائلة المشتركة قد وصل إلينا من أزمان سحيقة في القدم، ولا يزال النظام الأبوي الآري القديم مسيطرًا في الهند. وهو على قدمه لا يزال زاخرًا بالحيوية. والعائلات المشتركة إنما هي هيئة تعاونية فيها للرجال والنساء منزلة محددة المعالم، وعلى رأس تلك الهيئة أرشد أعضاء العائلة، وهو في العادة أكبر الذكور سنًا، غير أنه كثيرًا ما تتسلم مقاليد السلطة أرشد النساء في حالة غيابه (راجع قصة بنيلوب Penelope في الأوديسيا).

"وعلى جميع القادرين جسميًا من الأعضاء أن يكرسوا جهودهم وكسبهم إلى الحصيلة العامة سواء أكان ذلك عن طريق المهارة الشخصية أو الزراعة والتجارة. فأما الضعفاء والأيامى واليتامى وذوو القربى المعوزون، فقد كان لزامًا أن تعولهم العائلة جميعًا وتعينهم، وكان لزامًا أن يعامل الأبناء وأبناء الإخوة والإخوة وأبناء العم جميعًا على قدم المساواة، إذ إن أي تفضيل لا محل له ربما أفضى إلى تفكك العائلة. وليس لدينا (في الهند) أي كلمة للدلالة على أبناء العمومة. فهم إما إخوة أو أخوات. وليس في مصطلحنا لفظ يدل على أبناء العمومة الذين يبعدون في قرابتهم لنا درجتين، فإن أولاد ابن عمك لحًا [1] إنما هم أبناء وبنات أخيك، مثلهم كمثل أولاد إخوتك أو أخواتك تمامًا. والرجل لا يستطيع أن يتزوج من ابنة عمه أو خاله مهما بعدت قرابتها منه إلا بقدر ما يستطيع التزوج من أخته لحًا، اللهم إلا في أجزاء بعينها من "مدراس"، حيث يستطيع الرجل أن يتزوج ابنة خاله. والعواطف العائلية والروابط العائلية قوية جدًا بينهم على الدوام. ولذلك كانت المحافظة على معايير المساواة بين هذا العدد الكبير من الأعضاء، لا تبلغ من الصعوبة ما تبدو عليه لأول وهلة. زد على ذلك أن الحياة هناك جد بسيطة، فلم يكن استعمال الأحذية حتى زمن قريب شائعًا داخل المنازل، وإنما كانوا يستعملون الخفاف أي الصنادل غير ذات الشسوع الجلدية. وإني لأعرف عائلة ميسورة الحال من الطبقة الوسطى مكونة من عدد من الإخوة وأبناء العمومة، ولها زوجان أو ثلاثة من الأحذية الجلدية تتناوب استعمالها. إذ إن تلك الأحذية لا تستعمل إلا إذا حدث ما يستدعي خروجهم، ولا تزال تلك الطريقة عينها مرعية في حالة الثياب الغالية الثمن أمثال الشيلان التي تبقى أجيالاً عدة، والتي تلقى مع تقادم العهد بها عناية ملؤها التجلّة لسابق استعمالها على يد أجداد كريمي الذكرى.

([1]) ورد في الوسيط: لحت القرابة بيننا لحًا، دنت ولصقت. [المترجم]

"وتبقى العائلة المشتركة أحيانًا متجمعة مدة أجيال عدة، حتى تصبح كبيرة الجرم ثقيلة العبء عسيرة القياد فتتجزأ إلى عائلات أصغر منها. وإنك لترى على هذا النحو قرى بأكملها مأهولة بأعضاء عشيرة واحدة. قلت إن العائلة هي جماعة تعاونية، وربما أمكن تشبيهها بدويلة، ويحتفظ لها بأوضاعها وبمكانتها نظامها القوي القائم على المحبة والطاعة، وإنك لترى في كل يوم تقريبًا أفراد العائلة الصغار، يتقدمون إلى كبيرها "ويأخذون تراب قدميه" علامة على التبرك، وكلما انطلقوا في مشروع لهم استأذنوه فيه وتقبلوا بركاته...! وهناك روابط كثيرة تربط العائلة بعضها ببعض: أولها رابطة التعاطف والمسرات المشتركة والأحزان المشتركة. فعندما تحدث في العائلة وفاة يشمل الحداد كل أفرادها، وإذا ولد مولود أو تزوج فرد عمت الأفراح كل العائلة. وهناك فوق كل شيء إله العائلة وهو تمثال لفشنو (Vishnu) الحافظ، وله حجرة خاصة، تعرف عادة باسم حجرة الرب. على أن بعض العائلات الميسرة الحال تخصص له معبدًا ملحقًا بالمنزل تؤدي فيه العائلة عبادتها اليومية، وترتبط العائلة بتمثال الرب بنوع من المحبة الشخصية، لأن التمثال ينحدر على العموم من الأجيال السابقة، وكثيرًا ما يكون أحد الأجداد الأتقياء قد حصل عليه بمعجزة من المعجزات في بعض الأزمان السحيقة.. وكاهن العائلة وثيق الارتباط برب العائلة. والكاهن الهندوكي جزء من حياة أتباعه العائلية لا يتجزأ، وقد دامت الرابطة بينها وبين شخصه مدة أجيال كثيرة. وليس الكاهن عادة رجلاً واسع العلم، وهو على كل حال ملم بتقاليد عقيدته. وليس الكاهن بالعبء الثقيل على العائلة إذ هو يرضى بالقليل. فإن ملء حفنات قليلة من الأرز لتكفيه، وإن عددًا قليلاً من أصابع الموز أو الخضر المزروعة في المنزل، وإن قليلاً من السكر غير المكرر المصنوع في القرية، وإن قليلاً من قطع العملة النحاسية تعطى له في بعض الأحيان – لهي كل ما يلزمه.

"وكل صورة لحياتنا العائلية لا تتناول بالحديث خدم الدوار تكون صورة بتراء. فالخادم الأنثى تعرف في البنغال باسم "جهي" أي الابنة، فهي كابنة البيت، وهي تدعو رب البيت وربته أبًا وأمًا، وتدعو شبان وفتيات العائلة إخوة وأخوات، وهي تقاسم العائلة حياتها، وتذهب إلى الأماكن المقدسة مع سيدتها، إذ إنها لا تستطيع الذهاب بمفردها، وهي على العموم تقضي حياتها مع العائلة التي تبنتها، وتعنى العائلة بأطفال الخادمة. والخدم الرجال يلقون معاملة مماثلة لهذه تماماً". وهؤلاء الخدم الرجال منهم والنساء هم في العادة قوم من طوائف أدنى مرتبة. على أن شعورًا بالتعلق الشخصي ينمو بينهم وبين أفراد العائلة، وحين تتقدم بهم السن يسميهم الصغار من أفراد العائلة – في حنان ومحبة – إخوة كبارًا وأعمامًا وخالات.

"ولكل بيت ميسر الحال مدرس مقيم على الدوام، يعلم أطفال العائلة كما يعلم أولادًا آخرين من أبناء القرية وليست مباني المدارس كثيرة النفقة، فإن في أية شرفة "فراندة" أو مظلة في الفناء متسعًا للأطفال ومعلمهم، ويقبل أبناء الطوائف الدنيا في هذه المدرسة مجانًا. فهذه المدارس الأهلية لم تبلغ يومًا مرتبة عالية جدًا. بيد أنها كانت مركزًا لتعليم الجماهير لم يتيسر مثله في أي قطر آخر.

"ويرتبط بالحياة الهندوكية واجب الكرم الذي تحتمه التقاليد، فإن واجب صاحب الدار يقضي عليه بأن يقدم الطعام لأي غريب يحضر قبل الظهيرة، وإن ربة البيت لتمتنع عن تناول طعامها حتى يتناوله كل أفراد العائلة – وإذ إن طعامها يكون في بعض الأحيان هو كل ما تبقى في المنزل، فإنها لا تتناول غداءها إلا بعد وقت الظهيرة بزمن كاف خشية أن يأتي غريب جائع ويطلب الغداء".

لقد استمرأنا الاقتباس من المستر باسو في شيء من الإسهاب، لأننا بهذا نصل فعلاً إلى شيء يشبه الفهم الحي لطراز الدوارات التي عمت المجتمعات البشرية منذ العصر الحجري الحديث، والتي لا تفتأ تعم اليوم الهند والصين والشرق الأقصى. والتي أخذت في الغرب تخلي مكانها سريعًا لنظام للتعليم تقوم به الدولة ومجالس البلديات، ولنظام "تصنيع" واسع النطاق يتيسر فيهما من استقلال الفرد وحريته قدر لم تعرفه قط تلك الدوارات الكبيرة. ولنعد الآن إلى التاريخ الذي تحفظه لنا الملاحم الآرية.

تنبئنا الملاحم السنسكريتية بقصة شديدة الشبه بتلك القصة التي تنطوي عليها الإلياذة. وهي قصة شعب أشقر يأكل لحم البقر – فإنهم لم يصبحوا نباتيين إلا في زمن لاحق – ينحدر من بلاد الفرس إلى سهل الهند الشمالي ويشق طريقه في مهل إلى نهر السند. ومن السند ينتشرون في أنحاء الهند ولكن بينا هم في انتشارهم تراهم يقتبسون الشيء الكثير من الدرافيديين السمر الذين غزوا بلادهم، ويبدو أنهم فقدوا تقاليدهم الشاعرية. ويقول المستر باسو: "إن الأشعار القديمة كانت تتناقل على الأخص في الدوارات على ألسنة النساء".

أما أدب الشعوب الكلتية الشفوي المحفوظ، وهم الذين اتجهوا غربًا، فلم يبق سليمًا كما بقي أدب الإغريق والهنود، وذلك لأنه سطر بعد انقضاء قرون عديدة، ولذلك فإنه – شأن ملحمة البيوولف (Peowlif) الإنجليزية البدائية – قد فقد كل شاهد واضح يشهد بوجود فترة هجرة إلى أراضي شعب سالف. ولئن ظهر فيه أثر لمن سبقوا الآريين، فإنهم إنما يظهرون فقط ظهور (الفيري [1] Fairy) في القصص الإرلندية.

وظلت إرلندة – وهي أشد المجتمعات الناطقة بالكلتية انقطاعًا عن العالم – محتفظة بحياتها البدائية إلى أحدث الأزمان. وقصة التين (Tain) وهي الإلياذة الإرلندية تصف حياة قوم يربون الماشية ولا يزالون يستخدمون العربات الحربية كلا تزال كلاب الحرب مستعملة لديهم، وتحمل رءوس القتلى معلقة حول رقاب الخيول. "والتين" إنما هي قصة غارة لسرقة الماشية، وفيها أيضًا يبدو النظام الاجتماعي على نحو ما شوهد في الإلياذة. فإن الرؤساء يجلسون في قاعات عظيمة رحيبة، ذلك أنهم يشيدون لأنفسهم القاعات ويقيمون فيها الولائم. وهناك ترفع أصوات الشعراء بالغناء وقص الأقاصيص على حين تدور الكأس بالشراب وينتشي الحاضرون. وليس هناك ما يدل دلالة واضحة على وجود كهنة، بيد أن هناك نوعًا من الطبيب الساحر حارس التعاويذ والتنبؤات.

---

(1) الفير – كائن أو روح خيالي كثير الورود في القصص الأوربي، له صورة إنسانية وقامته أقصر من الإنسان وله قدرة على عمل أشياء كثيرة خارقة لا يستطيع الإنسان عملها. (المترجم).

الفصل العشرون

الإغريق والفرس

١- الشعوب الهيلينية.
٢- المظاهر المميزة للمدنية الهلينية.
٣- الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في بلاد الإغريق.
٤- مملكة ليديا.
٥- نهوض الفرس في الشرق.
٦- قصة كرويس (قارون).
٧- دار يجتاح الروسيا.
٨- معركة ماراتون.
٩- ثيرموبيلا وسالاميس.
١٠-بلاتايا وميكالي.

١- الشعوب الهلّينية

يظهر الإغريق لأول مرة في ذلك الضوء المعتم السابق لفجر التاريخ (قبل عام ١٥٠٠ ق.م. على التقريب) بوصفهم أحد الشعوب الآرية الجوالة غير كاملة الترحل. وكانوا يوسعون نطاق رعيهم شيئًا فشيئًا نحو الجنوب متوغلين في شبه جزيرة البلقان، ويقاتلون شعوب تلك المدنية الإيجية السابقة التي كانت مدينة كنوسوس تاجًا على مفرقها، ويختلطون بها.

وتنبئنا الأشعار الهومبرية بأن هذه القبائل الإغريقية تتكلم لسانًا واحدًا مشتركًا، وأن تقاليدها المشتركة التي تدعمها أشعار الملاحم تشدهم بعضهم إلى بعض في وحدة مفككة الأوصال. وهم يسمون قبائلهم المختلفة باسم مشترك هو الهلينيون. ولعلهم نزحوا على موجات متعاقبة، إذ يميز العلماء في لغة الإغريق القديمة ثلاث لهجات رئيسية: هي الأيوينة Ionic والأيولية Aeolic والدورية Doric. على أن لديهم أيضًا أضربًا كثيرة من اللهجات المتنوعة. ويلوح أن الأيونيين سبقوا من عداهم من الإغريق إلى الميدان، واختلطوا اختلاطًا وثيقًا بالشعوب المتحضرة التي غلبوها على أمرها. وقد يكون سكان مدن من أمثال أثينا وميليتوس من ناحية الجنس أقل نوردية وأقرب إلى سكان البحر المتوسط. والظاهر أن الدوريين هم قوام آخر موجات الهجرة وأقواها مُنة وأقلها تمدينًا. فهاته القبائل الهلينية غزت المدنية الإيجية ودمرتها إلى حد كبير وهي المدنية التي سبقت وصولهم، وبنى الفاتحون على أنقاضها حضارة خاصة بهم. وهفت نفوسهم إلى البحر وعبروه إلى آسيا الصغرى بطريق الجزر. وبعد أن ركبوا السفن مخترقين الدردنيل والبسفور، نشروا مواطنهم ومستقراتهم على امتداد سواحل البحر الأسود الجنوبية. ثم ما لبثوا أن مدوها على امتداد سواحله الشمالية. كذلك انتشروا في جنوبي إيطاليا، التي أطلقوا عليها آخر الأمر ماجنا جرايكيا Mgna Graecia أي بلاد الإغريق العظمى)، ثم انتشروا حول الشاطئ الشمالي للبحر المتوسط وأسسوا مدينة مرسيليا محل مستعمرة فينيقية قديمة. ثم أخذوا ينشئون لأنفسهم في صقلية المستقرات (المستعمرات) منافسين بذلك القرطاجنيين في زمان يرجع إلى ٧٣٥ ق.م.



وجاء في أعقاب الإغريق الخلّص أقاربهم المقدونيون والتراقيون وعلى جناحهم الأيسر عبر الفريجيون البوسفور إلى آسيا الصغرى.

وإنا لنجد هذا التوزيع كله يتم للإغريق قبل بواكير التاريخ المكتوب. حتى إذا حل القرن السابع ق. م. أعني إبان الأسر البابلي لليهود، كانت قد زالت من الوجود كل المعالم الدالة على العالم القديم عالم المدنية السابقة للهلينية في أوربا. ألا ترى إلى تيرينز (Tiryns) وكنوسوس (Cnossus) كيف صارتا مواقع غير ذات بال، وإلى مسيناي (Mycenae) وطروادة (Troy) كيف لا تعيشان إلا في عالم الأساطير؟ فأما المدن العظيمة في هذا العالم الإغريقي الجديد فهي أثينا وإسبرطة (عاصمة لاكيدايمون) وكورنثة وطيبة وساموس وميليتوس. ومن ثم يكون العالم الذي كان أجدادنا يسمونه باسم "بلاد الإغريق القديمة" قد قام على أطلال منسية تنتمي لبلاد إغريق أشد إمعاناً في القدم من تلك، كما أنها تضارعها في تمدينها وتقدمها الفني من كثير من الوجوه. بل إننا اليوم لم نكد نتجاوز المرحلة الأولى في تعرف تلك المدنية السحيقة القدم تعرفاً ما يرجع الفضل فيه إلى جهود المنقبين عن الآثار.

بيد أن بلاد الإغريق القديمة هذه الأحدث من السالفة، التي نحن الآن بصدد الحديث عنها لا تزال تعـ يش عيشًا ناصعًا رائعًا في أخيلة الرجال ونظمهم، لأنها كانت تنطق بلسان آري جميل أشد ما يكون بيانًا، قريـ ب الصلة باللغة الإنجليزية، ولأنها تناولت الأبجدية المستعملة عند شعوب البحر المتوسط وبلغـ ت بهـ ا مرتبـ ة الكمال بإضافة حروف الحركة إليها، وبذا أصبحت القراءة والكتابة عند ذاك فنين يسـ يرين يسـ هل تعلمهمـ ا وممارستهما، وصار في ميسور عدد كبير من الناس إتقانهما ووضع سجل خالد للأجيال المقبلة.



٢- المظاهر المميزة للمدنية الهلينية

إن هذه المدنية الإغريقية التي نراها تدرج في جنوب إيطاليا وبلاد الإغريق وآسيا الصغرى ف ي القـ رن السابع ق. م.، إنما هي مدنية تخالف من أوجه كثيرة هامة كلا من المدنيتين العظيمتين اللتين قفونا نموهمـ ا من قبل، وهما مدنية النيل ومدنية رافدي أرض الجزيرة. نمت هاتان المدنيتان حيث همـ ا خـ لال عصـ ور طويلة. نشأتا على مهل حول حياة مركزها المعبد، دارجتين عن زراعة بدائية. ثم قام الملوك الكهنة والملوك الآلهة يجمعون شمل دول المدن الأولى تلك [١]، في إمبراطوريات. على أن رعاة الإغريق المتبربرين شـ قوا طريقهم جنوبًا مغيرين على عالم كانت مدنيته قد أصبحت قصة طال بها العهد، إذ كانت الملاحة والزراعـ ة وإقامة المدن المسورة والكتابة أمورًا معروفة بها من قبل. فلم ينشئ الإغريق مدنية خاصة بهم، بل حطمـ وا مدنية وأقاموا من أنقاضها وعلى أطلالها مدنية أخرى.

وذلك هو السبب الذي يرجع إليه عدم وجود مرحلة دولة معبد في سجل الإغريق [٢] ولا مرحلة الملـ وك الكهنة، بل وصل الإغريق مباشرة إلى نظام المدينة التي لم تنبت في الشرق إلا حول المعبد، فعزفـ وا مـ ن الشرق فكرة ارتباط المعبد بالمدينة وتسلموها منه لقمة سائغة. ولعل أشد ما أثر فيهم مـ ن مظـ اهر المدينـ ة أسوارها. وإنا لفي ريب من أنهم جنحوا من فورهم إلى حياة المدينة ومقتضيات المواطنية. فكانوا في بـ ادئ أمرهم يعيشون في قرى مفتوحة طلقة خارج أطلال المدن التي حطموها، ولكن النموذج كـ ان مـ اثلاً أمـ ام أعينهم لا يبرح يوحي إليهم ويذكّرهم. وطبيعي أنهم فكروا في المدينة في بادئ الأمر كموضع أمين لهم فـ ي زمان حافل بالمنازعات. كما فكروا في المعبد في غير فحص ولا تمحيص، بوصفه مظهرًا طبيعيًا للمدينـ ة. انتقل إليهم هذا الميراث الذي ورثوه عن حضارة سابقة بينما لا تبرح ذكريات الآجام وتقاليدها قوية ماثلة بقوة في أذهانهم. واستولى على زمام البلاد النظام الاجتماعي القائم على الأبطال والذي تمجد الإلياذة ذكراه. ولـ م يلبث أن تكيف ليوفق بين نفسه وبين ما يحوطه من ظروف جديدة. وبمرور الأيام أصبح الإغريق أكثر تدينًا وأشد اعتقادًا في الخرافات على حين استمرت عقائد المغلوبين حية وإن توارت عن الأنظار.

ولقد ذكرنا آنفًا أن التركيب الاجتماعي للآريين البدائيين كان نظامًا ذا طبقتين مكونًا من النبلاء والعامـ ة، ولم تكن الطبقتان منفصلتين انفصالاً شديدًا إحداهما عن الأخرى. كان يقودهما في الحرب ملك لـ م يكـ ن إلا كبير إحدى العائلات النبيلة وهو الزعيم المقدم بين نظرائه Primus inter pares. بانتصار الإغريق علـ ى السكان الأصليين وابتنائهم البلدان أضيف إلى هذا التنظيم الاجتماعي البسيط المزدوج الطبقات، طبقة دنيا من عمال المزارع وحذاق الصناع وغير حذاقهم، وهي في جل أمرها من العبيد. على أن المجتمعات الإغريقيـ ة لم تكن بأجمعها من هذا الطراز القائم على الفتح. فكان بعضها مدنًا من "اللاجئين" تضم وتمثـ ل مجتمعـ ات محطمة خاضعة، ولم يكن بهذه المدن الأخيرة أية واحدة من الطبقات الدنيا المكونة من السكان الأصليين.

---

(١) دولة المدينة City State ويسميها بعض المؤرخين المدينة الحكومية. (المترجم).

(٢) دولة المعبد Temple state: دولة مركزها أحد المعابد ويرأسها الكهنة. (المترجم).

وفي كثير من الحالات السابقة كان من تبقى من السكان الأقدمين يكونون طبقة محكومة تتمثل في رقيق الدولة بوجه عام كما هو الحال في طائفة الهيلوطيين في إسبرطة، وأصبح النبلاء والعامة أصحاب الأراضي وأعيان الزراع. وكانوا هم المديرين لحركة بناء السفن والمشتغلين بالتجارة. على أن بعض المواطنين الأحرار الأشد فقرًا احترفوا الفنون والصناعات الآلية، وكانوا – كما سبق أن لاحظنا – لا يأنفون حتى الاشتغال بالتجديف في إحدى السفن مقابل أجر معلوم. أما أولئك الكهنة الذين كانوا في العالم الإغريقي فهم إما سدنة للمقاصير المقدسة والمعابد أو موظفون يقومون بتقديم القرابين. واعتبرهم أرسطو في كتابه "السياسة – Politics" قسمًا فرعيًا محضًا في طبقة الموظفين. وكان المواطن يشتغل في شبابه محاربًا وفي كهولته حاكمًا وفي شيخوخته كاهنًا. وكانت طبقة الكهان بالمقارنة إلى الطبقة المعادلة لها في مصر وبابل صغيرة لا يعتد بها.

أما آلهة الإغريق الخلّص الأبطال فكانوا كما أسلفنا كائنات بشرية ممجدة، كما كانوا يعاملون في غير كثير خوف أو رهبة. ولكن كان يستتر وراء آلهة الغزاة الأحرار آلهة أخرى للشعوب المقهورة تجد من يتبعونها خلسة بين الأرقاء والنساء. ولم يكن منتظرًا من الآلهة الآرية الأصلية أن تأتي بالمعجزات، أو أن تتصرف في حياة الناس، بيد أن بلاد الإغريق كانت شديدة التعلق باستشارة مهابط الوحي (Oracles) أو العرافين، شأنهم في ذلك شأن معظم العالم الشرقي في السنوات الألف السابقة للميلاد. وكانت دلفي (Delphi) شهيرة بنبوءاتها على وجه خاص. وفي ذلك يقول جلبرت مري: "عند ما يعجز أسن شيوخ القبيلة عن إخبارك وإرشادك بما يجدر بك أن تعمله، فإنك تذهب إلى الأموات الميامين، إن مهابط النبوءات جميعها عند قبور الأبطال، فهم يطلعونك على المقدور (Themis) [1] وما يجدر بك أن تعمله، ويكشفون لك عن إرادة الله على حد قول رجال الدين اليوم".

ولم يكن كهنة هذه المعابد وكاهناتها يكونون طبقة واحدة، كما أنهم كطبقة لم يكونوا يمارسون أية سلطة في البلاد إذ الواقع أن قوام الدولة الإغريقية كله هو النبلاء والعامة الأحرار، وهما طبقتان اندمجتا في بعض الحالات في هيئة واحدة مشتركة من المواطنين. وفي كثير من الحالات وبخاصة في دول المدن الكبرى، كان عدد العبيد الأرقاء وعدد الغرباء غير المتمتعين بالحقوق يفوق عدد المواطنين الأحرار إلى حد كبير. على أن الدولة في نظرهم لم تكن لتقوم إلا عند تفضل منهم وتكرم، إذ هي موجودة من الناحية القانونية من أجل الهيئة المختارة، هيئة المواطنين الأحرار وحدهم، وهي حرة في أن تتسامح أو لا تتسامح مع الدخيل والرقيق. ولكن لم يكن لهؤلاء أي صوت قانوني في نوع المعاملة التي يلقون، الأمر الذي يجعل معاملتهم لا تفترق عما لو كانوا يعيشون في ظل أي نظام استبدادي.

وغني عن البيان أن هذا تكوين اجتماعي يختلف اختلافًا بعيدًا عنه في النظم الملكية الشرقية. والأهمية الكبرى التي كان ينفرد بها المواطن الإغريقي الحر تذكرنا بعض الشيء بالأهمية الماحقة الساحقة التي كان يستمتع بها "أبناء إسرائيل" في الدولة اليهودية الأخيرة. بيد أن الجانب الإغريقي خلو من كل معادل للأنبياء والكهان، ومن فكرة وجود إله واحد مثل "يهوه" له السيطرة والسلطان على كل شيء.

---

(1) Themis كلمة يونانية معناها القانون الوضعي أو العرف أو المقدور. (المترجم).

وهناك وجه آخر للتباين بين الدول الإغريقية وبين أي من المجتمعات الإنسانية التي وجهنا إليها اهتمامنا حتى الآن، هو انقسامها المستمر الذي استعصى علاجه. ومدنيات مصر وسومر والصين ومعها دون ريب مدنية شمال الهند أيضًا ابتدأت كلها في شكل عدد من دول المدن المستقلة، كل واحدة منها تتكون من مدينة يحيط بها بضعة أميال من القرى الزراعية التابعة ومن الأراضي والمزارع. ولكنها خرجت من هذا الطور عن سبيل عملية تماسك التأمت بها أجزاؤها فأصبحت ممالك وإمبراطوريات. ولكن الإغريق لم يتحدوا قط حتى انصرم تاريخهم المستقل بأكمله؛ ويرجع هذا بوجه عام إلى الظروف الجغرافية التي كانوا يعيشون فيها. فإن بلاد الإغريق قطر مجزأ إلى عدد كبير من الوديان، تقطعت أوصاله بفعل كتل جبلية وخلجان من البحر جعلت الاتصال فيما بينها أمرًا عسير المنال. بل لقد بلغ من عسر الاتصال أنه قل من المدن من استطاعت أن تحتفظ بكثير من المدن الأخرى تحت سيطرتها أي مدة من الزمان. وفضلاً عن ذلك فإن الكثير من المدن الإغريقية كانت تقع في جزائر، وكانت متناثرة على امتداد سواحل شاسعة. وظلت أكبر دول المدن الإغريقية حتى النهاية أصغر من كثير من المقاطعات الإنجليزية. وكانت مساحة بعضها لا تتجاوز بضعة أميال مربعة. وأثينا وهي واحدة من أكبر المدن الإغريقية كان فيها من السكان في أوج عزها عدد ربما بلغ ثلث المليون. وقل من المدن الإغريقية الأخرى من تخطى سكانه الخمسين ألفًا. وكان نصف هذا العدد أو ما يتجاوز النصف من الرقيق والغرباء، وكان ثلثا هيئة الأحرار من النساء والأطفال.

٣- الملكية والأرستقراطية والديمقراطية في بلاد الإغريق

كانت حكومة دول المدن هذه تختلف في طبيعتها اختلافاً بيِّنًا. فإن الإغريق عندما استقروا بعد فتوحاتهم احتفظوا إلى حين بحكم ملوكهم، ولكن هذه الممالك ما لبثت أن عادت رويدًا رويدًا إلى حكم الطبقة الأرستقراطية. وفي إسبرطة أي (لاكيدايمون) كان الملوك لا يزالون متمتعين بمنزلة رفيعة في القرن السادس ق. م. وكان لأهل لاكيدايمون نظام غريب في بابه ينطوي على ملكية ثنائية، إذ يولون عليهم ملكين من أسرتين ملكيتين مختلفتين يحكمان معًا.

على أن معظم دول المدن الإغريقية أصبحت جمهوريات أرستقراطية قبل حلول القرن السادس بزمان بعيد. ومهما يكن من شيء، فإن غالب العائلات التي تتولى الحكم بالوراثة يتجلى فيها على الدوام نزوع إلى التواني وعدم الكفاية ومصيرها هو التدهور والزوال طال بها الزمن أو قصر. ولما أن خرج الإغريق إلى البحر وأسسوا المستقرات وانتشرت تجارتهم، برزت بينهم عائلات غنية جديدة، فزحزحت العائلات القديمة عن مكانتها وتسلمت مقاليد الأمور شخصيات جديدة. وأصبح هؤلاء الأغنياء الحديثو الثراء أعضاء في طبقة حاكمة كبيرة أقامت ضربًا من الحكومة يعرف بالأوليجركية – تمييزا له من الأرستقراطية – وإن كان المعنى الدقيق للفظ الأوليجركية (وهو حكومة الأقلية) يجب أن يشمل الأرستقراطية الوراثية كحالة خاصة.

وفي كثير من المدن كان أشخاص من ذوي النشاط الفذ ينتهزون فرصة حدوث شيء من النزاع الاجتماعي، أو وقوع شيء من المظالم على بعض الطبقات ويقبضون على زمام سلطة ذات طابع استثنائي إلى حد ما بالفعل في الدولة، وهذا المزج بين الشخصية والفرصة قد حدث بالفعل في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، حيث يسمى الرجال الذين يمارسون أنواعًا مختلفة من السلطات غير الرسمية باسم "الرؤساء Bosses " وكان أمثال هؤلاء يسمون في بلاد الإغريق باسم "الطغاة Tyrants" على أن الطاغية يوشك أن يكون أكثر من الرئيس نفوذا وسلطانًا، فقد كان يعترف به ملكًا، كما أنه كان يطالب بسلطات الملك. ثم إن الرئيس في العصر الحديث يستتر وراء بعض الأوضاع القانونية التي "استحوذ عليها"، ويستخدمها في أغراضه الخاصة. وكان الناس يفرقون بين الطغاة والملوك الذين كانوا يدعون لأنفسهم بعض الحقوق، أعني ضربًا من الأسبقية العائلية في أمور من أمثال تولي الحكم. وربما ناصر هؤلاء الطغاة الطبقات الفقيرة المظلومة. مثال ذلك أن بيزاستراتوس الذي كان طاغية من طغاة أثينا وتولى الحكم مدة تتخللها فترتان نفي أثناءهما ما بين ٥٦٠، ٥٢٧ ق. م.، كان يؤيده الأثينيون من سكان التلال الذين أضناهم الفقر، وربما حدث في بعض الأحيان كما حصل في صقلية الإغريقية أن وقف الطغاة في صف الأغنياء ضد الفقراء. وعندما أخذ الفرس فيما بعد في إخضاع المدن الإغريقية بآسيا الصغرى أقاموا عليها طغاة يناصرونهم.

وكان أرسطو المعلم الفيلسوف العظيم– وقد ولد أيام الملكية الوراثية المقدونية، وقضى بضع سنين مربيًا لابن الملك، – يفرق في كتابه "السياسة" بين الملوك الذين يحكمون بحق طبيعي مسلم به، كملك مقدونيا الذي كان يعمل في خدمته، وبين الطغاة الذين يحكمون بغير رضاء المحكومين. والواقع أن من العسير علينا أن نتصور وجود طاغية يحكم بغير رضاء الكثير من رعاياه ودون مشاركة العدد الجوهري منهم المشاركة الفعالة، وإن إخلاص "ملوكهم الحقيقيين" ونكرانهم الذات، قد عرفا بأنهما يثيران الامتعاض والتشكك. وقد استطاع أرسطو أيضًا أن يقول إنه بينما يحكم الملك من أجل خير الدولة، كان الطاغية يحكم لمصلحته الخاصة. وكان أرسطو في هذا الموضوع، كما كان في قدرته على اعتبار الرق أمرًا طبيعيًا واعتبار النساء غير جديرات بالحرية والحقوق السياسية – متسقاً مع سير الحوادث حوله.

وكان الشكل الثالث للحكومة التي انتشرت في بلاد الإغريق انتشارًا متزايدًا في القرون السادس والخامس والرابع ق. م. معروفًا باسم الديمقراطية. ولما كان العالم المعاصر في هذه الأيام لا يفتأ يتكلم عن الديمقراطية، وإذ إن الفكرة الحديثة عن الديمقراطية إنما هي شيء يختلف اختلافًا بينًا عن ديموقراطية دول المدن الإغريقية. فمن الخير إذن أن نعمد إلى أشد الوضوح في معنى الديمقراطية في بلاد الإغريق، فقد كانت الديموقراطية عند ذاك حكومة تديرها العامة، وهم الديموس (Demos). وكانت حكومة تديرها هيئة المواطنين جمعاء وتديرها الكثرة تمييزًا لها عن القلة. ولكن على القارئ العصري أن يلحظ كلمة (مواطن) هذه فقد كان الرقيق مستبعدًا منها، وكان الرجل المعتوق "المحرر" مستبعدًا منها، وكذلك الغريب، وحتى الإغريقي المولود في المدينة والذي نزح أبوه إليها من مسافة ثمانية أو عشرة أميال عن المدينة التي تقع وراء أحد الرءوس الممتدة في البحر، كان يستبعد من عداد المواطنين. وكانت الديمقراطيات الأولى (وإن لم تكن كلها) تشترط في المواطن [1] مؤهلاً من الملكية العقارية، وكان قوام الملكية العقارية في تلك الأيام هو الأرض. على أنهم ما لبثوا فيما بعد أن تسامحوا في هذا الشرط. بيد أن القارئ المعاصر سوف يدرك أنه يلمس هاهنا شيئًا مختلفًا جدًا عن الديمقراطية الحديثة. وفي نهاية القرن الخامس ق. م. كان هذا المؤهل العقاري قد ألغي في أثينا مثلاً. على أن بريكليس وهو السياسي الأثيني العظيم، الذي سوف نتكلم فيما بعد عنه في شيء من الإسهاب – سن قانوناً (٤٥١ ق. م.) يقصر حق المواطنية على أولئك الذين يستطيعون أن يثبتوا لأنفسهم الانحدار من أبوين أثينيين خالصين. ومن ثم يكون حال هؤلاء المواطنين الأحرار في الديمقراطيات الإغريقية كحالهم في الأوليجركيات تمامًا، إذ يؤلفون "هيئة متماسكة" تتولى أحياناً – كما في حالة أثينا في أيام عظمتها – حكم عدد كبير من السكان الأرقاء والغرباء.



---

[1] المواطن Citizen هو كل حر يستمتع بالمواطنية أي الحقوق والواجبات المدنية كاملة. وإن كان الأولى أن يسمى بالممادن نظرًا لطبيعة أوطان الإغريق المكونة من مدن. (المترجم).

فلو أن سياسيًا عصريًا عامر الذهن بفكرة الديمقراطية على وجهها الحديث المختلف تمامًا والقائلة بأن الديمقراطية في أكمل أوضاعها معناها أن لكل رجل بالغ وامرأة بالغة صوتاً في الحكومة، لو أنه رد فجأة إلى الديمقراطية الإغريقية المتطرفة لعدها ضربًا من الأوليجركية. والفرق الحقيقي الوحيد بين الأوليجركية الإغريقية والديمقراطية الإغريقية هو أنه في الأولى لم يكن للمواطنين الأحرار الأفقرين والأقل أهمية صوت في الحكومة، بينما كان لكل مواطن حر في الثانية صوت. ويبين أرسطو في كتابه "السياسة" بغاية الجلاء النتيجة العملية لهذا الفارق. إذ كانت الضرائب خفيفة العبء على الأغنياء في الأوليجركيات. بينما كانت الديمقراطيات من الناحية الأخرى تفرض الضرائب على الأغنياء، ويدفع في العادة للمواطن الحر المعدم ما يقيم أوده من غذاء وكساء وغير ذلك من نفقات خاصة. وفي أثينا كان للمواطنين الأحرار جُعل يدفع لهم، حتى على حضور مجلس العامة. على أن العامة والدهماء ممن هم خارج نطاق الطائفة السعيدة المحدودة من المواطنين الأحرار، كانوا يكدحون ويصدعون بما يؤمرون. فإن رغب أحدهم في حماية القانون، كان عليه أن يبحث عن مواطن حر يتولى الدفاع عنه. إذ لم يكن لغير المواطنين الأحرار أي كيان أو حق في الالتجاء إلى المحاكم. أما الفكرة العصرية القائلة بأن أي فرد في الدولة يجب أن يكون مواطناً حرًا فلو أنها عرضت على الديمقراطيين ذوي الامتيازات في أثينا لأزعجتهم كل الإزعاج.

وقد نشأت عن جعل الدولة حكرًا موقوفاً على المواطنين لطبقة الأحرار نتيجة بينة واحدة، هي أن وطنية هؤلاء القوم الممتازين اتخذت شكلاً حادًا ضيقًا. فكانوا يكونون الأحلاف مع "دول مدن" أخرى، ولكنهم لم يندمجوا أبدًا بعضهم مع بعض، إذ كانوا في ذلك قضاء على كل امتياز يستمتعون به كما أن الحدود الجغرافية الضيقة لتلك الدول الإغريقية الصغيرة زادت شعورهم حدة وإرهافاً. وكان مما يشد من أزر حب الرجل لوطنه حبه لبلدته وهي مسقط رأسه، ولدينه وبيته، إذ كانت هذه جميعًا أمرًا واحدًا. وبدهي أن الأرقاء لم يكونوا يشاطرونهم تلك المشاعر. وفي الولايات الأوليجركية كانت الطبقة المهيضة المحرومة في الكثير الغالب تتغاضى عن كراهيتها للأجانب لشدة كراهيتها للطبقة التي تسومها العذاب في أرض الوطن. ولكن الوطنية الإغريقية في صميمها كانت عاطفة شخصية ذات حدة خطرة تبعث الإلهام، فهي كالحب المرفوض، سهلة التحول إلى شيء أقرب ما يكون إلى الكراهية. والمنفى الإغريقي كان على شاكلة المهاجر الفرنسي أو الروسي في استعداده لمعاملة بلاده المحبوبة معاملة لا تخلو من الخشونة لكي يقيها شر شياطين الإنس الذين تملكوها وأخرجوه هو من ربوعها.

وقد نظمت أثينا في القرن الخامس ق. م. علاقاتها بعدد من دول المدن الإغريقية الأخرى فأنشأت بذلك نظامًا، كثيرًا ما يتحدث عنه المؤرخون باسم الإمبراطورية الأثينية. على أن دول المدن الأخرى احتفظت جميعًا بحكوماتها الخاصة. وهناك "حقيقة جديدة" أضافتها هذه الإمبراطورية الأثينية، وهي القضاء المبرم على القرصنة، وثمة حقيقة أخرى وهي إقامة نظام هو ضرب من القانون الدولي. نعم كان القانون في واقع الأمر هو القانون الأثيني، ولكن سهل بفضله إقامة القضايا ونشر لواء العدالة بين مواطنين ينتمون إلى دول الحلف المختلفة. وبدهي أن هذا أمر لم يكن ميسورًا من قبل.

كانت الإمبراطورية الأثينية في حقيقة الأمر وليدة حلف دفاع مشترك ضد فارس، وكانت قاعدته في الأصل جزيرة ديلوس. وقد ساهم الحلفاء في رصيد مالي مشترك أو دعوة خزانة في تلك الجزيرة، ثم نقل رصيد ديلوس إلى أثينا لأنه كان هناك عرضة للغارات الفارسية المحتملة الوقوع. وسرعان ما تقدمت مدينة في أثر الأخرى تعرض دفعات من المال عوضًا عن الخدمة العسكرية مما أفضى إلى أن أصبحت أثينا آخر الأمر تقوم بعبء العمل كله تقريبًا، وتتلقى المال منهن جميعًا تقريبًا، ويعينها في النهوض بذلك العبء جزيرة أو اثنتان من كبريات الجزر. وبهذه الطريقة تحول "الحلف" بالتدريج إلى إمبراطورية. على أن مواطني الدول المتحالفة – اللهم إلا حيث كانت هناك معاهدات خاصة تنظم تبادل التزاوج وما شابهه – لبثوا من الناحية العملية أجانب بعضهم عن البعض. وقد وقع على كواهل أفقر المواطنين بوجه خاص في أثينا معظم أعباء هذه الإمبراطورية بما كانوا يبذلون من جهود جبارة وخدمات شخصية متواصلة. وكان كل مواطن عرضة للخدمة العسكرية داخل موطنه أو خارجه بين سن الثامنة عشرة والستين. وكان يطلب آونة للذود عن موطنه في شئون أثينية محضة، ويتصدى آنًا آخر للذب عن مدن الإمبراطورية التي افتدى مواطنوها أنفسهم بالمال. ولم يكن هناك على الراجح بين أفراد مجلس الأحرار الأثيني رجل واحد تزيد سنه على الخامسة والعشرين لم يتمرس بالحرب في حملات عديدة في نواح مختلفة من البحر المتوسط أو البحر الأسود، ولم يكن يتوقع أن يعود إلى الخدمة العسكرية ثانية. وخصوم الاستعمار العصري يأخذون عليه أنه استغلال الأغنياء للعالم، على أن الاستعمار الأثيني كان استغلال العالم على يد المواطنين من فقراء الأثينيين.

وثم فارق آخر عن الأحوال والظروف السائدة في العصر الحديث، يرجع إلى حجم دول المدن الإغريقية الصغير، وهو أنه كان لكل مواطن في النظام الديمقراطي الحق في حضور مجلس الأحرار والتكلم والتصويت فيه. وكان فحوى هذا أن يلتئم لحل المدن جمع لا يضم سوى بضع مئات من الناس. فلم يكن عددهم في أكبرها يزيد على بضع آلاف من المواطنين. وليس شيء من هذا القبيل بممكن في ديمقراطية عصرية فيها من الأصوات ما قد يصل عدده إلى ملايين عديدة. ويلاحظ أن صوت المواطن العصري في الشئون العامة مقصور على حقه في التصويت لواحد أو لآخر من مرشحي الأحزاب الذين يقدمون إليه. ومفروض عند ذاك "موافقة" الناخب أو الناخبة على الحكومة التي يتمخض عنها ذلك الانتخاب. وهذا أرسطو الذي لو أنه عاصرنا لأثلجت فؤاده الأساليب الانتخابية التي تستخدمها ديمقراطياتنا العصرية، يوضح بطريقة جد بارعة، كيف أن طبقة المواطنين من الفلاحين الذين نأت مساكنهم يمكن في الديمقراطية القديمة أن يحرموا حرمانًا فعليًا من حقوقهم المدنية بسبب الإكثار من دعوة مجلس الأحرار دعوة متداركة متكررة لا يستطيعون معها أن يحضروا الجلسات بانتظام. وفي الديمقراطيات الإغريقية المتأخرة (في القرن الخامس) كان تعيين الموظفين العموميين، فيما عدا القواد الذين يجب أن تتوافر فيهم دراية خاصة جدًا، يتم بالقرعة ورمي القداح، إذ كان المفروض أن في هذه الوسيلة ضمانًا يفي الهيئة العامة للمواطنين أرباب الامتيازات من دوام تسلط الأغنياء وذوي النفوذ والمبرزين من أهل الكفاية.

كان لدى بعض الديمقراطيات (مثل أثينا وميليتوس) نظام يسمى النفي السياسي (Ostracism) وهي كلمة مشتقة من أوستراكون (Ostrakon) ومعناها الشقفة إذ كان الناخب يستطيع إبان المنازعات والأزمات أن يكتب اسم أحد المواطنين على قطعة من الشقافة أو المحار فيصدر طبقًا لذلك قرار إما بإبعاد ذلك المواطن لمدة عشر سنوات أو عدم إبعاده. وقد يبدو هذا للقارئ العصري نظامًا قائمًا على الحسد، على أن الحسد لم يكن صفته الجوهرية. إذ الواقع فيما يقول جلبرت مري إنه كان وسيلة للوصول إلى قرار حاسم في مسألة انقسام الشعور السياسي بصددها انقسامًا ينذر بوقوع أزمة سياسية لا سبيل إلى حلها. وكان في الديمقراطيات الإغريقية أحزاب وزعماء أحزاب، ولكن لم يكن لديهم حكومة منتظمة بيدها مقاليد الحكم. ولم تكن لديهم معارضة منتظمة، فلم يكن هنالك إذن أية وسيلة لتنفيذ سياسة ما، وإن كانت هي السياسة التي تروق في نظر الشعب – إذا انبرى زعيم قوي أو جماعة قوية لمناهضتها. على أن النفي السياسي كان يلزم أقل الزعماء الكبار منزلة في قلوب الشعب وأقلهم استمتاعًا بثقته أن ينسحب من الميدان إلى حين دون أن يلحق أي ضرر بشرفه أو ممتلكاته.

وقد خلد نظام النفي السياسي هذا اسم عضو خامل من أعضاء الديمقراطية الأثينية يكاد يكون أميًا؛ ذلك أن شخصًا اسمه أريستيديس قد ذاع صيته في المحاكم لاستقامته ولمناصرته العدل والقانون – حدث ذات مرة أن نشب بينه وبين ثيموستوكليس نزاع بشأن موضوع يتعلق بالسياسة البحرية إذ كان أريستيديس من أنصار تقوية الجيش على حين كان ثيموستوكليس من أنصار النهوض بالبحرية، فكان الجو منذرًا بخطب فادح، وكان أن لجأت المدينة إلى النفي السياسي لحسم هذا النزاع بينهما. ويقص علينا بلوتارك أنه بينما كان أريستيديس يتجول في شوارع المدينة ساعة التصويت، استوقفه مواطن غريب من الأصقاع الزراعية المحيطة بالمدينة لا يعرف فن الكتابة وطلب إليه أن يكتب اسمه هو نفسه على قطعة من الشقافة قدمها إليه.

فسأله أريستيديس قائلاً: "ولماذا؟ فهل حدث قط أن أساء إليك أريستيديس؟".

فقال المواطن: "كلا، كلا، فإن عيني لم تقعا عليه أبدًا ولكنني مع الأسف برمت جدًا بما وصل إلى سمعي من أنه يدعى أريستيديس العادل".

وعند ذلك كما يقول بلوتارك – كتب أريستيديس ما أشار به الرجل دون أن يطيل عليه الكلام.

ومتى فهم المرء المغزى الحقيقي لهذه الدساتير الإغريقية وفهم بوجه خاص مسألة حصر جميع السلطات سواء أكان ذلك في الديمقراطيات أم الأوليجركيات في يد طبقة ذات امتياز محلي، أدرك كيف كان من المحال قيام أي اتحاد فعال بين مئات المدن الإغريقية المتناثرة حول إقليم البحر المتوسط، أو حتى وجود أي تعاون منتج بينها يرمي إلى غاية مشتركة. فإن كل مدينة كانت في قبضة فئة قليلة أو بضع مئات من الرجال الذين كان أهم ما يعنون به ويحرصون على تحقيقه في حياتهم هو أن تظل مدينتهم منفصلة عن المدن الأخرى. ولم تكن في العالم قوة تستطيع أن توحد الإغريق غير الغزو الخارجي. ولم تتحقق لهم أي وحدة سياسية حتى غزيت بلاد الإغريق، فلما أن غزيت بلادهم آخر الأمر، كان غزوها كاملاً بحيث لم تجعل لوحدتهم أدنى قيمة حتى لهم أنفسهم، إذ اجتمعوا على وحدة الاستسلام والخضوع.

ومع ذلك فقد كان هناك على الدوام مقومات لوحدة بين الإغريق كافة في بعض التقاليد السائدة بينهم، دعامتها لغة مشتركة وكتابة مشتركة وتراث مشترك من ملاحم الأبطال، هذا إلى اختلاطهم المتواصل الذي يسره موقع دولهم من البحر، عدا روابط دينية بأعيانها كانت تدعو إلى توحيد البلاد. ولو تأملت بعض المقاصير المقدسة – كمقصورة الإله أبولو بجزيرة ديلوس ومعبد دلفي مثلاً – لرأيت أن ما كانت تلقاه من تأييد وعون لم يقتصر أمره على دول بمفردها بل تجاوز ذلك إلى اتحادات من الدول "أو أمفكتيونات (Amphictyonies) (والأمفكتيون هو حلف الجيران)، وهي اتحادات أمست واسعة النطاق جدًا في حالة "حلف دلفي" وما ماثله من أحلاف. وكان الحلف يحمي المقصورة المقدسة ويحافظ على سلامة من يؤمها من حجاج ويصون الطرق المؤدية إليها ويحفظ السلام إبان الأعياد الخاصة، ويسن قواعد معينة للحد من لجوء أعضائه إلى الحرب. كما أن اتحاد ديلوس كان له بوجه خاص فضل القضاء على القرصنة. وثمة رابطة أخرى للاتحاد الهليني أكثر أهمية مما سلف وهي الألعاب الأولمبية، التي كانت تعقد في أولمبيا كل أربع سنوات. وكان سباق الجري والملاكمة والمصارعة وقذف الرمح وقذف القرص والقفز وسباق المركبات والخيول أهم الألعاب. وكانوا يحتفظون بسجل للفائزين وللزوار الممتازين، وظلت هذه الألعاب منذ ٧٧٦ ق. م. تقام بانتظام مدة تربو على ألف سنة. وكان أثرها كبيرًا في الاحتفاظ بذلك الإحساس بوجود حياة إغريقية مشتركة ذات طابع هليني عام، يسمو على السياسات الضيقة التي تجري على سننها دول المدن. وتعتبر ٧٧٦ ق. م. وهي أول سنة عقدت فيها الألعاب الأولمبية نقطة بداية قيمة في حساب التاريخ الإغريقي.

على أن أمثال تلك الروابط القائمة على العواطف وروح التآلف كانت قليلة الجدوى إزاء "الروح الانفصالية" الحادة التي ترجع إلى النظم السياسية الإغريقية. وفي طوق طالب العلم أن يحس لدى مطالعته "تاريخ هيرودوت" بمبلغ الحدة والعنف والإصرار واللجاجة في المنازعات التي ألقت بالعالم الإغريقي في غمرة حرب مزمنة. وفي الأيام الخوالي (أي حتى القرن السادس ق. م. على وجه التقريب) كانت تسود بلاد الإغريق عائلات كبيرة نوعًا ما احتفظت بشيء من نظام الدوارات الآري القديم بكل ما يلازمه من شعور قوي واعتداد بالعشيرة. ومن قدرة على مداومة الاحتفاظ بالمنازعات وإن طال بها الأمد. ويدور تاريخ أثينا مدى سنين عديدة حول منازعات حدثت بين عائلتين عظيمتين هما عائلتا الألكمايونيديين (Alcmaeonidae) والبيزستراديين (Peisistratidae) والأخيرة تعادل الأولى في الأرستقراطية بيد أنها أسست صرح قوتها على مساندة الطبقة الفقيرة من الشعب وعلى استغلالها لما يحل بهم من الحيف والمظالم. وفيما عقب ذلك من الزمان أي في القرنين السادس والخامس أدى تحديد النسل ونقص أفراد العائلات إلى اثنين أو ثلاثة (وهي عملية لحظها أرسطو وإن لم يدرك لها سببًا) – إلى اختفاء العشائر الأرستقراطية القديمة. وكانت الحروب التي وقعت بعد ذلك راجعة إلى المنافسات التجارية وإلى بعض المظالم التي سببها وأثارها بضع نفر من المغامرين أكثر منها إلى الأحقاد العائلية وروح الأخذ بالثأر.

ومن اليسير علينا الآن أن نفهم في ضوء هذه الروح الانفصالية الحادة لدى الإغريق، كيف سـ ـهل وقـ ـوع الأيونيين بآسيا وبالجزيرة تحت سلطة مملكة ليديا أول الأمر ثم سلطان الفرس عنـ ـدما قـ ـام قـ ـورش بخلـ ـع كرويسوس ملك ليديا عن عرشه. ثم هب الأيونيون ثائرين وكأنهم لم يثوروا إلا لكي يعود إليهم الفرس ثانيـ ـة بالبطش والإخضاع ثم جاء دور بلاد الإغريق الأوروبية فكان مما يدعو إلى الدهشة، بـ ـل ممـ ـا دهـ ـش لـ ـه الإغريق أنفسهم أن وجدوا أن بلاد الإغريق نفسها لم تقع تحت سلطان الفرس، أولئك الآريـ ـين المتبربـ ـرين قاهري المدنيات القديمة وسادتها في آسيا الغربية. على أننا قبل أن نتحدث عن هذا الكفاح نرى لزامًا علينـ ـا أن نلقى نظرة إلى هؤلاء الآسيويين الذين صمد الإغريق أمامهم ووقفوا لهم بالمرصاد وعلى الأخص للميديين والفرس، الذين ما كادت تحل بهم سنة ٥٣٨ ق. م. حتى كانوا قد استولوا بالفعل على حضارتي آشور وبابل القديمتين وكانوا على وشك أن يقهروا مصر.

٤ – مملكة ليديا

سنحت لنا فيما سلف الفرصة لذكر مملكة ليديا وربما كان من المستحسن أن ندلي إليك ها هنا بنبذة موجزة عن الليديين قبل أن نواصل الحديث في قصتنا. وربما كان السكان الأصليون في معظم أجزاء آسيا الصغرى يمتون بالقرابة إلى السكان الأصليين ببلاد الإغريق وكريت؛ فإن كان الحال كذلك فلقد كانوا من جنس البحر المتوسط ولعلهم فرع آخر من أولئك القوم الضاربين إلى السمرة الذين هم أعم انتشارًا وأقدم عهدًا وأقرب إلى الجنس الأساسي، والذين نشأ منهم جنس البحر المتوسط في الغرب، والجنس الدرافيدي في الشرق. وهنالك بقايا من نفس نوع الفن الذي امتازت به كنوسوس وميكيناي وجدت متناثرة في نواحي آسيا الصغرى. ولكن كما أن الإغريق النورديين انسابوا جنوبًا إلى بلاد الإغريق فغزوها واختلطوا بالسكان الأصليين، فإن قبائل أخرى نوردية تمتّ إليها بصلة القربى فعلت ذلك سواء بسواء فتدفقت عبر البوسفور إلى آسيا الصغرى.

وقد تغلبت هذه الشعوب الآرية على بعض المناطق تمامًا وصارت تكون الشطر الأكبر من السكان مع احتفاظها بلغتها الآرية، ذلك شأن الفريجيين وهم شعب لغته تكاد تكون شديدة الصلة بلغة الإغريق، شدة صلة اللغة المقدونية بالإغريقية. على أن بعض المناطق الأخرى لم يعمها الآريون إلى مثل هذا الحد: ففي ليديا حافظ الجنس الأصلي على نفسه وعلى لغته، فلم يهن ولم يخضع. وكان الليديون شعبًا غير آري يتكلمون لغة غير آرية، لا يعرف منها في الوقت الحاضر سوى بضع كلمات قليلة. وكانت ساردیس (Sardis) عاصمتهم.

وكانت ديانتهم غير آرية كذلك. فإنهم كانوا يعبدون إلهة أنثى هي الأم العظيمة. وكذلك الفرجيون، فإنهم وإن احتفظوا بلغتهم شبه الإغريقية، انتقلت إليهم عدوى الديانة الغامضة ذات الأسرار الخفية. والواقع أن قدرًا كبيرًا من الديانات ذات الأسرار الخفية والطقوس السرية التي عمت أثينا في تاريخ تال، كانت فريجية (إن لم تكن تراقية) في أصلها.

وقد احتفظ الليديون بادئ الأمر بساحل آسيا الصغرى الغربي، ولكنهم طردوا منه نتيجة لرسوخ قدم الإغريق الأيونيين الذين جاءوا بطريق البحر وأسسوا المدن. ومع ذلك فإن هذه المدن الأيونية الإغريقية أخضعها فيما بعد الملوك الليديون.

وتاريخ بلاد ليديا هذه لا يزال غامضًا غير معروف معرفة واضحة، ولو أنه كان معروفًا بالفعل ما بلغت أهميته قدرًا يجعله جديرًا بأن يذكر في هذه المعالم التاريخية. على أن القرن الثامن ق. م. يظهر لنا اسم ملك جدير بالذكر يدعى جيجيس. فإن البلاد تعرضت في أيامه لغزو آري آخر؛ ذلك أن قبائل مترحلة تسمى الكمريين جاءت تتدفق عبر آسيا الصغرى، فردهم جيجيس وابنه وحفيده بغاية الجهد والمشقة. واستولى هؤلاء البرابرة الهمج على مدينة ساردیس وأحرقوها مرتين. ويذكر التاريخ أن جيجيس دفع الجزية لساردانابالوس (Sardanapalus). وهذا أمر يربط ما بينه وبين فكراتنا العامة عن تاريخ مملكة آشور وبنى إسرائيل ومصر. ثم ثار جيجيس فيما بعد ضد مملكة آشور، وأرسل الجنود لمساعدة أبسماتيك الأول في تحرير مصر من عبوديتها القصيرة الأجل للآشوريين.

وإلى ألياتيس (Alyattes) حفيد جيجيس يرجع الفضل في جعل ليديا قوة يعتدّ بها. وقد ظل في الملك سبع سنين، وهو الذي أخضع غالبية المدن الأيونية في آسيا الصغرى لحكمه. وأصبحت الـ بلاد مركـ زًا لتجـ ـارة عظيمة بين آسيا وأوربا وكانت على الدوام بلادًا منتجة غنية بالذهب. واشتهر الملك الليدي بأنه أغنى ملـ ـوك آسيا. وكان هناك بين البحرين الأسود والمتوسط وبين الشرق والغـ ـرب حركـ ـة غـ ـدو ورواح لا تنقطـ ـع. واشتهرت ليديا بأنها أولى أقطار العالم في إنتاج النقود المسكوكة، وفي إعداد الخانات (الفنـ ـادق) للمسـ ـافرين والتجار، ينزلون بها ويجدون وسائل الراحة والاستجمام. ويلوح أن الأسرة المالكة الليدية كانت أسرة تجارية من طراز أسرة مينوس في كريت وقد بلغ نظام المصارف (البنوك) والمالية فيها شأوًا لا باس به. وفي هـ ـذا القدر الكفاية من أخبار ليديا نقدمه على سبيل التوطئة للقسم التالي.

٥- نهوض الفرس في الشرق

وعلى حين كانت سلسلة من الغزاة الناطقين بالآرية تدرج وتنتشر، على الشاكلة التي وصفناها، في بلاد الإغريق الأصلية وبلاد الإغريق العظمى (أي جنوب إيطاليا) وما حول شواطئ البحر الأسود، فإن هناك سلسلة أخرى من الشعوب الناطقة بالآرية ربما كان دمها النوردي الأصلي مختلطاً من قبل بأحد العناصر المغولية، قد أخذت تستقر وتنتشر في شمال وشرق الإمبراطوريات الآشورية والبابلية.

ولقد أسلفنا الكلام عن تشتت الشعوب النوردية الآرية على صورة تشابه شكل القوس في شمال البحر الأسود وبحر قزوين. والراجح أن هذا الطريق هو الذي ملكته الأجناس الهندية الفارسية الناطقة بالآرية في نزولها التدريجي إلى ما يكوّن الآن بلاد فارس، وانتشرت شرقًا إلى الهند من ناحية (من نحو ٢٠٠٠ إلى ١٠٠٠ ق. م.) وازدادت من الناحية الأخرى وتكاثرت في المرتفعات الفارسية حتى بلغت من القوة حدًا جعلها تهاجم مملكة آشور بادئ الأمر (٦٥٠ ق. م.) ثم بابل (٥٣٨ ق. م.).

ويحيط الغموض الكثير بتغيرات المناخ التي كانت تحدث في أوربا وآسيا خلال عشرة الآلاف السنة الأخيرة. فإن ثلج العصر الجليدي الأخير تراجع تراجعًا تدريجيًا، وبذلك تحول سهل أوربا العظيم طوال فترة مديدة إلى سهوب وأحوال شبيهة بالبراري. ومنذ اثنا عشر ألفًا أو عشرة آلاف من السنين تقريبًا كما يقدرون اليوم، كانت هذه الحالة آخذة في الزوال لتحل محلها الغابات والآجام. ولقد ذكرنا آنفًا كيف حدث نتيجة لهذه التغيرات، أن أخلي صيادو الحصان السوليوتريون (Solutreans) مكانهم لصائدي السمك المجدلينيين [1] (Magdalenias) ولصائدي غزال الغابات، كما أخلى هؤلاء أيضًا مكانهم بدورهم لرعاة العصر الحجري الحديث وزراعه. ويلوح أن المناخ الأوربي لبث بضع آلاف من السنين أدفأ منه الآن. وكان هناك بحر عظيم يمتد من ساحل شبه جزيرة البلقان متوغلاً في آسيا الوسطى، ويصل امتداده شمالاً إلى وسط روسيا. وكان انحسار ذلك البحر وانكماشه وما نجم عن ذلك من اشتداد المناخ وقسوته في جنوب روسيا وآسيا الوسطى، معاصرًا تمامًا لقيام المدنيات الأولى في وديان الأنهار ومتمشيًا مع تطورها. ويبدو أن هناك حقائق كثيرة تومئ إلى وجود مناخ أكثر اعتدالاً في أوربا وآسيا الغربية، وتشير أيضًا بشكل أقوى إلى ازدهار في حياة النبات والخضروات منذ أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف سنة خلت يفوق ما نشهده الآن. كانت هناك آنذاك غابات في آسيا الجنوبية وفي القطر الذي هو الآن التركستان الغربية، حيث تعم اليوم السهوب والصحارى. ومن ناحية أخرى كانت منطقة أورال وقزوين منذ مدة تتراوح بين ١٥٠٠ سنة و ٢٠٠٠ سنة أجف فيما يرجح، كما كان هذان البحران أصغر منهما في الوقت الحاضر.

---

(١) راجع المجلد الأول ص ٨٩، ٩٣ الطبعة الثالثة.

ونلحظ في هذا الصدد أن تحتمس الثالث (في القرن الخامس عشر ق. م على وجه التقريب) صد اد ف ي حملته التي امتدت إلى ما وراء الفرات قطيعًا مكونًا من مائة وعشرين فيلا في ذلك الإقليم، وعدا ذلك فثمة خنجر إيجي من ميكيناي يرجع تاريخه إلى حوالي (٢٠٠٠ ق. م) وعليه صورة منظر صد يد أسد د يحمل الصائدون فيه تروسًا كبيرة ويقفون في صفوف، الواحد منهم تلو الآخر، فيطعن الرجل الأول الأسد بحربته، فإذا وثب الوحش الجريح عليه، ارتمى الرجل على الأرض متوقيًا بترسه الكبير، تاركًا للرجل الذي يليه أن يكرر طعنته، وهكذا حتى يُقضى على الأسد. وما برح شعب الماساي (Masai) [1] يمارس إلى اليوم طريقة الصيد هذه، على أنها لا تصلح إلا في أرض كثيرة الأسود. ولكن كثرة الأسود تشير ضمناً إلى كثرة القنائص، وهذا بدوره ينم عن وجود وفرة من النبات. وكان اشتداد المناخ حوالي ٢٠٠٠ ق. م. في الأجزاء الوسطى من العالم القديم، وهو الذي سبق أن أشرنا إليه، مدعاة لتغير اتجاه الشعوب الآرية المترحلة فجعلها تتجه جنوبًا نحو الحقول والغابات بين الشعوب الأكثر استقرارًا وتمدنًا.

(1) هم شعب ذو أرومة حامية شبه زنجية يسكن في كينيا وتنجانيقا. (المترجم).



ومما هو جدير بالذكر أن الأسود بقيت في شبه جزيرة البلقان حتى قرابة القرن الرابع ق. م. إن لم يكن بعد ذلك. وربما كانت الفيلة اختفت من آسيا الغربية قبيل القرن الثامن ق. م.، ولكن الأسد – وكان أضخم من الأسد الحالي جثة – ظل في جنوب ألمانيا حتى العصر الحجري الحديث (النيوليثي). ولبث النمر الأرقط (Panther) يسكن بلاد الإغريق وجنوب إيطاليا وإسبانيا الجنوبية حتى بداية الحقبة التاريخية (قرابة ١٠٠٠ ق. م.).

وتنحدر الشعوب الآرية إلى التاريخ من الأقاليم القزوينية الشرقية قرابة الوقت الذي كانت فيـه طـ روادة وميكيناي وكنوسوس تسقط في بد الإغريق. ومن الصعب فصل القبائل والأجناس المختلفة وتمييزها بعضـ ها عن بعض. وهي تظهر تحت حشد كبير من الأسماء في السجلات والمخطوطات التي تسجل أول ظهـ ورهم. على أنه من حسن الطالع أنه ليست بنا حاجة إلى هذه الفروق المميزة في "معالم" أولية كهذا الكتاب. ويظهـ ر شعب يسمى الكمّريين في ناحية بحيرتي أوروميا (Urumiya) وفان (Van). وبعد ذلك بوقت قصير ينتشر الآريون من أرمينيا إلى عيلام (Elam). وفي القرن التاسع ق. م. تذكر المخطوطات الآشورية اسم شـ عب يسمى الميديين (Medes) وثيق اللحمة بالفرس يظهرون إلى الشرق منهم، ويدعي كل مـ ن تغلـ ث فلاسـ ر الثالث وسرجون الثاني وهما اسمان غير جديدين على أسماعنا في هذه القصة، أنهما ألزماهم دفـ ع الجزيـ ة. والمخطوطات تشير إليهم بـ أنهم "الميـ ديون الخطرون"، وهم – بَعْدُ – شعب قَبَلي لم يتحد تحت لواء ملك واحد.

وقرابة القرن السابع ق. م. يتوارى من سجل التاريخ فجأة عيلام والعيلاميون الذين كانت عاصمتهم سوسا وهم شعب له تقاليد ومدنية لا تقل عن تقاليد السومريين ومدنيتهم من حيث القدم. ولسنا ندري ما حدث لهـ م. ويلوح أن الغزاة اجتاحوا السكان وامتصوهم ووقعت سوسا في قبضة الفرس.

وثمة شعب رابع يمت بصلة إلى هذه القبائل الآرية، يظهر في هذا الزمان في رواية هيرودوت، وهو الإسكيذيون أو الأشقوذيون (Scythians). فإن ملوك دولة آشور يوقعون الشحناء طرفاً من الزمان بين مختلف هذه الشعوب ذوات القربى ويُغْرون الكمريين والميديين والفرس والإسكيذيين بعضهم ببعض وتتزوج أميرات آشوريات (بينهن بنت آسَرْحدون Esarhaddon مثلاً) من رؤساء إسكيذيين. ومن جهة أخرى نرى نبوخذ ناصَّر العظيم يتزوج من ابنة كياكسارس (Cyaxares) الذي أضحى ملكاً على الميديين كافة، والآريون الإسكيذيون يتجهون نحو الآشوريين الساميين، على حين ينزع الميديون الآريون صوب البابليين الساميين. وكياكسارس هذا هو الذي فتح نينوي عاصمة آشور (٦٠٦ ق. م.) وبذا خلص بابل من النير الآشوري. وبذا تأسست الإمبراطورية البابلية الثانية تحت الحكم الكلداني. ثم يعود أحلاف دولة آشور الإسكيذيون فيسقطون من القصة بعد هذا ويواصلون عيشهم في مكان بعيد في الشمال دون كثير تدخل في شئون الشعوب التي في الجنوب، وإن نظرة إلى خريطة ذلك العصر لتريك كيف أنه خلال ثلثي قرن من الزمان استقرت الإمبراطورية البابلية الثانية استقرار الحمل بين ذراعي الأسد الميدي.

ولن نتدخل في معترك المنازعات الداخلية بين الميديين والفرس، وهي التي انتهت آخر الأمر باعتلاء قورش (Cyrus) الفارسي "عرش كياكسارس الميدي عام ٥٥٠ ق. م. ففي تلك السنة كان قورش يحكم إمبراطورية تمتد من حدود ليديا إلى فارس وربما وصلت إلى الهند. على حين كان نابونيداس آخر الحكام البابليين، كما ذكرنا آنفاً يحفر منقبًا عن السجلات القديمة ويبني المعابد في مملكة بابل (بابلونيا).

٦- قصة كرويسوس Croesus (قارون)

على أن هناك ملكًا واحدًا في العالم تنبه لخطر تلك القوة الجديدة المجتمعة بين يدي قورش ذلك هو كرويْسوس ملك ليديا. وقد قُتل ابنه بطريقة محزنة جدًا ذكرها هيرودوت ولكننا لن نتعرض هنا لوصفها؛ قال هيرودوت:

"أقام كرويسوس بعد ذلك الحادث مدة سنتين في حداد عميق لفقد ولده، ولكن راعه بعد تلك الفترة ما رآه من خلع قورش لابن كياكسارس من الحكم ومن تزايد الفرس عظمة وسلطانًا، فأقلع كرويْسوس عن أحزانه، وأخذ يعمل بكل ما أوتي من وسيلة على تقويض قوة الفرس وهي لا تزال في طور النمو وقبل أن تبلغ غاية العظمة. وعند ذلك أخذ يجرب مهابط الوحي المتنوعة.

وقد كلف كرويْسوس الليديين الذين كان عليهم أن يحملوا العطايا إلى المعابد، بأن يسألوا الوحي هذا السؤال: "هل يهاجم كرويسوس الفرس، وإن كان الحال كذلك، فهل يجب عليه أن يضم إليه أي جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء؟" ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعوا العطايا وقدموا النذور استفسروا من الوحي قائلين: "إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى، إذ يعد هذه هي مهابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب، ويسألكم الآن مرة أخرى هل قدر له أن يسير جنده على الفرس، وإن كان الأمر كذلك، فهل كتب عليه أن يضم أي جيش من الرجال بوصفهم أصدقاء؟" ولما أن وصل الليديون إلى الأماكن التي بعثوا إليها ووزعوا العطايا وقدموا النذور استفسروا من الوحي قائلين: "إن كرويسوس ملك الليديين والشعوب الأخرى، إذ يعد هذه هي مهابط الوحي الصادقة الوحيدة بين الناس، يقدم لكم من العطايا ما يستحقه كشفكم أستار الغيب، ويسألكم الآن مرة أخرى هل قدر له أن يسيّر جنده إلى الفرس، وإن كان الأمر كذلك، فهل كتب عليه أن يضم أي جيش من الرجال بوصفهم أحلافًا؟" هكذا استفسروا، واتفقت إجابات كل من مهبطي الوحي على أمر واحد، وهو تأكيدهم لكرويسوس بأنه إن زحف على الفرس فإنه سيحطم إمبراطورية عظيمة. وعلى ذلك لما نقلت الإجابة إلى الملك كرويسوس وبلغت مسامعه، سره الوحي، ولتوقعه أنه لا بد مدمر مملكة قورش، أرسل ثانية إلى بيثو (Pytho) وأهدى إلى رجال دلفي كافة، بعد أن استوثق من عددهم، قطعتين من الذهب لكل رجل منهم، (قيمة الواحدة منهما ستاتير [1] Stater). وفي مقابل هذا أعطى الدلفيون كرويسوس والليديين حق الأسبقية في استشارة الوحي والإعفاء من كل الرسوم وحق الجلوس في المقاعد الأمامية في حفلات الألعاب، مع منحهم امتيازًا آخر يبقى لهم على مر الزمان: وهو أن يسمح لكل من يرغب منهم بأن يكون له حق المواطن الحر في دلفي.

([1]) ستاتير: عملة قديمة وهي أكبر عملة ذهبية كانت تستخدم قديمًا ببلاد الإغريق. (المترجم).

ومن ثم عقد محالفة دفاعية مع كل من اللاكيديمونيين (Lacedemonians) والمصريين. ثم يستطرد هيرودوت فيقول: "وبينما كان كرويسوس يتأهب للمسير إلى الفرس، نصح له أحد الليديين وكان من قبل هذا الزمان معروفًا بالحكمة والحصافة، على أن هذه النصيحة زادته شهرة على شهرته بالعقل والحكمة بين الليديين – نصح الملك بما يلي، قال: "أيها الملك، إنك تستعد للهجوم على رجال يرتدون سراويل من الجلد، وسائر ثيابهم من الجلد كذلك، وهم يأكلون طعامًا ليس مما يشتهونه، وإنما مما يستطيعون الحصول عليه، ويعيشون في أرض وعرة، وفضلاً عن ذلك فإنهم لا يتناولون النبيذ بل يشربون الماء، وليس لديهم من التين ما يتخذونه حلوا بعد طعامهم، ولا أي غذاء طيب آخر. فمن ناحية، إن كانت الغلبة لك عليهم فماذا أنت آخذ منهم وليس لديهم شيء يستلب؟ ومن جهة أخرى إن غلبوك فتأمل كم من الأشياء الطيبة تذهب عنك حين ذاك. فإنهم لو ذاقوا خيراتنا لأول مرة تشبثوا بها لا محالة، ولن يستطاع بعد ذلك إقصاؤهم عنا. وأنا من نفسي أشعر بالشكر للآلهة لأنهم لم يبثوا في عقول الفرس أن يزحفوا على الليديين". هكذا تكلم من غير أن يقنع كرويسوس، لأنه من المحقق أنه لم يكن لدى الفرس – قبل أن يخضعوا الليديين – شيء من وسائل الترف ولا من الطيبات".

واقتتل كرويسوس وقورش في معركة غير فاصلة في بتيريا (Pteria) تراجع منها كرويسوس، وتبعه قورش فالتحما في معركة خارج عاصمته سارديس، وكانت قوة الليديين تنحصر في فرسانهم، إذ إنهم كانوا فرسانًا ممتازين، وإن كانوا غير منظمين، يقاتلون برماح طويلة.

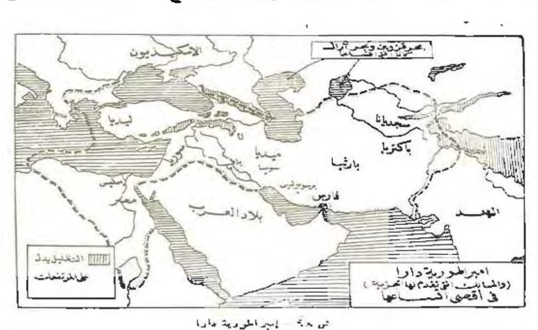
"أما قورش فإنه لما أن رأى الليديين مصطفين للقتال وخشي فرسانهم أقدم على ما يأتي تنفيذًا لمشورة هارباجوس (Harpagos) فقد جمع في صف واحد كل الجمال التي كانت في مؤخرة جيوشه تحمل المؤن والمتاع، ورفع عنها أحمالها وأقام عليها رجالاً مزودّين بعتاد الفرسان، وبعد أن أعد عدتهم على هذه الشاكلة، أمرهم أن يكونوا في مقدمة سائر الجيوش وأن يتجهوا صوب فرسان كرويسوس، ومن خلف فصيلة الجمال، أمر المشاة أن يتبعوهم، ومن خلف المشاة وضع قوة فرسانه بأكملها، وعندما عبأ رجاله كلا في مكانه الخاص أمرهم ألا يتركوا فردًا واحدًا من الليديين الآخرين حيًا، وأن يذبحوا كل من قد يقف في سبيلهم، على أنهم لم يكونوا ليذبحوا كرويسوس نفسه، وإن أبدى المقاومة ساعة القبض عليه. تلك كانت أوامره وقد وضع الجمال ضد الخيل لهذا السبب: وهو أن الخيل تخاف الإبل ولا تستطيع أن تطيق رؤيتها أو أن تشم رائحتها. فلهذا السبب إذن دبرت الحيلة، حتى تصبح فرسان كرويسوس عديمة الجدوى. وهي القوة نفسها التي كان يتوقع منها الملك الليدي كل التفوق والتبريز. وبينما الجانبان يتقدمان للالتحام في المعركة، وبمجرد أن اشتمت الخيل رائحة الجمال ورأتها دارت على أعقابها وانهارت آمال كرويسوس على الفور".

وهوجمت سارديس طوال أربعة عشر يومًا ووقع كرويسوس في الأسر...

"ولما أن ظفر به الفرس قدموه بين يدي قورش، فجمع الملك كومة عظيمة من الحطب وأمر فجعل كرويسوس من فوقها مشدود الوثاق، كما جعل معه أربعة عشر من أبناء الليديين، فهل كان يقصد أن يقدم هذا القربان ثمرة أولى لنصره إلى أحد الأرباب؟ أو هل كان يبغي تحقيق الوفاء بنذر قطعه على نفسه؟ أو أنه سمع أن كرويسوس رجل يخشى الله، فأمر به أن يوضع من فوق قمة الحطب، لأنه أراد أن يعرف هل ستنقذه إحدى القوى الإلهية فلا يحرق حيًا؟ في قولهم إنه فعل ذلك ابتغاء تلك الغاية.

على أن كرويسوس، وهو واقف على كومة الحطب هبطت عليه على الرغم مما كان فيه من سوء الحال ذكرى حكمة سولون (Solon) حين قال بوحي من الآلهة: "إنه ليس بين الأحياء من يدعى بالسعيد"، فلما خطر ذلك الخاطر بباله، قالوا إنه تأوه تأوهًا عميقًا وأنَّ أنينًا عاليًا، بعد أن ظل صامتًا زمانًا طويلاً، ثم هتف باسم سولون ثلاثًا. فلما أن سمع قورش ذلك أمر المترجمين أن يسألوا كرويسوس عمن يكون ذلك الشخص الذي يناديه، فاقتربوا منه وسألوه، ويقال إن كرويسوس لزم الصمت زمانًا عندما سئل في هذا، ولكنهم لما ألحوا عليه بعد ذلك قال "إنه رجل وددت . وإن فقدت في سبيل ذلك ثروة طائلة – لو أنه تحدث إلى كل الملوك". وعند ذلك لما كانت كلماته ذات مضمون مبهم، سألوه من جديد عما قال، وإذ كانوا ملحفين لا يعطونه أي سلام أو راحة، أخبرهم كيف أن سولون – وهو فرد أثيني – قد جاءه، وبعد أن فحص كل ثروته استخف بها بكلمات كيت وكيت، وكيف أن كل ما حدث له جاء مطابقًا لما قاله سولون، وهو لم يكن يتكلم البتة بالنسبة إلى كرويسوس نفسه بوجه خاص ولكن بالنسبة إلى الجنس البشري أجمع، وخاصة إلى أولئك الذين يخالون أنفسهم رجالاً سعداء. وبينما كان كرويسوس يقص هذه الأمور، كانت النار أُضرمت في كومة الحطب وكانت حوافيها قد اتقدت من كل النواحي. وعند ذلك يقال إن قورش عندما سمع من المترجمين ما قاله كرويسوس، غير عزمه وأيقن أنه هو نفسه إن هو إلا إنسان، وأنه يقدم رجلاً آخر لا يقل عنه سعادة؛ ليكون وقودًا للنار وهو حي، وفضلاً عن ذلك فقد خشي القصاص، ورأى أنه لا أمان لشيء مما تملكه الناس، ولذلك يقولون إنه أمرهم أن يطفئوا بأسرع ما يستطاع تلك النار التي كانت تتلظى وأن ينقذوا كرويسوس ومن معه من فوق كومة الحطب، وإذ أخذوا يبذلون الجهود لم يستطيعوا إذ ذاك أن يتغلبوا على لهيب النار. ثم يقص الليديون بعد ذلك أن كرويسوس، وقد علم كيف عدل قورش عن رأيه ورأى كل إنسان جاهدًا في إطفاء النار، وأنهم لم يعودوا قادرين على الحد من امتدادها صاح متوسلاً إلى أبولون (Apollo): إذا كنت يومًا قدمت هدية تقبّلها الإله أبولون، فإنه سيهب لنجدتي وسينقذني من الشر الذي هو الآن محيق بي. هكذا تضرع إلى الرب والدمع ملء عينيه. وفجأة كما يقولون، وبعد أن كانت السماء مصحية والجو هادئًا مستقرًا، تجمع الغمام وانفجرت العاصفة، وأمطرت السماء وابلاً مدرارًا فأطفأت نار الحطب.

"ثم لما أدرك قورش أن كرويسوس محب للآلهة ورجل خير أمر به فأنزل من فوق كومة الحطب وسأله كما يأتي: "أخبرني يا كرويسوس مَنْ من الناس قاطبة أغراك بأن تزحف على أرضي وتصبح عدوًا لـ ـي بـ ـدل أن تكون صديقًا ودودًا؟"، فقال له: "أيها الملك لقد فعلت ذلك فكان فيه سعادتك وجر علي شقاوتي، والسبب في ذلك هو رب الهلينيين الذي حرضني على الزحف بجيشي، إذ ما من فرد بلغت به الحماقة حدًا يجعله يختار بمحض إرادته الحرب دون السلم، لأن الأبناء يوارون آباءهم التراب في أوان السلم، على حين يواري الآباء أبناءهم في زمن الحرب. على أني أعتقد أنه كان مما يسر القوى الإلهية أن تقع هذه الحوادث على هذا النحو.".



على أن هيرودوت رفيق شائق جذاب يغري من يكتب معالم التاريخ بالإسهاب في الاقتباس منه، ولذا فإن بقية حياة كرويسوس وكيف أخذ يقدم إلى قورش نصائح حكيمة، يجب أن تقرأ عل ـى صـ ـفحات هيـ ـرودوت الزاخرة.

ولما أن أخضعت ليديا، وجه قورش التفاته إلى نابونيداس في بابل، فقهر الجـ ـيش البـ ـابلي تحـ ـت قيـ ـادة بَلْشَاصَّر (Belshazzar) خارج أسوار بابل، ومن ثم ألقى الحصار على المدينة فـ ـدخلها عـ ـام ٥٣٨ ق. م.، والراجح أن ذلك الفتح تم كما سبق أن أشرنا برضاء كهنة بعل وإغضائهم.

٧- دارا يجتاح الروسيا

خلف قورش على الملك ابنه قمبيز، الذي اقتاد جيشاً دخل به مصر (٥٢٥ ق. م.)، وحدثت معركة على أرض الدلتا اقتتل فيها مرتزقة من الإغريق في كل من الجانبين. ويصرح هيرودوت أنه رأى عظام القتلى وهي لا تزال في الميدان بعد ذلك بخمسين أو ستين سنة. وهو يشير إلى صغر حجم الجماجم الفارسية نسبيًا. ذلك أن هيرودوت لم يخفف قط من دعايته ضد الفرس. واستولى قمبيز بعد هاته المعركة على منف ومعظم أجزاء مصر.

ويقال إن قمبيز أصيب بمس من الجنون في مصر. فاستباح المعابد المصرية أيما استباحة وظل في ممفيس "ينبش المقابر القديمة ويفحص جثث الموتى". وكان قمبيز قد اغتال قبل وصوله إلى مصر كلا من كرويسوس ملك ليديا السابق وشقيقه نفسه سميرديس (Smerdis). ثم مات في سوريا أثناء عودته إلى سوسا متأثرًا بجرح عارض ولم يترك عقبًا يخلفه على العرش فخلفه في الحال دارًا الميدي (٥٢١ ق. م.) وهو ابن هيستاسبس (Hystaspes) أحد كبار مستشاري قورش.

وكانت إمبراطورية دارا الأول أعظم من جميع الإمبراطوريات السابقة التي تتبعنا فيما سلف نموها، فهي تضم كل آسيا الصغرى وسوريا، أو بعبارة أخرى الإمبراطوريتين الليدية والحيثية القديمتين، وكل الإمبراطوريات الآشورية والبابلونية القديمة ومصر وبلاد القوقاز وإقليم قزوين وميديا وبلاد الفرس، ولعلها امتدت في الهند حتى نهر السند. دانت كل هذه البلاد لحكم دارا فأقام عليها حكامًا إقليميين (ينعت الواحد منهم باسم ساتراب)، ولم ينج من دفع الجزية للساتراب الفارسي إلا العرب الرحل وحدهم دون سائر شعوب ما يسمى الآن باسم الشرق الأدنى التابعين لدارا. ويلوح أن تنظيم هذه الإمبراطورية العظيمة كان على مستوى من الكفاية أعلى كثيرًا مما كان في الإمبراطوريات التي سبقتها. فكانت الطرق الرئيسية العظيمة تصل الولاية بالولاية، وكان هناك نظام للبريد الملكي، وكانت خيول البريد تقف على مسافات مقررة وهي مستعدة على الدوام لحمل رسل الحكومة أو لحمل المسافر إن كان لديه تصريح من الحكومة – إلى المرحلة الثانية من مراحل رحلته. ويلوح أن الحيثيين رصفوا الطرق الكبرى الممتدة عبر بلادهم في زمن أبكر من هذا بكثير. على أن هذا أول تنظيم للبريد معروف لدينا، وفيما خلا مسألة حق الحكومة المركزية في استخدام الطرق الإمبراطورية والاستيلاء على الجزية، فقد كانت الحكومات المحلية تستمتع بقدر جسيم جدًا من الحرية المحلية، وأفضت تبعيتهم للحكومة المركزية إلى الحيلولة دون وقوع نزاع داخلي قتّال بينهم، وهو أمر عاد عليهم جميعًا بالخير العميم. وفي أول الأمر كانت المدن الإغريقية الواقعة في القارة الآسيوية تدفع الجزية وتشترك في الاستمتاع بهذا "السلم الفارسي".

وقد استحث دارا على مهاجمة الإغريق في أوربا طبيب إغريقي في بلاطه وكان يحن إلى وطنه، ويريد أن يعود إلى بلاد الإغريق بأي ثمن. وكان دارا قد رسم من قبل الخطط لحملة على أوربا وليس على بلاد الإغريق. بل على ما هو في شمال الإغريق عبر البوسفور والدانوب (الطونة)، كان يريد أن يضرب جنوب روسيا التي كان يعتقد أنها موطن الإسكيذيين المترحلين الذين يهددونه على حدوده الشمالية الشرقية. على أنه أعار مُستَحِثَّه أذنًا مصغية وأرسل الرسل إلى بلاد الإغريق.

وهذه الحملة العظيمة التي قام بها دارا توسع رحاب نظرتنا في هذا التاريخ. فهي ترفع الستار عن بلاد البلقان من خلف بلاد الإغريق، وهذه أول مرة نذكر لك فيها البلقان. وهي تحملنا إلى الدانوب وما وراء الدانوب. سارت نواة جيشه من سوسا وهي تجمع الأحلاف وفرق الجند المساعدة أثناء تقدمها إلى البوسفور، وهنا كان حلفاء دارا من الإغريق "وهم الإغريق الأيونيون في آسيا" قد أقاموا جسرًا من الزوارق عبر الجيش عليه، على حين واصل حلفاؤه الإغريق رحلتهم بسفنهم إلى نهر الدانوب، ثم رسوا على مسيرة يومين من مصبه ونصبوا جسرًا طافيًا آخر على حين كان دارا يتقدم بجيوشه بإزاء الساحل الذي نسميه الآن بلغاريا، والذي كان يسمى حينذاك تراقيا؛ فعبروا نهر الدانوب وأخذوا يستعدون لمنازلة الجيش الإسكيذي والاستيلاء على مدن الإسكيذيين.

على أن الإسكيذيين لم تكن لهم مدن، كما أنهم تجنبوا الالتحام معه في أية موقعة. وتحولت الحرب إلى عملية طراد مضنية موئسة قوامها اقتفاء أثر أعداء أكثر سرعة وأخف حركة. وكان المترحلون يطمرون الآبار ويدمرون المراعي. وكان فرسان الإسكيذيين يغيرون على أطراف الجيش المكون في معظمه من جنود من المشاة، فيتصيدون الشاردين منهم ويحولون دون المرعى وجمع الأعلاف. وبذلوا كل ما في مقدورهم لحمل الإغريق الأيونيين – الذين أقاموا الجسر عبر الدانوب وقاموا على حراسته – على أن يفكوا الجسر، وبذلك يضمنون تدمير "دارا" تدميرًا محققًا لا ريب فيه. على أن إخلاص حلفاء دارا من الإغريق ظل ثابتًا لا يتزعزع ما داموا يرونه يتابع تقدمه.

ولكن ضروب الحرمان والتعب والمرض نالت من الجيش الفارسي وأعجزته عن التقدم، وفقد دارا عددًا كبيرًا من الرجال ممن شردوا عن جيشه، واستنفدت كل مؤنه ثم ساوره أخيرًا خاطر أليم بأن التراجع عبر الدانوب كان أمرًا ضروريًا لإنقاذه من إعياء وهزيمة كاملين.

ولكي يجد مخرجًا ينقذه من ورطته عول على أن يبدأ تراجعه بالتضحية بالمرضى والجرحى من رجاله. فأخبرهم بأنه يتأهب لمهاجمة الإسكيذيين في أثناء الليل، وتسلل من المعسكر تحت هذه الدعوى مع نخبة من جنوده المختارين وانطلق جنوبًا تاركًا نيران المعسكر متقدة فضلاً عن الضوضاء والحركة العاديتين. وفي اليوم التالي أدرك الرجال المخلفون في المعسكر الحيلة التي لعبها ملكهم عليهم، فسلموا أنفسهم إلى رحمة الإسكيذيين، ولكن دارا كان حصل على ما يشتهي، فاستطاع أن يصل إلى جسر الزوارق قبل أن يلحق به مطاردوه. على أنهم كانوا أسرع من عسكره حركة، لولا أنهم ضلوا عن قنيصتهم في الظلام. وعند النهر "بلغ الخوف بالفرس المتراجعين أقصى غايته" إذ وجدوا بعض أجزاء الجسر قد انهارت ولم يجدوا أثرًا لنهايته الشمالية.

وفي هذه المرحلة يدوي في آذاننا صوت يتردد من القرون الخوالي. فهؤلاء جماعة من الفرس الوجلين يقفون حول الملك العظيم على شاطئ النهر المتدفق.. وهذه كتل الجيوش المتوقفة عن المسير وقد أنهكها الجوع وأضنتها الحرب... وهذا ذيل طويل من السفن المحطمة يمتد نحو الأفق الذي قد يظهر عليه في أي وقت جنود مقدمة المتعقبين... وليست هناك ضوضاء كبيرة على الرغم من الجمع الحاشد، بل يسود وجوههم صمت القلق المتوجس. وكانت بقية من جسر الزوارق تمتد امتداد المرساة على الجانب الآخر من مجرى النهر العظيم، وكأنما هي لغز لا سبيل إلى حله. ولسنا نستطيع أن نميز هل هناك رجال عنده أم لا، فإن سفائن الإغريق الأيونيين تلوح كأنما لا تزال تُسحب على الشاطئ الآخر، ولكن كان كل شيء بعيدًا بعدًا سحيقًا. "وكان مع دارا إذ ذاك رجل مصري له صوت أجهر من صوت أي رجل على الأرض. وقد أمر دارا ذلك الرجل أن يتخذ موقفه على شاطئ إيستر Ister (أي الدانوب) وأن ينادي هستيائيوس الميليطي (Histiaeus of Miletus)".

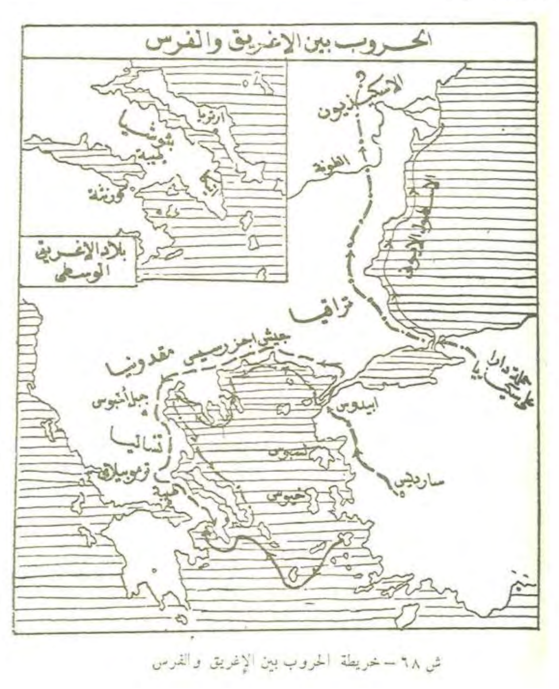
وإذا بهذا المبجل الذي كان موضع التكريم – وسيأتي يوم تُحمل فيه رأسه إلى دارا في سوسا كما سنفصل ذلك من توّنا – يظهر عبر النهر مقتربًا رويدًا رويدًا في قارب.

ويدور حديث يتبين منه أن "كل شيء على ما يرام".

والتفسير الذي قدمه هستيائيوس عن الأمر تفسير معقد، ذلك أن بعض الإسكيذيين حضروا ثم انصرفوا، وربما كان هؤلاء من الطلائع الكشافة. ويبدو أنه جرت مناقشة بين الإسكيذيين والإغريق، وكانوا يطلبون إليهم تحطيم الجسر ويتعهدون لهم بأن يهلكوا عند ذلك الجيش الفارسي ويقضوا على دارا وإمبراطوريته. وعندئذ يستطيع إغريق آسيا الأيونيون تحرير مدنهم ثانية. وكان ملتياديس الأثيني يدعو إلى قبول هذا المقترح، على أن هستيائيوس كان أشد منه دهاء. فإنه قال إنه يفضل ألا يتخلى عن الفرس تمامًا إلا بعد أن يراهم وقد دمروا تدميرًا. فهل يوافق الإسكيذيون أن يعودوا أدراجهم ويدمروا قوة الفرس ليطمئن إليهم الإغريق، على حين يقوم الإغريق من ناحيتهم بتدمير الجسر؟ ومهما يكن الجانب الذي انحاز إليه الإغريق آخر الأمر، فقد كان من الواضح الجلي لهم أن من حسن التدبير تدمير نهاية الجسر الشمالية. فإن لم يفعلوا ذلك فإن الإسكيذيين قد يجتاحونه. والواقع أنه حتى حين كان الطرفان يتفاوضان، شرع الإغريق في العمل بأسرع ما يستطاع على هدم الطرف الذي كان يربطهم بالإسكيذيين. ثم انطلق الإسكيذيون بخيولهم باحثين عن الفرس، وبذا تركوا الإغريق مطمئنين على كلا الحالين. فإن فرّ دارا ونجا، استطاعوا أن يكونوا إلى جانبه، وإن دمر لم يكن للإسكيذيين موضع للشكوى.

ولم يعرض هستيائيوس الأمر على دارا على نفس هذه الصورة، ولكنه حافظ على الأقل على السفائن وعلى معظم الجسر. كما أظهر نفسه بمظهر صديق فارس المخلص. ولم يكن دارا ميالاً إلى شدة النقد والتدقيق. وجاءت السفائن الأيونية. وسرعان ما أخذت بقية الفرس المجهدة المكدودة تنظر من خلفها بشعور ارتياح لا حد له إلى لجج الدانوب الفولاذية القاسية وهي تنساب مترامية وفاصلة بينهم وبين متعقبيهم.

وزال عن نفس دارا كل سروره واهتمامه بالحملة الأوربية. فعاد إلى سوسا تاركًا في تراقيا جيشًا تحـ ـت إمرة قائد أمين هو ميجابازوس (Megabazus) فأخذ ميجابازوس هذا على نفسه إخضاع تراقيا. ومن بـ ـين الدول الأخرى التي أذعنت لدارا مُكرهة مملكة تظهر في تاريخنا الآن لأول مرة، وهي مملكة مقدونيا. وهي بلاد يسكنها شعب وثيق الصلة بالإغريق إلى حد أن أحد أمرائها أذن له من قبل ذلك بأن يتبارى في الألعاب الأولمبية ويحصه على جائزة فيها.



ش ٦٨ – خريطة الحروب بين الإغريق والفرس

وكان دارا ميالاً إلى مكافأة هستيائيوس بالسماح له بأن يبني لنفسه مدينة في تراقيا، لولا أن ميجابـ ـازوس كان له رأي مغاير لهذا في جدارة هستيائيوس بالثقة. فحمل الملك على أخذه إلى سوسا، وأن يحتفظ به هناك أسيرًا يحمل لقب مستشار. ولقد غر هذا المنصب في البلاط هستيائيوس بادئ ذي بدء، ثم أدرك حقيقة مغزاه، فأضجره البلاط الفارسي وأخذ يحن إلى موطنه ميليتوس فنصب نفسه لعمل الشر واستطاع أن يقيم ثورة على الفرس بين الأيونيين من الإغريق في آسيا الصغرى. ولهذه القصة ملابسات ملتوية وتـ ـأويلات وتخريجـ ـات بلغت من التعقيد درجة لا يتسع لها هذا المقام. وهي تتضمن إحراق سارديس على يـ ـد الأيـ ـونيين وهزيمـ ـة أسطول إغريقي في لادي (٤٩٥ ق. م.)، وهي قصة حالكة مليئة بالخيانة والقسوة والبغضاء. حتى ليبدو فيها مصرع هستيائيوس الماكر حدثًا ساطعًا وضاءً أو يكاد، فإن "ساتراب" سارديس التي أخذ فيهـ ـا هسـ ـتيائيوس أسيرًا وهو في طريقه إلى سوسا، كان له فيه رأي يطابق رأي ميجابازوس، كما كان يعرف مقدرتـ ـه علـ ـى الخداع والتهويش على دارا فقتله هناك في التو والساعة واكتفى بإرسال رأسه إلى مولاه.

ولقد أقحمت قبرص والجزر الإغريقية في هذا النزاع الذي أثاره هستيائيوس واشتبكت فيه أثينا آخر الأمر. وأدرك دارا الغلطة التي وقع فيها حين اتجه يميناً بدل أن يعرج يسارًا عندما عبر البوسفور، ومن ثم نصب نفسه لغزو كل بلاد الإغريق فبدأ بالجزر.

وكانت صور وصيدا المدينتان التجاريتان الساميتان العظيمتان خاضعتين للفرس. ومن ثم انضمت سفائن الفينيقيين والأيونيين من الإغريق إلى الفرس، فصار لهم أسطول استطاعوا به إخضاع الجزر الإغريقية الواحدة تلو الأخرى.

٨- معركة ماراتون (Marathon)

شن الفرس أول هجوم لهم على بلاد الإغريق نفسها عام (٤٩٠ ق. م.) وكان هجومًا بحريًا على أثينا بقوة دربت بعناية تدريبًا طويلاً لتلك الغاية. وكان الأسطول مزودًا بنقالات بنيت خصيصًا لراحة الخيول. وقد نزلت هذه الحملة العسكرية قرب ماراتون في أتيكا (١) (Attica). وأرشد الفرس إلى ماراتون رجل إغريقي من الخونة هو هيباس بن بيزستراتوس الذي كان طاغية على أثينا. واتفق المتآمرون أنه إذا سقطت أثينا، يصبح هيباس طاغية لها تحت حماية الفرس. وفي الوقت ذاته تمكن من نفوس القوم شعور بأن شئون هيلاس أخذت تستحكم فيها أزمة حرجة – تمكنًا جعل رسولاً من العدائين ينطلق من أثينا إلى إسبرطة ناسيًا كل العداوات القديمة بين البلدين، لكي يقول لأهلها: "أيها اللاكيديمونيون إن الأثينيين ليهيبون بكم أن تهبوا خفافًا لمساعدتهم، وألا تسمحوا لمدينة أقدم ما تكون بين الهليّنيين بأن تقع في ربقة العبودية على أيدي الهمج البرابرة (٢). ولا تنسوا أن إرتريا (Eretria) مستعبدة في يومنا هذا مما أضعف قوة هيلاس بفقد هذه المدينة الشهيرة".

قطع هذا الرجل واسمه "فيدييبدس Pheidippides" المسافة من أثينا إلى إسبرطة وهي قرابة مائة ميل، سالكًا كالغراب خطًا مستقيمًا، بل أقصر منه – إذا أدخلنا في حسابنا ما بالطريق من التعريجات والمنعطفات – قطعها فيما يقل عن أربعين وثمانية من الساعات.

على أنه قبل أن يستطيع الإسبرطيون الوصول إلى المكان، كان الفريقان قد التحما. فهاجم الأثينيون العدو وقاتلوهم "بطريقة جديرة بالخلود لأنهم فيما نعرف كانوا أول من تقدم من الهلتينيين لمهاجمة العدو جريًا كما كانوا كذلك أولهم في الصبر على تحمل النظر إلى ثياب الميديين وملاقاة الرجال الذين يرتدونها، حين كان مجرد اسم الميديين حتى ذلك الزمان مما يرعب الهلينيين سماعه".

وتزعزع جناحا الفرس أمام ذلك الهجوم العنيف ولكن القلب صمد. على أن الأثينيين كانوا مع ذلك هادئي الروع مثلما كانوا أشداء. فحملوا الجناحين على الفرار. ثم أطبقوا على جانبي القلب. وعند ذلك فرت كتلة الفرس الرئيسية إلى السفن. وسقطت سبع سفن في أيدي الأثينيين ولاذت البقية الباقية بالفرار. وبعد أن قامت السفن بمجهود فاشل تروم به التقدم إلى أثينا والاستيلاء على المدينة قبل أن يعود إليها الجيش الإغريقي، تراجع الأسطول إلى آسيا.

---

(١) إحدى ولايات بلاد الإغريق القديمة وكانت عاصمتها أثينا. (المترجم).

(٢) البرابرة (أو الهمج) اصطلاح في التاريخ اليوناني أطلقه اليونان على كل من عداهم من الشعوب تحقيرًا لشأنهم. (المترجم)



٦٩– جندى أثينى من المشاة

ولندع هيرودوت يختم القصة بفقرة تلقى إلينا ضوءًا ساطعًا على مهابة الميديين الهائلة في ذلك الزمان.

"ومن اللاكيديمونيين حضر إلى أثينا ألفان بعد تمام القمر وبعد أن أسرعوا سرعة عظيمة ليصلوا في الأوان، حتى وصلوا إلى أتيكا في اليوم الثالث لخروجهم من إسبرطة وهم وإن حضروا بعد فوات فرصة المعركة بزمن طويل، إلا أنهم كانوا يرغبون في مشاهدة الميديين. فذهبوا وفقًا لهذا إلى ماراتون وشاهدوا جثث القتلى، ثم رحلوا بعد ذلك إلى وطنهم، وهم يثنون على الأثينيين وعلى العمل الذي أتوه".

٩– ثرموبيلاي وسالاميس

بذلك الفوز العظيم أحرزت بلاد الإغريق – وقد وحد الخوف كلمتها ردحًا من الزمان – أول نصر لها على فارس. وترامت الأنباء بذلك إلى دارا في نفس الوقت الذي وصلت إليه فيه أخبار شبوب فتنة في مصر. ولكنه مات قبل أن يجمع رأيه على الاتجاه الذي ينبغي عليه أن يسلكه. واتجه ابنه وخلفه إجزرسيس (Xerxes) في بادئ الأمر إلى مصر فولى عليها واليًا (ساتراب) فارسيًا ثم استمر أربع سنوات يعد العدة لهجوم ثان على بلاد الإغريق. ويقول هيرودوت – وينبغي ألا يغيب عن بالنا أنه كان إغريقيا وطني النزعة – في مؤلفه التاريخي الذي أخذ يسمو آن ذاك إلى أوج الروعة والبهاء:

"فأي شعب لم يخرج به إجزرسيس من آسيا على هيلاس؟! وأي ماء لم ينضب معينه حين ينهال عليه جيشه شربًا، اللهم إلا الأنهار العظيمة دون سواها؟ لقد كان بعض هذه الشعوب يزوده بالسفن كما كان بعضها مكلفًا بالخدمة في الجيش البري. وكان على بعضها أن يقدم الفرسان كما تعين على البعض الآخر أن يقدم سفنًا تحمل الخيل. على حين كانوا هم أنفسهم يشتغلون كذلك في الحملة، وكان أن أُمر آخرون بتقديم سفن حربية للجسور، وأمر آخرون كذلك بتقديم سفن محملة بالمؤن".

عبر إجزرسيس إلى أوربا، لا عند معبرة البوسفور التي عرضها نصف ميل كما فعل "دارا"، بل عند الهلسبونت (Hellespont): الدردنيل). وهيرودوت في وصفه لتجمع ذلك الجيش العرمرم ومسيره من سارديس إلى الهلسبونت، إنما تغلب نزعة الشاعر فيه على المؤرخ. ويمر الجحفل العظيم الجرار بكل أبهته بمدينة طروادة (Troy)، وإجزرسيس وإن كان فارسيًا ومن الهمج إلا أنه يلوح في زي المتأدبين بأدب القدامى فهو يعرج على تلك المدينة، كما يقول مؤرخنا، لزيارة قلعة بريام (priam)،، وقد أقيم الجسر على الهلسبونت عند أبيدوس، وأقيم على قمة أحد التلال عرش من الرخام ليشرف منه إجزرسيس على عرض جيشه بأجمعه.

"حتى إذا نظر فرأى الهلسبونت تغطيه السفائن ورأى كل شواطئ سهول أبيدوس غاصة بالرجال، قال عن نفسه إنه لسعيد، وما لبث بعد ذلك أن هملت عيناه بالدموع. فلما أن رآه عمه أرطبانوس (Artabanus) على تلك الحال – وهو نفسه الذي صرح برأيه بادئ الأمر في جرأة ناصحًا إجزرسيس بأن لا يزحف على هيلاسي، – أقول إن هذا الرجل عندما لاحظ أن إجزرسيس كان يبكي، سأله كما يأتي: أيها الملك، ما أبعد الشقة بين الأمرين اللذين أتيتهما الآن وقبل الآن ببرهة وجيزة، فإنك وقد دعوت نفسك رجلاً سعيدًا، تذرف الدمع الآن: فأجاب الملك: أجل إني بعد أن أحصيتهم عدًا دار بخلدي إحساس الإشفاق والحسرة لتذكري كم حياة الإنسان كلها قصيرة. لعلمي أنه من بين هذا الجمع الحاشد لن يكون واحد حيًا بعد أن تمضي مائة من السنين".

وربما لم يكن هذا من التاريخ الدقيق في شيء ولكنه على كل حال شعر رائع عظيم. إذ الواقع أنه يحـ وي من الروعة ما تحويه ملحمة "الديناست [1] الدرامية " (The Dynasts).

ورافق الأسطول الفارسي هذا الحشد البري منتقلاً بحذاء الساحل من رأس إلى رأس. عل ى أن عاصـ فة هوجاء أنزلت بالأسطول أضرارًا عظيمة، فأغرقت أربعمائة سفينة بينها الكثير من حاملات القمـ ح. وسـ ار الهلينيون بادئ الأمر وقد توحدت صفوفهم لملاقاة الغزاة في وادي تمبي (Tempe) في الشمال قرب جبـ ل أوليمبوس، ولكنهم تراجعوا بعد ذلك مخترقين تساليا، واختاروا آخر الأمر أن ينتظروا الفرس المتقدمين عند مكان يدعى "ثرموبيلاي" (Thermopylae)، حيث كانت هناك في ذلك الوقت صخرة عظيمة يقع البحر إلى الشرق منها، وبينهما ممر ضيق لا يكاد يتسع لمركبة واحـ دة إلا بشـ ق الأنفـ س – وقـ د غيـ رت الألفـ ان والأربعمائة من السنين التي انصرمت معالم كل شيء في تلك البقعة. والميزة العظيمة التي كانت للإغريـ ق من هذا الموقع في ثرموبيلاي هي أنه كان يمنع أعداءهم من استخدام كل من سلاح الفرسـ ان والمركبـ ات. وكان الممر يضيق جبهة المعركة إلى حد يقلل من شأن عدم التكافؤ بين الفريقين في العدد. وهنـ اك الـ تحم الفرس بهم في معركة في أحد أيام صيف ٤٨٠ ق. م.



٧٠ – جنديان من الحرس الفارسي

[1] الديناست ملحمة شعرية درامية لتوماس هاردي. وتصف الحروب النابوليونية. (المترجم)

صد الإغريق هذا الجيش العظيم ثلاثة أيام، وأنزلوا بهم خسائر بليغة لقاء خسارة طفيفة نالتهم؛ ثم ظهرت في اليوم الثالث فصيلة من الفرس في مؤخرة الإغريق، بعد أن أرشدها فلاح إلى طريق فوق الجبل. وسرعان ما اشتد الجدل والخلاف بين الإغريق، فكان البعض يدعو إلى الانسحاب، والبعض يدعو إلى الثبات. وكان ليونيداس (Leonidas) قائد القوة جمعاء يرى وجوب الصمود، على أن يستبقى معه ثلاثمائة إسبرطي وفي الوقت نفسه يستطيع سائر الجيش الإغريقي أن يتقهقر إلى الممر الثاني الذي يمكن الدفاع عنه. ومع ذلك فإن الفرقة الثسبية (Thespian) وعددها سبعمائة رفضوا أن يتراجعوا مفضلين البقاء مع الإسبرطيين. وبقيت كذلك فرقة أخرى من أربعمائة محارب من طيبة. ولما كانت طيبة انحازت فيما بعد إلى الفرس. فإن هناك قصة تقول بأن الطيبيين أكرهوا على البقاء في هذا الموضع قسرًا ورغم إرادتهم، وهو أمر ليس له ما يرجحه من أسس عسكرية أو تاريخية. وقد ثبت هؤلاء الألف والأربعمائة وذبحوا عن بكرة أبيهم بعد قتال تجلت فيه البطولة والبسالة. واتفق أن تخلف رجلان من الإسبرطيين لإصابتهما بالرمد. فلما أن سمعا الخبر، كان أحدهما على حالة شديدة من المرض لا يستطيع معها حراكًا، وأمر ثانيهما عبده (helot) أن يقوده إلى مكان المعركة، وهناك أخذ يضرب ضرب العميان حتى قتل. وأخذ الإسبرطي الحي أرستوديموس (Aristodemus) مع الجيوش المتراجعة وأعيد إلى إسبرطة حيث لم تنزل به أية عقوبة على سلوكه، ولكنه عرف باسم المتقهقر (Treasas). وكان ذلك كافيًا لتمييزه عن سائر الإسبرطيين، وما لبث أن عمل على أن يقتل في معركة بلاتايا بعد ذلك بسنة، بعد أن أبدى ضروبًا عجيبة من شجاعة المستهين بالموت.. ظلت تلك الفئة القليلة قابضة على الممر يومًا كاملاً، يهاجمها من الأمام والخلف قوة الفرس بأجمعها. فاستطاعت أن تغطي تراجع الجيش الإغريقي الرئيسي، وأنزلت بالغزاة خسائر فادحة ورفعت مهابة المحاربين الإغريق على مهابة الميديين رفعًا يعلو بها عما فعله النصر في معركة ماراتون (Marathon).

وأخذت فرسان الفرس ومركباتهم تنساب انسيابًا بطيئًا خلال ممر ترموبيلاي الضيق، وتقدمت نحو أثينا بينما كانت تدور في البحر سلسلة من الالتحامات البحرية. وتراجع الأسطول الهليني أمام تقدم العمارة الفارسية، التي أصيبت بخسارة فادحة بسبب جهلها النسبي بالسواحل المعقدة الكثيرة التعاريج وبتقلبات الجو المحلي. على أن ضخامة العدد هي التي حملت الجيش الفارسي قُدُمًا نحو أثينا، والآن وقد ضاع ممر ثرموبيلاي، لم يبق هناك من خط دفاع أقرب من زبرزخ كورينثة، وكان معنى هذا هو التسليم في كل الأراضي الواقعة بين منطقتي ثرموبيلاي وكورينثة بما في ذلك مدينة أثينا، وهذا معناه أنه لم يبق أمام السكان إلا أن يختاروا بين أمرين لا ثالث لهما: فإما أن يفروا وإما أن يستسلموا للفرس. خضعت طيبة ومعها بوءوتيا بأجمعها (Boeotia)، وارغمت على الانضواء إلى الجيش الفارسي فيما عدا بلدة واحدة هي بلاتايا (Plataea) التي فر سكانها إلى أثينا. وجاء دور أثينا بعد ذلك، وبذل الفرس جهودًا عظيمة لإقناعها بالتسليم لهم. ولكن جميع السكان أصروا على التضحية بكل شيء والنزول إلى السفن. فحمل النساء وغير المحاربين إلى سالاميس (Salamis) والجزر المختلفة المجاورة. ولم يبق في المدينة غير عدد قليل من الناس ممن أقعدتهم السن عن الحركة أو ممن خالفوا الإجماع، فاحتلها الفرس وأحرقوها. فأما الأشياء المقدسة والتماثيل

التي أحرقت في هذه المرة فإنها دفنت فيما بعد في الأكروبول إذ تولى دفنها الأثينيون العائدون، وعثر عليها في عصرنا هذا وبها آثار الحريق ظاهرة. وأرسل إجزرسيس إلى سوسا رسولاً راكبًا يحمل البشرى ودعا أبناء بيزستراتوس (Peisistratus) الذين كانوا معه، أن يعودوا إلى تراثهم وأن يقدموا الضحايا من فوق الأكروبول جريًا على الطريقة الأثينية.

وفي نفس الوقت كان الأسطول الهليني الموحد انتقل إلى سالاميس وهناك انقسمت الآراء انقسامًا مريرًا بين أعضاء مجس الحرب. وكانت كورينثة، والدول التي وراء البرزخ تطلب أن يتراجع الأسطول إلى ذلك المركز، أي إلى كورينثة تاركًا مدن ميجارا (Megara) وآجينا لرحمة القدر. ولكن ثميستوكليس (Themistocles) أصر بكل قواه على القتال في مضيق سالاميس. وظلت الغالبية تميل إلى التقهقر، حتى جاءت الأخبار فجأة بأن خط التراجع قد قطع. فإن الفرس أبحروا حول سالاميس وقبضوا على ناصية البحر من الجهة الأخرى. وقد حمل هذه الأخبار أريستيديس العادل الذي أسلفنا عليك أمر نفيه من أثينا، وأبلت رجاحة عقله وفصاحته أحسن بلاء في معاونة ثميستوكليس على تشجع القواد المترددين. كان هذان الرجلان عدوين لدودين فيما سلف ولكنهما إزاء الخطر العام تناسيا شحناءهما في تسامح نادر في تلك الأيام. وخرجت السفن الإغريقية للقتال عند الفجر.

وكان الأسطول الآخر أكثر تخليطًا وأقل اتحادًا وانسجامًا من أسطولهم غير أنه كان يبلغ ثلاثة أضعاف أسطولهم تقريبًا. وكان الفينيقيون في أحد جناحيه، والإغريق الأيونيون من سكان آسيا والجزر في الجناح الآخر. فحارب بعض هؤلاء الأخيرين حرب العتاة على حين تذكر الآخرون أنهم هم كذلك من الإغريق. وكانت سفن الإغريق في الناحية الأخرى يديرها في غالب الأمر رجال من الأحرار يقاتلون من أجل أوطانهم. واحتدمت المعركة في ساعاتها الأولى احتدامًا اختلط فيه الحابل بالنابل. ثم اتضح لإجزرسيس وهو يراقب النضال أن أسطوله كان يحاول الفرار. وتحول الفرار إلى كارثة.

وكان إجزرسيس اتخذ مجلسًا في مكان يرقب منه المعركة، فرأى سفنه تدقها حيازيم السفن الأخرى الحادة؛ ورأى رجاله المحاربين يصرعون، ورأى الأعداء ينزلون في سفنه. وكانت طريقة حرب البحر الغالبة في تلك الأيام هي الصك والمصادمة. فكانت السفن الكبيرة تثقب السفن المعادية لها وتغرقها لتفوقها عليها في قوة الصدمة أو كانت تهشم مجاديفها وبذلك تقضي على مقدرتها على المداورة، وتتركها قعيدة مغلوبة على أمرها. ثم ما لبث إجزرسيس أن رأى بعض سفنه المكسورة تسلم للأعداء. وكان يستطيع أن يرى في الماء رءوس الإغريق وهم يسبحون إلى البر؛ "فأما رجاله البرابرة فقد هلك العدد الأكبر منهم في البحر لجهلهم السباحة". ثم بذل الصف الأول من الأسطول الفارسي وهو محصور مضيَّق عليه جهدًا تعوزه المهارة ليتزحزح عن مكانه قليلاً فأفضى ذلك إلى ارتباك لا سبيل إلى وصفه، فاصطكت بعضها بالسفن الفارسية الواقفة خلفها. وكانت هذه السفن القديمة أصنافًا ضعيفة هزيلة لا تصلح للبحر إذا قيست إلى أي صنف حديث من السفن. وكانت الريح الغربية تهب، وكان كثير من سفن إجزرسيس المهشمة تسوقها الرياح حتى تتوارى عن مجال بصره وتتحطم على أحد الشواطئ البعيدة. وذلك بينما الإغريق يسحبون بعضها الآخر إلى سالاميس على حين شرع البعض الآخر المصاب إصابة أقل وما زال كامل عدة القتال، ينسحب

نحو السواحل القريبة من الملك لكي يصبح في حماية الجيش. وهناك أخذت السفن تتقابل متناثرة على الجزء البعيد من البحر فيما وراء الرءوس، وهي بعيدة غير واضحة المعالم لائذة بالفرار – تطاردها السفن الإغريقية. وقد أخذت الكارثة تتجلى لناظري الملك – في بطء – إذ يظهر له منها حدث بعد حدث. وإننا لنستطيع أن نتصور الحال وقد أخذ الرسل يغدون ويروحون ويصدر الملك أوامر عاجلة لا غناء فيها ويغير الخطط طيلة نهاره. وكان إجزرسيس قد خرج في الصباح مزودًا بالمنصات لكي يلحظ من فوقها أحسن قواده بلاء في القتال فيكافئه على حسن بلائه، ولكنه رأى وذهب الأصيل يملأ السماء – قوة فارس البحرية تذهب بددًا بين غريقة ومحطمة، ورأى الأسطول الإغريقي سليمًا مظفرًا أمام سالاميس، وهو ينظم صفوفه، كأنما لا يزال غير مصدق بما أصاب من نصر.

ظل الجيش الفارسي عدة أيام على مقربة من مكان المعركة البحرية، كأنما لم يستقر على رأي، ثم أخذ يتراجع إلى تساليا، حيث أشار بعض الناس على الملك أن يقضي الشتاء ثم يواصل الحملة. بيد أن إجزرسيس شأنه شأن دارا الأول من قبله تملكه السأم والضيق من الحملات الأوربية، وخشي تدمير جسر الزوارق، فواصل المسير مع جزء من جيشه حتى الهسبونت (الدردنيل) تاركًا القوة الكبرى في تساليا تحت قيادة قائد اسمه ماردونيوس (Mardonius). ويروي لنا المؤرخ قصة تراجعه على النحو الآتي:

"إنهم أيان ساروا، وحيثما حلوا عند أي من الشعوب يأخذون حاصلات ذلك الشعب، ويستعملونها في مئونتهم، فإن لم يجدوا حاصلات، أخذوا الكلأ النابت في الأرض، وكم كانوا يسلبون الأشجار لحاءها، ويسقطون أوراقها ويلتهمونها، لا تمييز في ذلك عندهم بين الأشجار المزروعة والأشجار التي تنمو برية. وكانوا لا يتركون شيئًا من ورائهم، وقد فعلوا ذلك بسبب المجاعة. ثم فشا فيهم فضلاً عن ذلك الطاعون والدوسنتاريا التي أهلكتهم أثناء الطريق، والبعض منهم أيضًا – وكان مريضًا – تركه الملك من ورائه مكلفًا المدن التي قد يحدث أن يمر بها آنذاك أثناء مسيره بأن تعنى بهم وتعولهم، وترك بعض هؤلاء في تساليا، وبعضهم في سيريس (Siris) الواقعة في بايونيا (Paionia) وترك البعض في مقدونيا... وبعد أن اخترقوا تراقيا وصلوا إلى مضيق الهلسبونت فعبروه في سرعة إلى أبيدوس بالسفن، إذ إنهم لم يجدوا الجسر الطافي ممتدًا عبر البحر، لأن إحدى العواصف حطمته. وأقام الجند هناك حينًا وزعت عليهم فيه جراية من الطعام أكثر مما كانوا ينالون في الطريق. فمات كثير من رجال الجيش الذين ظلوا سالمين حتى ذلك الحين، نتيجة لإشباعهم نهمهم بغير حساب وكذلك من تغيير الماء، ووصل الباقون مع إجزرسيس إلى ساردس".

١٠- بلاتايا وميكال

ظل سائر الجيش الفارسي في تساليا تحت قيادة ماردونيوس، الذي استمر سنة بأكملها يق وم بـ الحملات العدوانية على الإغريق. ثم هزم آخر الأمر وقتل عام ٤٧٩ ق. م في معركة أعد لها الطرفان عـ دتهما فـ ي بلاتايا. وفي نفس ذلك اليوم أصيب أسطول الفرس وأحد جيوشهم البرية بكارثة مزدوجة تحت ظـ لال جبـ ل ميكالي على أرض آسيا الصغرى بين إفيسوس ((Ephesus) وميليتوس. ذلك بأن الفرس غلبهم الخوف على سفنهم من الإغريق فسحبوها إلى الشاطئ وبنوا من حولها جدارا. ولكن الإغريق نزلوا إلى البر واقتحموا تلك الحظيرة عنوة، ثم أقلعوا إلى الهلسبونت ليدمروا ما تبقى من جسر الزوارق حتى لقد اضطر من فر عقيـ ب ذلك من الفرس الهاربين من بلاتايا أن يعبروا بالسفن عند البوسفور مكابدين في ذلك أكبر مشقة.

ويقول هيرودوت إن المدن الأيونية في آسيا شجعتها تلك الكوارث التي أصـ ابت قـ وة الإمبراطوريـ ة، فظهرت فيها للمرة الثانية بوادر العصيان ضد الفرس.

وبهذا ينتهي الكتاب التاسع من تاريخ هيرودوت الذي كان مولده قرابة (٤٨٤ ق. م) فهو إبـ ان معركـ ة بلاتايا كان طفلاً يناهز الخامسة. والكثير من مادة تاريخه قد جمعه هو بنفسه واستقاه ممن حضروا بأنفسـ هم وشهدوا بأعينهم الأحداث العظيمة التي يقصها. واستمرت الحرب تجر أذيالها زماناً طويلاً. فـ إن الإغريـ ق ناصروا ثورة شبت ضد الحكم الفارسي في مصر، وحاولوا أن يستولوا على قبرص فلم يوفقوا. ولـ م تنتـ ه الحرب إلا حوالي سنة ٤٤٩ ق. م. ثم أصبحت سواحل آسيا الصغرى الإغريقية والمدن الإغريقية في البحر الأسود حرة بوجه عام، على أن قبرص ومصر استمرتا تحت الحكم الفارسي، فأما هيرودوت الذي ولد رعية فارسية في مدينة هاليكارناسوس الأيونية، فكان يبلغ عند ذاك الخامسة والثلاثين، ولا بد أنه انتهز أول فرصة بعد ذلك السلم بين بلاده وبين الفرس ليزور بابل وفارس. والراجح أنه ذهب إلى أثينا ومعه تاريخـ ه معـ دًا للإلقاء حوالي (٤٣٨ ق. م).

ولم تكن فكرة إيجاد اتحاد عظيم للإغريق هدفه مهاجمة فارس، فكرة غريبة كل الغرابة على هيـ رودوت. ويظن بعض قارئيه أنه كتب مؤلفه التاريخي لتقوية تلك الفكرة ورفع شأنها. ولا شك أن جو ذلك الزمان كان مشبعًا بعبير تلك الفكرة. وهو ينسب إلى أرستاجوراس، زوج ابنة هيستيائيوس أنه عرض على الإسـ برطيين "لوحة من البرونز حفرت عليها خريطة العالم أجمع بما فيه من بحار وأنهار" وهـ و يحكـ ي علـ ى لسـ ان أرستاجوراس قوله:

"إن هؤلاء البرابرة ليسوا شجعاناً في القتال، وأنتم من الناحية الأخرى، قد وصلتم إلى أقصـ ى درجـ ات المهارة في الحرب، وهم يحاربون بالقسي والسهام وبالحربة القصيرة، ويدخلون المعارك مرتدين السـ راويل وقد وضعوا الكمَّات (أي القلانس) على رءوسهم، وأنتم قد استكملتم عدة قتالكم وأسلحتكم ونظامكم، فهم قريبو الغلبة هيّنوها، وليس لدى كل شعوب العالم ما يملكونه من الذهب والفضة والبرونـ ز والأثـ واب المطـ رزة والحيوانات والعبيد فكل هذا ربما تختارونه لأنفسكم لو أنكم شئتم ذلك".



٧١ - خريطة

وانقضت مائة عام قبل أن تؤتي هذه الآراء ثمارها.

ثم قتل إجزرسيس في قصره حوالي (٤٦٥ ق. م)، ومن بعدها لم تقم فارس بأية محاولة أخرى للغزو في أوربا. وليس لدينا من العلم بما كان يجري في إمبراطورية الملك العظيم من أحداث قدر ما لدينا عن أحداث الدول الصغيرة ببلاد الإغريق الوسطى، فقد شرعت بلاد الإغريق فجأة في إنتاج الأدب. وخلدت نفسها ف ي سجل التاريخ على شاكلة لم يأتها من قبل أي شعب حتى ذلك الزمان. ويبدو أنه بعد (٤٧٩ ق. م) (أي ع ام معركة بلاتايا) أخذت روح النشاط تفارق حكومة الميديين والفرس، ثم دخلت إمبراطورية الملك العظيم بعدها في فترة شيخوخة وانحلال، ويمر عبر المسرح أرتجزرسيس ثم إجزرسيس ثان ثم دارا جديد. وتحدث الف تن في مصر وسوريا، ويثور الميديون، ويقتتل على الملك أرتجزرسيس آخر وقورش آخر وهما شقيقان. ويكاد هذا التاريخ أن يماثل تاريخ بابل وآشور ومصر في قديم الأيام، فهو صورة الأوتوقراطية، وقد عادت سيرتها الطبيعية الأولى من جرائم القصور والأبهة الملوثة بالدماء والفسوق والأرجاس الأخلاقية. على أن هذا الكفاح بين الشقيقين أنتج درة إغريقية يتيمة، لأن هذا الملك المسمى قورش الثاني جمع جيشًا من مرتزقة الإغري ق دخل به مملكة بابل. وهناك لقي مصرعه في ساعة نصره على أخيه أرتجزرسيس الثاني، وعند ذلك أص بح عشرة الآلاف إغريقي فوضى ولا سيد لهم يستخدمهم، فتراجعوا إلى ساحل البحر ثانية (٤٠١ ق. م) وقد خلد هذا التراجع كتاب من أوائل ما سطر في صفة الحرب وسير أبطالها هو كتاب الصعود [1] الذي ألف قائ دهم زينوفون".

وتوالت جرائم القتل والثورات وحوادث القمع والتأديب، وتعاقبت المحالفات الخبيثة والخيانات الوض يعة. ومن أسف أن الأيام لم تتح لنا مؤرخًا عظيمًا كهيرودوت يسجل أحداثها. ذلكم هو نسيج التاريخ الفارس ي!!! وجاءت حقبة من الزمن ازدهر فيها ازدهارًا معتمًا ضعيفًا حكم ملك آخر هو أرتجزرسيس الثال ث الملط خ بالدماء. "ويقال إن أرتجزرسيس الثالث قد قتله باجواس وولى على العرش مكانه أرسيس أصغر أبناء المل ك لكي يقتله بدوره عندما أظهر شيئًا من الاستقلال في التصرف.

---

(1) الصعود (Anabaals) – وهي كلمة يونانية معناها التوغل والزحف من شاطئ البحر إلى هضبة آسيا الصغرى، والكت اب يمتاز بأسلوبه السهل البسيط. (المترجم).

على هذا النهج تسير الأمور. فأما أثينا فإنها بعد أن أخذت بأسباب التقدم حيناً من الزمن كان عقيب صد الفرس، ألم بها الطاعون الذي مات فيه بريكليس أعظم حكامها (٤٢٩ ق. م). ولكن تنهض في غمرة هذه الفوضى حقيقة جديرة بالتنويه: فإن عشرة الآلاف الذين قادهم زينوفون كانوا يتناثرون آن ذاك بين ظهراني المدن الإغريقية، مكررين على الأسماع ما لمسوه بأنفسهم من صدق ما أعلنه أرستاجوراس من أن الإمبراطورية الفارسية إنما هي فوضى شاملة يخالطها الغنى والثراء، وأن أمر غزوها من السهولة بمكان على ذوي العزم من الرجال.

الفصل الحادي والعشرون

الفكر والأدب والفن عند الإغريق

١- أثينا في عصر بريكليس.

٢- سقراط.

٣- أفلاطون والأكاديمية.

٤- أرسطاطاليس والليسيوم.

٥- الفلسفة تصبح غير دنيوية.

٦- نوع الفكر الإغريقي وتحديداته.

٧- أول أدب خائل عظيم.

٨- الفن الإغريقي.

١ – أثينا في عصر بريكليس

إن تاريخ الإغريق في الأربعين سنة التالية لمعركتي بلاتايا وميكالي إنما هو قصة سلم وهدوء نسبيين. نعم نشبت الحروب، ولكنها لم تكن حروبًا ضروسًا. وتهيأت لفريق من الموسرين في أثينا الفرص وأسباب الفراغ إبان فترة قصيرة من الزمان. فكان لهذه الفرص وهذا الفراغ أبعد النتائج أثرًا وأطولها عمرًا بسـ ـبب تقاء ـل الحوادث وتجمعها بعضها مع بعض والمسلك الذي سلكته فئة قليلة من الناس.



٧٣ – بركليس

وكان لوصولهم إلى طريقة للكتابة تستطيع أن تنقل الأصوات وتحمل دقائق لغة الكلام، أثر جعـ ـل نشـ ـوء الأدب أمرًا ممكنا، فنتج الكثير من الأدب الجميل الرائع، وازدهرت فنون التشكيل، وثبتت دعائم العلم الحديث التي سبق أن وضعها من قبل فلاسفة المدن الإغريقية الأيونية الأول. ثم انقضت فترة امتدت خمسين عامًا أو تزيد، انفجرت على أثرها العداوة التي ظلت نيرانها تسري تحت الرماد بين أثينا وإسبرطة، فأصبحت حربًـ ـا عبوسًا موهنة للقوى، امتصت آخر الأمر كل حيوية هذه الحركة الإنشائية الخلاقة.

وتعرف هذه الحرب باسم حرب البيلوبونيز، وقد استمرت قرابة ثلاثين عامًا. واستنفدت كل قـ ـوى بـ ـلاد الإغريق. وقد سطع نجم أثينا في بادئ الأمر ثم تألق حظ إسبرطة. ثم قامت طيبة – وهي مدينة تقل المسافة بينها وبين أثينا عن خمسين ميلاً – تنافس إسبرطة وتبزها. وعادت أثينا مرة ثانية إلـ ـى الطليعـ ـة بوصـ ـفها رئيسة لاتحاد عقدته بين المدن. تلك قصة منافسات ليس لها من سبب معقول يبررهـ ـا، وكاد ـت حريـ ـة أن يتناساها الناس منذ أمد طويل، لولا أن الإغريق دونوها وصوروها في أدب رفيع.

وتبدو فارس طوال هذا الزمان ثم تختفي ثم تعود فتبدو من جديد حليفة لهذه العصبة أو لتلك. ثم يداخل بـ ـلاد الإغريق عند قرابة منتصف القرن الرابع ق. م شعور بوجود مؤثر جديد في شئونها، وهو فيليب ملك مقدونيا. فإن مقدونيا تنهض بالفعل في خلفية [1] بلاد الإغريق التي أعيا انقسامها من يداويه – نهضة الميديين والفـ ـرس من قبل خلف الإمبراطورية الكلدانية. ثم يأتي زمان يولي فيه العقل الإغريقي ظهره لمنازعاتـ ـه (إن حـ ـق لنـ ـا استعمال هذا التعبير)، ويحدق ببصره شاخصًا إلى ذلك المقدوني وقد شمله منه فزع عام.

([1]) الخلفية (Back – ground) كلمة وضعها المجمع اللغوي لتدل على ما يظهر في مؤخرة أية صورة. (المترجم)

لا شك أن المنازعات الارتجالية الإجرامية تظل كذلك مهما قيل من أن ثوسيديدس [1] قام بق ص القصة بحذافيرها على أسماعنا، ولن يزيدها إلا إمعاناً في الإجرام والارتجال – أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من تحطيم بدايات عظيمة لحضارات جديدة بسبب ما تمخضت عنه من شامل الفوضى. ولسنا بمستطيعين في هذه المعالم العامة أن نفسح المجال لتفاصيل هذه المنازعات الداخلية وهذه الحروب والهزائم التي كثيرًا ما أطاحت إلى عنان السماء بواحدة من المدن الإغريقية أولاً ثم بأخرى ثانيًا وهي تتأجج نارًا وتتسعر لهيبًا. ولو تأملنا بلاد الإغريق لما وجدناها تعادل بالقياس إلى كرة أرضية مصغرة قطرها قدمان [2] إلا ذرة صغيرة لا تكاد العين تميزها لدقتها. كما أن كتابًا موجزًا في تاريخ الإنسانية لا بد أن يخفت فيه ضجيج هذا القرن المليء بالانقسامات الذي يمتد بين أيام سالاميس وبلاتايا وبين ظهور الملك فيليب، فيصبح وسوسة خفيضة لا تكاد تسمع لها نأمة، أو يُصبح مجرد هينمة عابرة على صفحة الفرصة السانحة التي مرت سريعًا بالشعوب والرجال على السواء.

على أن الشيء الذي لا تتناقص أهميته لأنه امتزج بثقافة الأمم اللاحقة كلها، ولأنه جزء من دعامتنا العقلية لا يمكن فصله عنها – ذلك الشيء هو الأدب الذي أنتجته بلاد الإغريق في أثناء فترات قصيرة من السلام ولمحات بارقة من الهدوء والطمأنينة التي أتاحتها تلك الأيام.

يقول الأستاذ جلبرت موراي:

"الواقع أن تاريخهم السياسي الخارجي كتاريخ كل الشعوب الأخرى مليء بالحروب والدبلوماسية وبالقساوة والخداع. وإنما العظيم حقاً هو التاريخ الداخلي، تاريخ الفكر والشعور والخلُق. كانت أمامهم بعض صعاب يناضلونها، وهي صعاب لا تكاد اليوم تعرض لنا. ولم تكن لديهم في الواقع أية خبرة ولا مرانة، بل كانوا يجربون كل شيء لأول مرة. وكانوا في غاية الضعف في مواردهم المادية، وكان ما يعتلج في نفوسهم من عواطف ورغبات ومخاوف وغضبات أشد جموحًا فيما يرجح مما لدينا. ومع ذلك فإنهم أنتجوا أثينا بريكليس وأفلاطون".

---

(1) ثوسيديدس سياسي وزعيم أثيني معارض لبريكليس؛ أعظم مؤرخي الإغريق كافة؛ ألف كتاب تاريخ حرب البيلبونيز. وهو سفر يمتاز بالدقة والتمحيص؛ كاتبه شاهد عيان مستقل محايد غير متحيز؛ وجيز النسج بارع السبك؛ يتصف أسلوبه بالتدفق والبساطة، رائع الخطاب. ولد ٤٦٠ ق.م. تقريبًا، وأصبح قائدًا بحريًا في حرب البيلبونيز ونفي ٢٠ عامًا وعاد وقتل ٣٩٥ ق.م. (المترجم).

(2) يشير الكاتب بهذا إلى الصورة التي تصورها للكون في الجزء الأول من المعالم ص ١٧. (المترجم)

إن هذه الذرا العجيبة التي تسنمتها قوى العقل الإغريقي الخلاقة التي ظلت زمانًا طويلاً تتجمع والتي ظلت عشرين وثلاثة من القرون نبراسًا منيرًا من الماضي لذوي الألباب من الرجال يرشدهم ويبث فيهم الإلهام، قد ثارت حُميّاها بعد معركتي ماراتون وسالاميس، وجعلت من أثينا بلدًا حرًا لا يخشى شيئًا، وهيأت لها السيادة والسلطان في عالمها وإن لم يتح لها تفوقها العسكري والمادي ما يبرر تلك العظمة. كان ذلك عمل فئة قليلة جدًا من الرجال تعد على الأصابع. فإن بضع نفر من مواطنيها قضوا معظم جيلهم في ظروف كانت ولا تزال في جميع العصور تبعث الرجال على أن ينتجوا من الأعمال كل ما هو جميل وخير. كانوا في أمنة وكانوا أحرارًا، وكانت بهم كبرياء وما كانوا يعرفون ذلك الإغراء الذي يصاحب كل ذي سلطان ظاهر غير منازع، والذي يحملنا جميعًا على إيقاع الأذى بإخواننا. ولما أن ضاق صدر الحياة السياسية مرة ثانية فهوت إلى دركات الفساد والضياع التي يقتل فيها الأخ أخاه – كما تجلى ذلك في الحرب مع إسبرطة – كان هناك لهيب متقد للنشاط الذهني بلغ من قوته واتساع رحابه وحسن تغذيته أن استمر على كل المحن العاصفة في تلك الحرب، وإن جاوز حياة الإسكندر الأكبر الوجيزة الأمد، فدام بذلك فترة من الزمان مجموعها الكلي يربو على مائة سنة منذ بداية الحروب.

وإذ كان أهل أثينا قد ملأهم النصر حمية، وتشبعت نفوسهم بشعور الحرية التي ظفروا بها عن جدارة فإنهم لبثوا يرقون مراقي النبل والعزة ردحًا من الزمان. وعندما كانوا تحت قيادة الديماجوج [1] العظيم بريكليس كبير موظفي الجمعية العمومية الأثينية، وهو رجل دولة وسياسي خطير، يكاد يقارب جلادستون أو لنكولن في التاريخ العصري – هفت أنفسهم للقيام بواجب إعادة بناء مدينتهم وتوسيع تجارتهم. وانقضت فترة من الزمان تهيأ لهم أثناءها أن يتبعوا في سماحة زعيمًا كريم النفس مسماحًا. وحباهم القدر بذلك الزعيم في شخص بريكليس. وكان يجمع بشكل نادر المثال بين المقدرة السياسية والإحساسات الحية نحو كل ما هو عميق ورفيع رائع، وظل قابضًا على ناصية الحكم ما يربو على الثلاثين عامًا. وقد أوتي قوة خارقة وحرية فكر تفوق ما ألفه الناس. فطبع زمانه بطابع تلك الصفات. وقد نوه وينكلر بأن وجه بريكليس وطابعه، ظلا حيناً من الدهر مطبوعين على الديمقراطية الأثينية. وكان بريكليس يعتمد على صداقة ربما كانت نبيلة سامية، عقدت أواصرها بينه وبين أسبازيا. وهي امرأة من ميليتوس عالية الروح ممتازة التربية، وكان لا يستطيع الزواج منها بسبب القانون الذي يقصر حق المواطنية الأثينية على المولودين في أرضها، ولكنها كانت في الواقع زوجة له. لعبت أسبازيا دورًا عظيمًا في أن تجمع من حوله رجالاً لهم مواهب غير عادية. فكان يعرفها كل عظماء الكتاب في زمانها. وأثنى الكثير منهم على حكمتها. حقًا إن بلوتارك يتهمها بإضرام حرب خطيرة مروعة ضد ساموس وإن انتهت بالنصر ولكن الأمر كما بينه هو نفسه فيما بعد، كان أمرًا تحتمه العداوة البحرية التي أظهرها أهل ساموس والتي كانت تهدد تجارة أثينا فيما وراء البحار، وكان يتوقف عليها كل رخاء الجمهورية ورفاهيتها. وأطماع الرجال عرضة على الدوام أن تعكس صورة المعايير التي عليها

[1] الديماجوج ومعناها زعيم الأحرار وهي مشتقة من ديموس Demos بمعنى الشعب وأجوجوس Agogos بمعنى قائد ومرشد. وكانت في البداية تدل على الزعيم المسيطر على الجماهير ثم حرفت فيما بعد فغدت تعبر عن زعيم الفوضى والتهريج. (المترجم)

قرناؤهم وخلطاؤهم. فقد كان بريكليس قانعًا على كل حال، بأن يخدم أثينا زعيمًا عن أن يتسلط عليها طاغية. وبإرشاده وتدبيره عقدت المحالفات وتأسست مستعمرات جديدة ومحطات تجارية من إيطاليا إلى البحر الأسود. ونقلت كنوز الحلف من ديلوس إلى أثينا. ولما كان بريكليس واثقًا من منعته وعصمته من خطر فارس، فإنه أنفق مدخرات الحلفاء لحرب فارس في تجميل مدينته. ولم يكن هذا تصرفًا قويمًا إذا قيس بمعايير عصرنا هذا. على أنه لم يكن تصرفًا وضيعًا أو قائمًا على الطمع، فإن أثينا تحملت بمفردها ما كان على حلف ديلوس من أعباء، أفليس العامل جديرًا بنيل أجره؟ فاستيلاؤه على هذا المال هيأ له فرصًا استثنائية لاستخدام مهندسي العمارة والفنانين. وما كان البارثينون (Parthenon) الأثيني الذي لا تزال على خرائبه مسحة الروعة والجمال. إلا الإكليل الذي توج مجد أثينا التي أعاد بناءها بريكليس. وإن أمثال تلك النحائت والتماثيل التي تركها فيدياس (Phidias) ومايرون (Myron) وبوليكليتوس (Polyclitus) والتي لا تزال موجودة، لتشهد بعظمة الفن في ذلك الزمن.

وعلى القارئ أن يتذكر تلك الملاحظة المشرقة التي أوضح بها وينكلر أن أثينا هذه المنبعثة بعثًا جديدًا ظلت حينًا من الدهر تحمل طابع وجه بريكليس. فإن عبقرية هذا الرجل الفذة والجو الزاكي المحيط به هما اللذان أطلقا نبوغ من حوله من الرجال من عقاله، واجتذب إلى أثينا رجالاً ذوي عقليات جبارة. وقد تلثمت أثينا بوجهه فترة من الزمان، كما يرتدي المرء أحد الأقنعة، ثم داخلها الضجر وأرادت التخلص منه. وما كانت نفس الأثيني العادي تنطوي على مثقال ذرة من العظمة والسماحة. ولقد عرضنا عليك من قبل نموذجًا لروح الأثيني الحر أثناء الاستفتاء في نفس أريستيديس نفيًا سياسيًا. ويصرح لويد في كتابه "عصر بريكليس" بأن الأثينيين لم يكونوا يطيقون سماع اسم ملتيادس مقرونًا بمعركة ماراتون. وسرعان ما دفع الاعتزاز الشديد بالكرامة عامة الناخبين إلى الثورة على تلك المباني الأنيقة التي ترتفع أمام أنظارهم إلى عنان السماء، وعلى ما كان يلقاه أمثال فيدياس من المثالين من حظوة وتكريم يفوقان ما يناله نظراؤهم في الصنعة المحبوبون من الشعب، وعلى المنح التي كانت تعطى لأجنبي محض مثل هيرودوت الهاليكارناسي، وعلى خدش بريكليس لكرامتهم بإيثاره لصحبة امرأة ميليطية وتفضيله حديثها. وكانت حياة بريكليس العامة منظمة تنظيمًا ملحوظًا أدى برجل الشارع أن يظن في حياته الخاصة الفساد الشديد والرشوة. على أن الدلائل كلها تنبئ أن بريكليس كان ممتازًا مترفعًا في سلوكه، وقد أظهر في بعض الأوقات احتقاره للمواطنين الذين كانوا يسهر على رعاية مصالحهم.

"ولم يوهب بركيليس فقط سموًا في العاطفة ورفعة وتنزيهًا لأسلوبه يرفعه تمامًا عن تعبير السوقة الوضيع، بل كان كذلك وقورًا عبوسًا لا يلين، ولا يجنح إلى ضحك أو تبسم، كما كانت نبرات صوته ثابتة متزنة، وسلوكه هينًا سهلاً، وكان ذوقه في الثياب سليمًا فلم يؤثر عنه قط أنه تخلى عن حسن هندامه لحدة في الحديث، فهذه الأشياء وغيرها مما يماثلها في طبيعتها، قد استثارت إعجاب كل من رآه، وعلى هذه الشاكلة كان خلقه وسلوكه عندما ظل أحد الأوغاد يلاحقه يومًا كاملاً بألوان التقريع والسباب. فتحمل الأذى بالصمت والصبر، واستمر يرسل الرسل أمام الملأ في بعض الشئون الماسة، ثم سار في المساء إلى منزله في هدوء يتبعه ذلك التعس الوقح، وهو يهينه أثناء الطريق بأقذع لغات السباب. ولما كان الظلام قد خيم عندما وصل

إلى باب داره، فإنه أمر أحد خدمه بأن يأخذ مشعلاً يضيء به للرجل الطريق حتى يعود إلى منزله. ومع ذلك يقول الشاعر أيون (Ion)، إنه كان متكبرًا ومترفعًا في حديثه، ويخالط وقاره وعزة نفسه قدر عظيم من الغرور والاحتقار لمن سواه، فكان لا يبدو في الشوارع إلا ساعة ذهابه إلى الفوروم (سوق المدينة [1]) أو دار الشيوخ [2]. وكان يرفض دعوات أصدقائه، ويمتنع عن كل حفلات السمر والنزهات الاجتماعية إلى حد أنه إبان توليته السلطة – وهو أمد طويل – لم يذهب قط ليتعشى مع أي صديق من أصدقائه إلا مرة واحدة، وذلك يوم زواج ابن أخيه يوريبطليموس (Euryptolemus) ولم يلبث هناك إلا ريثما انتهى طقس صب النبيذ المقدس، وكان ممن يعتقدون أن حرية السمر تزيل كل جاه الوظيفة ووقارها، وأن الكرامة لا تستقيم مع رفع الكلفة...".

ولم يكن هناك حتى ذلك الحين أية صحافة وضيعة تظهر العالم على دنايا الخاصة المبرزين والعلية الموفقين وخستهم. على أن الرجل العامي كان لما يدخله من الغرور والاعتداد بالنفس، يجد قدرًا كبيرًا من السلوى في فن الملهاة (الكوميديا) التي ازدهرت أيما ازدهار. وأشبع كتاب الكوميديا تلهف العامة الشديد الذي يكاد يشملهم جميعًا على الحط من قدر أولئك الذين تجرح عظمتهم الظاهرة حب الناس لأنفسهم. لذا لم يكفوا البتة عن رمي بريكليس وأصدقائه بكل نقيصة دنسة. وحدث ذات يوم أن صور أحد المثالين بريكليس وعلى رأسه خوذة، فأصبحت إشارة إليه ورمزًا تهكميًا عليه، ولعله ألم بطرف من تلك القصة. وأثارت قصة الخوذة مرحًا ومزاحًا لا نهاية له عندما اقترح بعضهم الاستعاضة عن الرأس ببصلة مشوهة تشويهًا مخيفاً. وكانت "حركات أسبازيا وسكناتها" بالطبع كرمة مثمرة تنهشها تخرصات رجل الشارع.

ولطالما تمنت النفوس الحالمة حين تضيق ذرعًا بوضاعة زماننا هذا وانحطاطه لو نقلت إلى عصر بريكليس الرفيع. على أنهم لو قذفوا إلى أثينا المشتهاة تلك، لوجدوا أنفسهم في نفس الجو الوضيع الذي تتمرغ فيه الحياة في أدنى أنواع صالات الموسيقى العصرية، والذي يتجلى في الصحف الشعبية تجليًا كبيرًا، ولوجدوا أفحش لفحات السباب والقذف العلني الصاخب اللاذع، ولهبَّت عليهم نفس التهم الدنسة والوطنية الشرهة والوضاعة العامة، ولظلت النغمة العصرية تتقفى آثارهم. حتى إذا اضمحلت ذكريات بلاتاتا وسالاميس، وألفت عيون الناظرين المباني الجديدة، أخذ بريكليس وفخامة أثينا يثيران ثائرة الجمهور وتفكهه الوضيع شيئًا فشيئاً. أجل لم يحدث قط أنه نفي من أثينا نفيًا سياسيًا، لأن مكانته لدى المواطنين الأكثر اتزاناً وقته غائلة ذلك. بيد أنه لبث عرضة لهجمات تتزايد على الأيام جرأة وإصرارًا. وقد عاش ومات رجلاً فقيرًا. ولعله أطهر وأنزه ديماجوج بين زعماء العامة. على أن هذا لم ينقذه من تهمة اختلاس الأموال فقدم من أجلها إلى محاكمة شوهاء عقيمة. فلما فشل أعداؤه في ذلك لجئوا إلى وسيلة أكثر ضلالة والتواء، فأخذوا يقصدون عنه أصدقاءه.

([1]) الفوروم (Forum) هو سوق المدينة عند الرومان، أما عند اليونان فيسمى ذلك السوق باسم الأجورا (Agora). المترجم.

([2]) هو مجلس المشورة (Bonlê) عند اليونان ويقابله تقريبًا السناتو عند الرومان. (المترجم).

والتعصب الديني والتهم الأخلاقية إنما هي الأسلحة الطبيعية لمن أكل الحسد قلوبهم غيظً ا م ن زعم اء الرجال. فنفى صديقه دامون نفيًا سياسيًا من المجتمع الأثيني. وهوجم فيدياس بتهمة عدم التقوى. فإن فيدياس اجترأ أن يضع على درع التمثال العظيم للربة أثينا صورًا له ولبريكليس أضافها إلى صورة تمثل المتحاربين في قتال بين الإغريق والأمازون. وكانت عاقبة ذلك أن مات فيدياس في السجن. وهذا أناكس اجوراس ذل ك الأجنبي الذي رحب بريكليس بمقدمه إلى أثينا – يوم كان فيها عدد وفير من نزهاء الرجال فأقام فيه ا وه و على أتم الاستعداد لإشباع كل ما يخالج محبي الاستطلاع من رغبات كريمة – كان يقول أعجب الأشياء عن الشمس والنجوم ويلمح تلميحًا لإخفاء فيه أنه لا وجود للآلهة، وإنما توجد في العالم روح تبعث الحي اة ه ي نوس [1]. عند ذلك تبين كتاب الكوميديا على حين فجأة أن لهم مشاعر دينية عميقة، يمكن أن تتزعج انزعاجًا شديدًا، بل تتزعج بشكل خطر!!، ومن ثم فر أناكساجوراس مما كان يحاك من تدبير لمحاكمته. ثم ج اء دور أسبازيا وتجلى في أثينا التصميم على طردها من المدينة. وكان بريكليس موزعًا بين المرأة التي يهواها فؤاده وبين المدينة الناكرة للجميل والتي أنقذها ودافع عنها وجعلها أجمل شكلاً وأخلد ذكرًا من أية مدينة أخرى في التاريخ. فوقف يدافع عن أسبازيا حتى غلبته عاصفة من العواصف الإنسانية الحقة. فانهلّت الدموع من عينيه وهو يتكلم، وأنقذت عبراته أسبازيا إلى حين.

وقنع الأثينيون بما لحق بريكليس من إذلال، بيد أنه كان قد أسدى إليهم من الخدمات ما طال ب ه الأم د حتى لم يعد في إمكانهم الاستغناء عنه. إذ مضى عليه وهو في مقام زعامتهم ثلث قرن.

وفي (٤٣١ ق. م) نشبت الحرب ضد إسبرطة. ويتهم بلوتارك بريكليس بأنه عمل على إش عالها، إذ إن ه شعر أن حب الجمهور له قد ذوى بسرعة فأشبّ الحرب ليتمسك به الناس. قال:

"ولما كان هو نفسه قد أصبح لديهم بغيضًا بسبب ما كان من فيدياس وكان يخشى أن يستدعي ليستجوب – فإنه عجل بالحرب وكانت حتى ذلك الوقت أمرًا غير محقق. فنفخ بذلك في اللهيب الساكن تحت الرماد، وكان يأمل أن يزيل عن نفسه بهذه الوسيلة التهم التي كانت تهدده، وأن يخفف من ثورة الحاقدين عليه، ذلك أنه بلغ من مهابته وسلطانه، أنه كلّما اعترى الجمهورية خطب عظيم، أو تعرضت لخطر فادح كانت تودع كل ثقتها فيه دون سواه".

على أن الحرب كانت حربًا بطيئة مخطرة حتى عيل صبر الشعب الأثيني. ونهض رجل طم وح ي دعى كليون (Cleon) يريد أن ينحي بريكليس عن زعامته. وقامت في المدينة ضجة تدعو إل ى إنه اء الح رب عاجلاً. وبذل كليون جهدًا لينسب إلى نفسه أنه صاحب الفضل في كسب الحرب". وأخذ الشعراء المحبب ون إلى الشعب يلعبون على هذه النغمة وينشدون:

---

(1) نوس (nous)، هي كلمة يونانية معناها العقل أو المواهب. (المترجم).



٧٣ – تمثال الربة أثينا فى البارثنون

"وأنت يا ملك الساتير [١]... لماذا تفاخر بشجاعتك؟

ومع ذلك فأنت ترجف فرقًا لدى سماعك صليل السيوف المشحوذة، أعن غلٍّ ذلك منك على كليون المتوقد؟".

وفشلت إحدى الحملات تحت قيادة بريكليس، فانتهز كليون الفرصة وطالب بمحاكمته وأوقف بـ ريكليس ع ن مباشرة عمله في القيادة وحكم عليه بالغرامة. وتقول القصة بعد ذلك بأن أكبر أبنائه – ولم يكن هذا ابن أسـ بازيا، بل من زوجة سابقة – تنكر له وأخذ يكيل له اتهامات دنيئة لا يصدقها العقل. ثم قضى الطاعون على هذا الفتى، ثم ماتت شقيقة بريكليس ثم آخر أبنائه الشرعيين، وبينما هو يضع – على عادة ذلك الزمان – أكاليل الجنازة على جثمان ذلك الغلام أعول بالبكاء وسرعان ما انتقلت العدوى إليه هو نفسه فمات (٤٢٩ ق. م.).

---

(١) الساتير (Satyr): طبقة من الكائنات الـ طازية (الميثولوجية) الإغريقية، التي ترتبط بعبادة الإله ديونيسوس وتمثـ ل هـ ذه الطبقة قوى الطبيعة الحيوية الوافرة. وتبدو الساتير بشعر خشن وأنف مستدير وأذن مدببة كآذان الحيوان وقرنين صغيرين وذنب وساقين كساقي الماعز. وهي تمثل دائمًا وبيدها الكأس (إيماء إلى حبها للنبيذ والملذات الحسية) أو راقصـ ـة رقصًـ ا تهتكيًا أو ممسكة بإحدى الآلات الموسيقية، وكان الناس يخشون شرها. (المترجم).

والحقائق البارزة في هذه الخلاصة الوجيزة تساعدنا على تبيان مبلغ تنافر بريكليس وعدم انسجامه مع الشيء الكثير من حياة مدينته. على أن النهضة الذهنية والفنية التي غمرت أثينا كانت تساعدها ولا شك الظروف السائدة في ذلك الزمان. وهي لم تكن حركة عامة ولكنها ترجع كذلك في بعض نواحيها إلى ظهور بعض الشخصيات الفذة ممن أتيحت لهم فرص استثنائية وأوتوا مواهب فريدة.

٢- سقـراط

ومن الشخصيات القيادية الأخرى البارزة في أثينا في هذه النهضة الأثينية رجل اسـ مه سـ قراط، وهـ و شخص أشد من بريكليس عدم انسجام مع حياة عصره كما أنه يعدله في كونه مصـ درًا اشـ تهر بالأصـ الة والابتكار، وكان عاملاً منبهًا له أثره في عظمة عصره الخالدة. وهو ابن أحد البنائين، ولد بعـ د هيـ رودوت بنحو ستة عشر عامًا، وكان صيته آخذًا في الذيوع قرب الوقت الذي مات فيه بريكليس. وهو نفسه لم يكتـ ب شيئًا. على أن عادته جرت أن يتكلم في الأماكن العامة. وكان يدور في تلك الأيام بحث عظيم عـ ن الحكمـ ة وكان بالبلاد جمهور مخلّط من المعلمين يسمى السفسطائيين، كانوا يفكرون في الصـ دق والجمـ ال والحيـ اة الصائبة، ويلقنون العلم عقول الشباب المستطلعة وأخيلتهم النامية. وكان هؤلاء يضطلعون بذلك العمل حيث لم تكن بالبلاد مدارس عظيمة الشأن يقوم عليها الكهنة. وإلى حلبة هذه المناقشات دخل هذا الرجل بسماجته وقبح منظره وتثاقله وحفاء قدميه فالتف من حوله حلقة من المعجبين والتلاميذ.

وكانت طريقته طريقة التشكك العميق. وكان يرى أن الفضيلة الوحيدة الممكنة إنما هي المعرفة الحقة. فهو لا يسمح بأي معتقد. ولا يجيز أي أمل لا يستطيع أن يصمد للامتحان النهائي المرير. وكان معنى ذلك فـ ي نظره هو الفضيلة، على أن ذلك كان معناه في عين الكثيرين من أتباعه الضعاف النفوس ضياع المعتقـ دات والعادات الأخلاقية التي كانت تحد من نزعاتهم ودوافعهم الجامحة. وقد أصبح هؤلاء الضعاف النفوس أنذالاً يتلمسون لأخطائهم المعاذير وينغمسون في الملذات. وكان من بين خلطائه الشبان أفلاطون، الذي خلـ د بعـ د ذلك طريقة أستاذه في سلسلة من المحاورات الفلسفية وأسس المدرسة الفلسفية "الأكاديمية"، التـ ي اسـ تدامت تسعمائة سنة. وكان أحدهم زينوفون قائد العشرة آلاف الذي دبج وصفًا لموته سقراط. ومـ ن بيـ نهم كـ ذلك إيزوقراط (Isocrates) وهو من أحصف المفكرين السياسيين عند الإغريق وأرجحهم عقلاً. ولكن كان منهم كذلك كريتياس (Critias) الذي أصبح عندما هزمت إسبرطة أثينا هزيمة نهائيـ ة – زعيمًـ ا علـ ى الطغـ اة الثلاثين الذين عينهم الإسبرطيون ليمرّغوا المدينة المقهورة في حمأة الحضيض الأدنى من المذلة وليـ دمروا نظامها التعليمي. ومنهم خارميديس (Charmides) الذي قتل إلى جانب كريتياس عندما خُلع الثلاثون وغلبوا على أمرهم، وألسيبياديس، وهو خائن عريق في الخيانة وقاد الذهن خبيث الطوية قام بدور كبير في دفع أثينا إلى القيام بالحملة على سيراقوزة، تلك الحملة الخاسرة التي انتهت بتحطيم قواها، فخانها عند ذلك وانضم إلى الإسبرطيين. ثم اغتيل آخر الأمر وهو في طريقه إلى البلاط الفارسي حيث كان يبغي أن يدبر الشـ ر لـ بلاد الإغريق. ولم يكن هؤلاء التلاميذ الأخيرون هم الشبان الوحيدين الذين لاح عليهم مـ ن الـ دلائل مـ ا يبشـ ر بمستقبل حسن، والذين قضى سقراط على عقيدتهم السوقية ووطنيتهم وترك مكانها شاغرًا في نفوسهم. وكان ألد خصومة أنيتوس وهو شخص أصبح ابنه وهو تلميذ مخلص لسقراط، سكيرًا مدمنًا لا يرجـ ى صـ لاحه، فسعى أنيتوس جاهدًا حتى قدم سقراط آخر الأمر إلى المحاكمة بتهمة إفساد شباب أثينا، وقضى عليه بالإعدام بشرب جرعة سامة مستخرجة من نبات الشوكران (٣٩٩ ق. م).



وفي محاورة أفلاطون المسماة باسم فيدون (Phaedo) وصف لوفاته بالغ درجة عالية من الروعة والجمال.

٣- أفلاطون والأكاديمية

ولد أفلاطون في (٤٢٧ ق. م) وعَمَّر ثمانين عامًا.

وكان يخالف سقراط تمامًا من حيث المزاج الفكري. فقد كان كاتبًا أشد الكتاب رقة وجمال ذوق، على حين لم يكن سقراط ليستطيع أن يكتب شيئًا متصل الحلقات. وكان يعنى بالجميل من الأشياء على حين كان سقراط يزدري الجمال.. وكان يعنى عناية فائقة بتنظيم الشئون العامة، وبتدبير الخطط لإقامة علاقات جديدة بين الناس تفضل ما في العالم، على حين كان سقراط يركز ذهنه وهو ساكن النفس في إماطة حجب الخداع والأوهام عن العقول غير آبه بحر أو قر ولا برأي من يحيط به من الناس. كان سقراط يقول بأن الحياة خداع، وأن الروح وحدها هي التي تعيش. وكان أفلاطون شديد التعلق بهذا المعلم الهرم الجاف الطبع. وقد وجد طريقته ذات قيمة قصوى في تنقية الآراء وتخليصها من التعقيد، فجعله الشخص الذي تدور عليه محاوراته الخالدة. على أن أفكاره ونزعاته الخاصة نأت به كثيرًا عن الاتجاهات المتشككة التي عليها سقراط. ومن ثم يكون الصوت والاسم لسقراط ولكن الفكر هو فكر أفلاطون.

كان أفلاطون يعيش في زمان شك وتساؤل يدوران حول كل ما بين الناس من علاقات. والظاهر أن الناس في أثينا في أيام بريكليس العظيمة قبل (٤٥٠ ق. م) كان يخامرهم شعور الرضا التام عن النظم الاجتماعية والسياسية ولم يكن يبدو أي سبب للتشكك حين ذاك. إذ كان الرجال يشعرون بأنهم أحرار. وكان المجتمع في رخاء. وكان الحسد أهم ما يشكو منه الناس. ولا يكاد تاريخ هيرودوت ينم عن شيء من عدم الرضا عن النظم السياسية الأثينية.



٧٥ – أفلاطون

ولكن أفلاطون الذي ولد قرابة الزمان الذي مات فيه هيرودوت، والذي ترعرع في جو عسير تكاثرت فيه المحن ما بين حرب طاحنة وملمات اجتماعية شديدة وارتباكات عظيمة، واجه منذ نعومة أظفاره ما بين الإنسانية من تنافر وما بين النظم الإنسانية من عدم تجانس. وكان أن استجاب عقله لذلك التحدي. ومن ثم نجد في أول مؤلفاته وآخرها مناقشات جريئة نفاذة تستهدف إدخال التحسين على العلاقات الاجتماعية. وكان سقراط علّمه ألا يقبل شيئًا مسلمًا به، حتى ولا العلاقات المشتركة: علاقات الزوج والزوجة والوالد والولد. وكتابه "الجمهورية" وهو أول الكتب التي تبحث في اليوتوبيا [1] إنما هو بحث في المدينة التي يحلم بها خيال الشباب، وفيها تنظم الحياة الإنسانية على أساس خطة جديدة تفضل ما سلفها. ومؤلفه الأخير الذي لم يتمه وعنوانه "القوانين"، هو مناقشة تستهدف وضع قواعد يوتوبية أخرى شبيهة بتلك. وإن هناك لقدرًا كبيرًا من آراء أفلاطون لا نستطيع هنا أن نلقي إليه حتى مجرد نظرة عابرة، غير أنه – لا جرم – يمثل ركنًا من الأركان الأساسية في تاريخنا هذا، ذلك أن ظهور فكرة في عادة تشكيل ظروف مجتمعنا البشري وصياغتها صياغة كاملة تتجلى فيها الإرادة والقصد، كان شيئًا جديدًا في تطور الإنسانية. فكان البشر حتى ذلك الحين يعيشون بالتقاليد المتوارثة في خشية من الآلهة. وها نحن الآن حيال رجل يقول للناس في جرأة، وكأنما قوله هذا أمر طبيعي معقول: "تناولوا حياتكم بالبحث فإنكم تستطيعون أن تجتنبوا معظم تلك الأشياء التي تؤلمكم وإنكم لتستطيعون أن تلقوا عن كواهلكم نير معظم الأشياء التي تتسلط عليكم، بل وإنكم لتستطيعون أن تفعلوا بها ما تشاءون".

وهناك شيء آخر ربما كان له – بالإضافة إلى منازعات ذلك العصر – الفضل في استثارة عقل أفلاطون في ذلك الاتجاه. فإن أثينا كانت أسست في أيام بريكليس مستقرات كثيرة وراء البحار؛ وكانت إقامة هذه المستقرات مما قرب إلى أذهان الناس كافة الفكرة القائلة بأنه لا حاجة بالمجتمع إلى النمو، بل إن في الإمكان خلقه وصنعه بأيدنا.

وكان بين خلطاء أفلاطون المقربين فتى أحدث منه سنًا. أدار فيما بعد مدرسة في أثينا؛ وعاش عمرًا يكاد يربي على عمره. هذا الفتى هو إيزوقراطيس (إيزوقراط). وفي استطاعتنا أن نعد إيزوقراطيس هذا صحفيًا وأن نعتبره كاتبًا أكثر منه خطيبًا. وقد اختص بمناصرة فكرة هيرودوت التي تنادي بتوحيد بلاد الإغريق ضد الإمبراطورية الفارسية واتخاذ ذلك علاجًا لما تفشى في شئونها السياسية من اتضاع وفوضى، ولما منيت به من الخسارة من جراء الحروب الطاحنة. وكان أفقه السياسي أرحب من بعض النواحي من أفق أفلاطون. وكان يتطلع في سنيه الأخيرة إلى الملكية، وعلى الأخص ملكية فيليب المقدوني، بوصفها وسيلة لحكومة أكثر توحيدًا للشعب أو أكثر اتساعًا من ديمقراطيات المدن. وكذلك اتجهت نفس زينوفون صاحب كتاب "الصعود" إلى التفكير في الملكية. وكتب زينوفون وقد علت به السن قصة "الكيروبيديا Cyropeadia " [2] وهو دفاع وتزكية نظرية وعملية تدعمها البراهين للملكية المطلقة التي تتجلى في تنظيم الإمبراطورية الفارسية".

([1]) اليوتوبيا (utopia) أو الطوبى: كتاب يدعو إلى المدينة المثالية الفاضلة. (المترجم).

([2]) "الكيروبيديا" كتاب من تصنيف زينوفون كتبه على شكل قصة سياسية اعتمد فيها على تاريخ ملك الفرس قورش. (المترجم).

٤– أرسطاطاليس والليسيوم

كان أفلاطون يعلم الناس في الأكاديمية وقد وفد عليه وهو في سن عالية فتى وسيم الطلعة قدم من استاجيرا في مقدونيا، هو أرسطاطاليس (أرسطو) ابن طبيب ملك مقدونيا، وهو رجل له عقلية صيغت من معدن مختلف جدًا عن عقلية ذلك الأثيني العظيم أفلاطون. وكان بطبعه ذا شكوك في الإرادة التخيلية. وكان يكن عظيم الاحترام والفهم للحقائق الثابتة. وقد أنشأ بعد وفاة أفلاطون مدرسة في الليسيوم [1] بأثينا، وأخذ يعلم الناس منتقدًا أفلاطون وسقراط في شيء من العنف. وبينما هو يلقي تعاليمه كان شبح الإسكندر الأكبر يلقي ظلاله مخيما على حرية بلاد الإغريق. وكان يحبذ وجود الرق ونظام الملوك الدستوريين. ذلك أنه اشتغل حيناً من الدهر قبل ذلك مربيًا للإسكندر في بلاط فيليب المقدوني.

وكان الجزع قد استولى على النابهين من الرجال في تلك الأيام، إذ إن إيمانهم بقدرة الناس على صوغ ظروفهم الخاصة في الحياة أخذ يتناقص ويفتر. فلم تعد تظهر بين ظهرانيهم أية يوتوبيا. وتبين لهم بجلاء أن اندفاع الحوادث وتتابعها كان من القوة بحيث لا تستطيع أن تصده تلك الجهود المنظمة التي كان في الوسع أن ينفقها حينذاك ذوو الذكاء الممتاز من الرجال. فقد كان من المستطاع التفكير في إعادة صوغ الجماعة البشرية حين كانت الجماعة البشرية مدينة صغيرة تضم بضع آلاف من المواطنين. على أن ما كان يحدث من حولهم من أحداث كان طوفاناً عظيمًا لا سبيل إلى دفعه، هدفه صوغ شئون العالم المعروف كله في قالب سياسي ومعها شئون جمهور من الناس لا بد أن عدده بلغ حتى في تلك الأيام حدًا يتراوح بين الخمسين والمائة مليون. وكانت عملية إعادة الصوغ هذه على مقياس لم يكن أي عقل إنساني مهيئًا بعد لإدراكه. فكانت من ثم تدفع الفكر أدراجه إلى فكرة "القضاء والقدر الهائل المحتوم. وصار الناس يحاولون التشبث بكل ما يخالونه عامل ترابط واستقرار. فقد كانت الملكية مثلاً رغم ما يشوبها من رذائل ظاهرة – نظامًا للحكم في وسع الملايين قبوله عقلاً. وكثيرًا ما وضعت من قبل موضع التنفيذ والاختبار إلى مدى معين. كانت تفرض إرادة حاكمة، حيث تتجلى استحالة وجود الإرادة الحشدية (الجماعية). فهذا التغيير الذي لحق مزاج الناس الفكري عامة، كان يتسق مع احترام أرسطو الطبيعي للحقائق القائمة. فلئن جعله من ناحية يستصوب الملكية والرق وإخضاع النساء بوصفها كلها نظمًا معقولة، فإنه جعله من الناحية الأخرى تواقاً إلى فهم الحقيقة والحصول على طرف من المعرفة المنظمة عن هذه الحقائق، حقائق الطبيعة والفطرة البشرية التي كانت آنذاك في حالة انتصار بيّن على ما ساور الجيل من أحلام خلاقة.

(1) أو اللوقيون: كما وردت في الموسوعة العربية الميسرة. (المترجم)



٧٦ - أرسطاليس

وأرسطو سليم العقل ناصع الذهن واضح إلى حد رهيب. وتعوزه الحماسة المضحية بالنفس إعوازا رهيبًا. فهو يناقش أفلاطون منكرًا عليه دأبه على استبعاد الشعراء من مدينته الفاضلة اليوتوبيا، ذلك أن الشعر ق وة. وهو يوجه كل قوته في اتجاه يضاد على خط مستقيم تحقير سقراط لشخص أناكساجوراس. وكأني به توقعً ا يمهد السبيل لباكون (Bicon) والحركة العلمية العصرية ويبشر بهما في إدراكه لأهمية المعرف ة المنظم ة. ذلك أنه نصب نفسه للقيام بواجب جمع المعرفة وتدوينها، فكان أول عالم بالتاريخ الطبيعي. أجل إن رج الاً آخرين من قبله طالما أمعنوا النظر في طبيعة الأشياء. على أنه هو وكل شاب استطاع ضـ مه إليـ ه أخـ ذوا أنفسهم بتصنيف الأشياء ومقارنتها.

أجل إن أفلاطون يقول "فلنتناول الحياة ولنصغها في قالب جديد". أما خليفته هذا الأثيث جنانًا فيقول "علينا قبل كل شيء أن نزيد في معرفتنا بالحياة وعلينا في الوقت نفسه أن نخدم الملك وننتفع به". ولم يكن في ذلك القول مناقضة منه لأستاذه قدر ما كان تحديدًا شديدًا لآرائه.

تمكن أرسطو بفضل العلاقة الخاصة بينه وبين الإسكندر الأكبر من الحصول على موارد مالية لعمله لم تتهيأ بعد ذلك لباحث علمي مدى عصور طويلة. إذ كان تحت تصرفه مئات من التالنتات الذهبية (والتالنت يقارب في القيمة ٢٤٠ جنيهًا) – يستطيع أن ينفقها في أغراضه الخاصة. وجاء زمان كان تحت تصرفه ألف رجل متناثرين في أرجاء آسيا وبلاد الإغريق يجمعون المواد لتاريخه الطبيعي. وبدهي أنهم كانوا مشاهدين تعوزهم الدربة تمامًا، بل كانوا جامعي أقاصيص أكثر منهم مشاهدين، ولكن أحدًا لم يحاول قبله على مدى الدهر شيئًا من هذا القبيل، بل لم يفكر فيه قبل زمانه أحد قط، على قدر ما وصل إليه علمنا. وابتدأ علم السياسة كما ابتدأ علم التاريخ الطبيعي. فإن طلاب الليسيوم قاموا تحت إشرافه بتحليل مائة وثمانين وخمسين دستورًا سياسيًا.

وكان هذا أول بارقة للبحث العلمي المنظم في العالم. ولكن تلك الهبات ذات النطاق الضخم قضت عليها لمدة ألفين من السنين وفاة الإسكندر المبكرة وتقسيم إمبراطوريته وهي بعد في المهد. ولم يتواصل البحث العلمي إلا في مصر بمتحف الإسكندرية [1]، ولم يستمر هذا إلا بضع أجيال قليلة وسنحدثك عن ذلك من فورنا. ولم تمض على وفاة أرسطو خمسون سنة حتى تضاءلت الليسيوم وأصبحت غير ذات شأن.

---

[1] ذلك المتحف هو الأكاديمية المشهورة. (المترجم)

٥- الفلسفة تصبح غير دنيوية

لم يكن الاتجاه العام للحركة الفكرية في السنين التي ختم بها القرن الرابع ق. م يساير أرسطو، ولا كان يهدف إلى التجميع الضروري المتواصل للمعرفة المنظمة. وربما لم يتهيأ لأرسطو أن يكون لنفسه غير شخصية ضئيلة في التاريخ الفكري لولا تلك الهبات التي كان يتلقاها من الملك. فإنه استطاع بفضلها أن يبرز ذكاءه الباهر في صورة مادية ويجعل له أثرًا محسوسًا. فالرجل العادي يفضل الطرق السهلة ما دام في استطاعته سلوكها، وهو لا يكاد يأبه متعمدًا بما تنتهي به تلك الطرق آخر الأمر حتى ولو أدت به إلى طريق مغلق. ولما أن وجد عامة معلمي الفلسفة أن تيار الحوادث أقوى من أن يستطيعوا ضبطه على الفور، انصرفوا في تلك الأيام عن إعداد خطط المدن النموذجية وتخطيط المناهج الجديدة للحياة، وتحوّلوا إلى إتقان أساليب التهرب الجميلة التي تبعث العزاء والسلوى إلى النفوس.

وربما كان في هذا القول ضرب من وضع الأشياء في صورة خشنة فيها شيء من التجني. والأولى أن نترك المجال للأستاذ جلبرت موراي ليحدثنا عن هذا الموضوع.

"لم يكن الكلبيون يعنون إلا بالفضيلة وعلاقة الروح بالرب. وكان العالم وعلومه، ومراتب الشرف فيه في نظرهم خبثًا. وكان الرواقيون والأبيقوريون، وإن تباعدت الشقة بينهما لأول نظرة، متشابهين جد التشابه في غايتهم القصوى، وكان ما يعنيان به حقًا هو علم الأخلاق. وكان سؤالهما العملي: كيف يجب أن ينظم الإنسان حياته؟ وكلاهما، لا جرم، قد انصرف إلى بعض العلوم – فاتجه الأبيقوريون إلى الفوزيقي أو علم الطبيعة، واتجه الرواقيون إلى المنطق وعلم البيان والبلاغة – ولكن بوصفها وسيلة توصل إلى غاية. وحاول الرواقيون أن يفوزوا بقلوب الناس واقتناعهم بمحض اللباقة في الجدل المجرد والتسامي البراق المتألق بالفكرة والعبارة. ووطد الأبيقوريون العزم على أن يتركوا الإنسانية تشق طريقها دون الزلفى لآلهة متقلبة الأهواء ودون التضحية بالإرادة الحرة. ويلخص أبيقور إنجيله في مبادئ أربعة: " لا يجوز الخوف من الله. لا يمكن الشعور بالموت. يمكن الفوز بالخير. يمكن احتمال كل ما نخشاه والتغلب عليه".

وفي نفس الوقت كان تيار الحوادث ينساب في مجراه مبادلاً الفلسفة عدم اهتمام بعدم اهتمام.

٦- نوع الفكر الإغريقي وتحديداته

إذا أريد للدراسات الإغريقية القديمة أن تقرأ في العصر الحديث قراءة مجدية، وجب أن تقرأ بوصفها من تصنيف رجال يماثلوننا. وينبغي لنا أن نضع موضع الاعتبار تقاليدهم والفرص التي هيئت لهم والقيود التي حدّت من جهودهم. ذلك أن الفطرة الإنسانية تنزع دومًا إلى المبالغة في كل شعور بالإعجاب. ومعظم النصوص القديمة لدينا مهرّأة مشوهة إلى حد كبير، وكلها في الأصل من عمل مخلوقات إنسانية اكتنفتها المصاعب وكانت تعيش في زمان يحوطها فيه من ظلمات الأفق وضيق حدوده ما يجعل زماننا بالقياس إليه زمنًا وضاء يكاد سنا ضيائه يخطف الأبصار. فكل ما سنفقده من احترامنا لهم فيما ستشهد وشيكًا من معالجة خالية من الكلفة، سنعوضه بالعطف على تلك المجموعة من العقول المضطربة القلقة العصرية الروح. ذلك أن الكتاب الأثينيين كانوا – لا جرم – أول الرجال العصريين. فكانوا يتناقشون في مسائل لا نزال نتناقش فيها، وهم الذين شرعوا يجاهدون في معالجة المشاكل الكبرى التي تواجهنا اليوم، وما كتاباتهم إلا مطلع فجر نهارنا.

ويجيد يونج (Jung) في كتابه "علم نفس اللاشعور Psychology of the Unconscious خير إجادة، حين يتكلم عن الفروق بين الفكر القديم (قبل الأثيني) والفكر الحديث. وهو يسمي الأول باسم "التفكير غير الموجه" ويسمى الثاني باسم "التفكير الموجه" وكان الأول تفكيرًا بالأخيلة شبيهًا بالأحلام، بينما الآخر تفكير بالكلمات. وما العلم إلا تنظيم للتفكير الموجه. فأما الروح العتيقة (أعني قبل المفكرين الإغريق) فقد خلّفت الأساطير والرطازات (الميثولوجيا) لا العلم. وكان عالم الإنسان القديم عالم خيالات ذاتية (subjective) يشبه عالم الأطفال والشبان غير المتعلمين في أيامنا هذه، كما يشبه عالم المتوحشين ودنيا الأحلام. وأفكار الطفولة وأحلامها إنما هي ترديد لصدى طرق التفكير عند المتوحشين في عصر ما قبل التاريخ. ثم يقول يونج: "إن الرطازات هي كتلة الأحلام المتجمعة عند الشعوب، وإن الأحلام هي رطازات الأفراد. ولقد وجهنا نظر القارئ من قبل إلى التشابه بين آلهة الحضارة الأولى وبين أوهام الأطفال وخيالاتهم الغريبة. وغني عن البيان أن التفكير الشديد المنظم بواسطة الكلمات والجمل المحللة تحليل عناية، ذلك التفكير الذي بدأه المفكرون الإغريق، واستأنف العمل فيه الفلاسفة الذين اشتغلوا بالدرس والتحصيل في القرون الوسطى – كان تمهيدًا ضروريًا لتطور العلم الحديث".

بدأ الفلاسفة الإغريق البحث بيد أنهم لم يصلوا إلى أية حلول. ولسنا بمستطيعين أن ندعي اليوم أننا وصلنا إلى حلول لمعظم المسائل التي أثاروها. فإن عقل العبرانيين كما أوضحنا آنفًا، تنبه فجأة إلى التعاسات والاضطرابات اللانهائية التي تنغمس فيها الحياة، ورأى أن تلك التعاسات والاضطرابات كانت في معظم أمرها نتيجة للأعمال غير المشروعة التي يأتيها البشر، فاستنتجوا أن الخلاص لا يمكن أن يجيء عن غير طريق إخضاعنا أنفسنا لخدمة الرب الأحد الذي يحكم السماوات والأرض. فأما الإغريق فإنه وقد ارتفع إلى نفس المستوى الفكري ووصل إلى نفس ذلك الإدراك – لم يكن مزودًا بنفس فكرة الألوهية الأبوية، لأنه كان يعيش في عالم لم يكن فيه إله واحد بل كانت فيه آلهة. فإن حدث أن أحس أن الآلهة أنفسهم كانوا محدودين، فإنه فكر عند ذلك في القضاء والقدر يقف من ورائهم جامدًا لا يميز بين شخص وآخر. ومن ثم فإنه وضع مشكلته في صورة بحث عن ماهية العيش الصائب، دون أي ارتباط محدود بين الرجل الذي يعيش عيشة صائبة وبين إرادة الإله.

وعندي وأنا أنظر إلى الأمر من زاوية تاريخية بحتة، أن في الإمكان عرض هذه المشكلة العامة على صورة مزدوجة – خدمة للأغراض التاريخية – تكون شاملة للطريقتين اللتين صاغها فيهما كل من العبرانيين والإغريق على السواء. فلقد رأينا جنسنا البشري ينهض من حالة عدم الوعي التي عليها الحيوانات إلى حالة مستمرة من شعور بشرى بالإحساس بالذات، ويدرك التعاسة التي تعود على البشرية بسبب تعدد أغراضها الأهوج، ويعرف ما لا بد من حدوثه من مأساة انصراف الفرد إلى الجري وراء نفسه ومصالحه، وهو يتحسس طريقه في عماية نحو فكرة ما يرتبط بها الناس ولها يخضعون: فكرة يأمل أن تنقذه من الآلام والحوادث المترتبة على الفردية المحضة. فمن هذه الفكرات التي ادعت لنفسها الحق في ولاء الناس لها وظفرت به إلى حين فكرة الآلهة والملك الرب وفكرة القبيلة وفكرة دولة المدينة، وهي فكرات فقدوا من جرائها أنانيتهم الفردية شيئًا ما، ولكنهم أفلتوا بفضلها وفروا إلى إدراك حياة أكثر استدامة واستقرارًا. ومع ذلك فكما تشهد حروبنا وكوارثنا بأجلى بيان، ما من واحدة من تلك الفكرات العظيمة بلغت حتى اليوم حد العظم الذي يكفل للناس الوقاية. فإن الآلهة فشلت في حمايتها لهم، وأثبتت القبيلة على نفسها الدناءة والقساوة، ونفت دولة المدينة خير أبنائها وأخلص أصدقائها نفيًا سياسيًا، وجعل الملك الرب من نفسه وحشًا.

ونحن إذ نقرأ الأدب [1] التأملي (أعني الفلسفة) في هذا العصر العظيم للإغريق، نلمس ثلاثة حواجز أقيمت من حول العقل الإغريقي، ولم يكد ينجو منها إلا في النادر، وإن كنا الآن فيما يحتمل موشكين على الخلاص منها.

فأول هذه القيود هو تشبع العقل الإغريقي بفكرة أن المدينة هي الغاية القصوى للدولة. ففي عالم تعاقبت فيه إمبراطورية إثر إمبراطورية، وكانت الواحدة منها أعظم من سابقتها، وفي عالم كان الناس والفكرات يزدادون تحررًا وتفكك عرى وحرية سراح يومًا بعد يوم، وفي عالم نزعة التوحيد فيه ظاهرة للعيان حتى في ذلك الزمان السحيق، كان الإغريق بسبب ما يكتنفهم من ظروف جغرافية وسياسية خاصة لا يزالون يحلمون بذلك الحلم المستحيل الذي يأمل في وجود "دولة مدينة" متماسكة لا تتطرق إليها المؤثرات الخارجية، وهي آمنة في شجاعة من العالم أجمع. وتقدير أفلاطون لعدد المواطنين الأحرار في الدولة المثلى قد تراوح بين ألف في كتابه "الجمهورية" وبين ٥٠٤٠ في كتاب "القوانين". ويقول أرسطو في كتابه "السياسة": "إنه من أجل إقامة العدل إقامة صحيحة ومن أجل توزيع السلطة، يجب أن يتعرف كل مواطن أخلاق أخيه، بحيث إنه إذا تعذر تنفيذ هذا في مكان ما، نجم عنه الشيء الكثير من الضرر والشر في ناحيتي مباشرة السلطات وتوزيع العدالة. فليس من العدل أن نفصل في الأمور بطريقة تعسفية، وهو الوضع الذي لا مفر منه في حالة وجود العدد الوفير من السكان". فهذا النوع من الدولة المحصورة النطاق التي فصلنا معالمها على هذه الشاكلة كان عليها أن تخوض الحرب وأن تحافظ على كيانها من غائلة المدائن الأخرى التي في مثل حجمها. وكان هذا كله ولما يمض غير جيلين اثنين على اجتياز جموع إجزرسيس معبرة الهلسبونت.

([1]) لفظة الأدب هنا مستعملة بمعناها العام الذي يعبر عما ظهر في اللغة من مؤلفات بوجه عام. (المترجم)

وكأني بهؤلاء الإغريق وقد زعموا أن أيام الإمبراطوريات العالمية ولت إلى الأبد. على حين لم تكن تلك الإمبراطوريات بعد إلا في مرحلة الابتداء وأقصى ما وصلت إليه أذهانهم هو المحالف ات والأحـ لاف. ولا مراء أن بلاط إجزرسيس كان به رجال يتجاوز تفكيرهم إلى أبعد حد دائرة هذه الأفكار الصغيرة المحصورة في نطاق الخور الصخري أو الجزيرة المنعزلة أو الوادي المحوط بالحبال. على أن الحاجة إلى الاتحاد ضد القوى العظمى التي كانت تتحرك خارج نطاق العالم الناطق بالإغريقية، قد تجاهلها العقل الإغريقـ ي عمـ دًا. فإن هؤلاء الأجانب كانوا في نظرهم برابرة وهمجًا، لا يجوز التفكير فيهم تفكيرًا أليس إليه ضرورة. وها قد حال الآن بينهم وبين بلاد الإغريق حاجز أبدي لا يزول. فكان الواحد منهم يقبل النقود الفارسية، بـ ل كـ ان الجميع يقبلون تناول تلك النقود الفارسية. فأي ضير في ذلك؟ أو ينضوي ردحًا مـ ن الزمـ ان تحـ ت لـ واء جيوشهم (كما فعل زينوفون) مؤملاً أن يسعده الحظ باصطياد أسير غني. وتدخلت أثينا في الشئون المصـ رية فناصرت مصر، وأشبَّت نار حروب قليلة الأهمية ضد فارس. ولكن لم تكن هناك فكرة تدعو إلـ ى سياسـ ة موحدة، أو تهدف إلى مستقبل مشترك لبلاد الإغريق...

حتى أخذ صوت يصيح في أثينا آخر الأمر قائلاً: "مقدونيا!" وأن يُجلب إجلاب الكلاب صائحًا: "مقدونيا!". وكان هذا صوت الخطيب والديماجوج ديموسثنيس. وهو يقذف بالتحذيرات والتهديدات، وينهال بالتهم علـ ى فيليب ملك مقدونيا الذي تعلم سياسته لا من أفلاطون وأرسطو فحسب، بل من إيزوقراط وزينوفـ ون كـ ذلك، ومن بابل وسوسا، والذي كان يعد أهبته في هدوء ومقدرة وثبات للسيطرة على كل بلاد الإغريق، وليستطيع بوساطة الإغريق أن يغزو العالم المعروف.

وثمة أمر آخر شل العقل الإغريقي وهو نظام الرق المنزلي، إذ كان الاسترقاق أمرًا مسلمًا به متغلغلاً في الحياة الإغريقية.

فلم يكن الناس يستطيعون أن يتصوروا الراحة أو الكرامة والمهابة من غير وجود الرقيق. على أن الـ رق يحول دون عطف الإنسان، لا عن طبقة من إخوانه في الوطن فحسب، بل يضع مالك الرقيق في طبقة وهيئة مضادة لكل غريب، وذلك لشعور الفرد بأنه من قبيلة مختارة. ولو أن أفلاطون استجاب لما يدفعه إليه ذهنـ ه الصافي وسلامة روحه النبيلة من تجاوز أوضاع حاضره، لألغى الرق. وكان الشيء الكثير من شعور الرأي العام وألوان الكوميديا الجديدة معاديًا للرق. وكان الرواقيون والأبيقوريون، وجلهم من العبدان يتهمون الـ رق بأنه نظام غير طبيعي. على أنهم لما أن وجدوه من القوة بحيث لا يستطيعون القضاء عليه، قالوا إنه لا يؤثر في الروح وأن في الإمكان تجاهله وأن العاقل لا يفرق بين من هو مقيد ومن هو حر. فأما أرسطو الـ واقعي ومعظم الرجال العمليين فيما يرجح، فكانوا يرون أن إلغاءه أمر لا يمكن تصوره. ولذا صرحوا بأن من الناس من هو "عبد بالفطرة".

وأخيرًا كان يعوق الفكر الإغريقي افتقاره إلى المعرفة افتقارًا لا نكاد نتصوره اليوم. إذ لـ م يكـ ن لـ دى الإغريق أية معرفة البتة بماضي البشرية. وهم قوم كان كل ما لديهم في أحسن الأحوال بضع تخمينات تـ نم عن فكر صائب. ولم تكن معرفتهم بالجغرافيا تتعدى دائرة حوض البحر المتوسط وحدود فارس. ونحن ندري اليوم ما كان يجري في سوسا وبرسيبوليس وبابل وممفيس أيام بريكليس أكثر بكثير مما كان يعرفه الإغريقي نفسه. وكانت آراؤهم الفلكية لا تزال في حالة تأملات وتخمينات بدائية. ولقد كان أناكساجوراس عظيم الجرأة حين زعم أن الشمس والقمر كرتان هائلتان، يبلغ من ضخامتهما أن الشمس كانت فيما يرجح "قدر البيلوبونيز [1] بأجمعها حجمًا". وكانت آراؤهم في الفوزيقي والكيمياء نتيجة للتأمل العميق. ومن عجب أنه كانـ ت لهـ م بالفعل تخمينات عن التركيب الذرّي.

ولا بد للإنسان أن يتذكر إعوازهم الشديد في الأجهزة التجريبية. وقد لونوا الزجاج للزينة، ولكنـ ه لـ يس بالزجاج الصافي. وليس لديهم وسيلة دقيقة لقياس فترات الزمن الصغرى، ولا أي ترقيم عددي يتسم بالكفايـ ة الحقة، ولا أي مقاييس شديدة الضبط، ولا أي مبادئ أولية للتلسكوب أو الميكروسكوب فلو دفع عالم عصري إلى أثينا في زمن بريكليس لوجد أقصى الصعوبة في شرح عناصر علمه مهما عمد إلى التبسـ يط للرجـ ال الذين كان يلتقي بهم هناك، فعندئذ يضطره الحال إذن أن يعد أبسط الأجهزة في ظروف غير ملائمة تمامًـ ا. على حين يتصدى سقراط لتبيان مبلغ سخافة البحث عن "الحقيقة" بقطع من الخشب والخيط والمعـ دن أمثـ ال تلك التي يستعملها الصغار في صيد السمك. والفيلسوف يترفع عن الصانع ترفعًا أبعد يده من أن تصل إلـ ى أي جهاز. وما كان أي سيد إغريقي ليقبل أن يدقق في الزجاج أو المعدن. ولم يكـ ن بـ د لأسـ تاذ العلـ وم العصري المذكور من التعرض للمحاكمة بتهمة الزندقة والإلحاد. فلم تكن ديمقراطيـ ة أثينـ ا لتتسـ امح مـ ع "دارون" إلا بالقدر الضئيل الذي تسامحت به معه ديمقراطيـ ة مقاطعـ ة تنسـ ي (Tennessee) بالولايـ ات المتحدة).

وينتهل عالمنا اليوم من أكداس هائلة نسبيًا من المعرفة بالحقائق. فأما في أيام بركيليس فإن الحجـ ر الأول من صرحنا العلمي الهائل نسبيًا – ذلك الصرح المشيد من مواد مدونة ومثبتة بالبرهان – لم يكد يوضع فـ ي مكانه بعد. فإذا تأملنا هذا الفارق، لم يعد عجيبًا لدينا أن الإغريق مع كل ميلهم للتأمل السياسي كـ انوا صـ مًا وعميانًا عن تقلقل مدنيتهم وعدم أمنتها من الخارج والداخل، وعن ضرورة الاتحاد بطريقة فعالة وعن اندفاع الحوادث السريع الذي كان مقدرًا له أن يأتي على هذه الحريات الأولى التي نعم بها العقـ ل الإنسـ اني فتـ رة قصيرة الأمد ويحرمه منها عصورا طويلة.

([1]) البيلوبونيز: هي شبه الجزيرة اليونانية المكونة من عدة أشباه جزائر تتخللها الخلجان والمسماة في التاريخ الحديث باسم شبه جزيرة المورة، وتنسب إليها تلك الحرب الطاحنة التي نشبت ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م. بين إسبرطة وأثينا. (المترجم).

وليست قيمة هذه الجماعة من متحدثي الإغريق وكتّابهم في النتائج الت ي حصد لوا عليه ا، ولك ن ف ي المحاولات التي قاموا بها. وليس فضلهم في أنهم أجابوا عن الأسئلة، بل في أنهم اجترءوا على توجيهه ا. إذ لم يحدث قط من قبل، أن تحدى الإنسان عالمه وأسلوب معيشته التي أوجده فيها مولده. ولم يحدث من قبل أنه قال إنه يستطيع أن يغير الظروف المحيطة به، لأن التقاليد والضرورة كما تبدو له – ربطت ه بالحي اة كم ا وجدها مشتدة العود متمركزة في قبيلته منذ أزمان سحيقة القدم. ولقد كان حتى ذلك الحين يتقبل العالم، كما لا يزال الأطفال يتقبلون المنازل والعادات التي يُنشّئون عليها.

هكذا تتبين لنا بغاية الوضوح إبان القرنين الخامس والرابع ق. م بأرض اليهودية (Judea) وأثين ا – وإن لم يقتصر الأمر على هذين المركزين بأي حال – بدايات لعملية خلقية وفكرية عند الجنس البش ري قوامه ا مناشدة الناس البر والصلاح، ومناشدتهم الصدق والحق، والإقلاع عن الشهوات والارتباكات وعن المظ اهر المباشرة للوجود. وكأني بذلك عملية بزوغ فجر الشعور بالمسئولية في صدر أحد الشبان حين يكتشف فج أة أن الحياة لا هي باليسيرة ولا هي بالخالية من الهدف. فالجنس البشري في تقدم مستمر، وظلت خيوط بقي ة التاريخ على مر عشرين وثلاثة من القرون تنتسج سدى ولحمة بانتشار تلك الفكرات الأساس ية المس يطرة ووضعها في القالب الأوضح بياناً والأشد تأثيرًا. أخذ الناس على مهل يفهمون شيئاً فش يئًا حقيق ة الأخ وة الإنسانية، وأن لا داعي للحرب والقساوات والتعسف، ويفهمون ما يكمن وراء الهدف المشترك من إمكانيات بالنسبة لكل جنسنا البشري. وإنك لتشهد في كل جيل جاء بعد ذلك ما يدل على وجود رجال ينش دون ذل ك النظام الأفضل الذي يشعرون أنه لا بد لعالمنا من الوصول إليه.

على أنك لو تأملت الناس في كل مكان وحيثما تملكت الأفكار البنّاءة العظيمة زمام أي إنس ان، لش هدت المطامع الحادة والحسد والريبة والشبهات والجزع التي تتضح بها طبيعة كل فرد منا – في نضال وكفاح ضد ما يجيش في صدورنا من السعي إلى تحقيق غايات وأهداف أكبر وأوسع م دى. وك أن الق رون الثلاث ة والعشرين الأخيرة من التاريخ مجهود فرد مخلد متعجل يروم استباق الحوادث، ويريد أن يفكر تفكيرًا صافيًا ويعيش عيشاً صالحًا ويعقب الزلل الزلل، وتنتهي البدايات المبشرة بالخير بخيبات أمل ش وهاء ت دعو إل ى السخرية، بينما ينابيع ماء الحياة يسممها الكوب الذي يحملها إلى شفاه الجنس البشري المتلهفة عطشاً. بيد أن أمل الرجال لا يلبث أن ينتعش ثانية آخر الأمر إثر كل كارثة ملمة...

٧- أول أدب خائل عظيم

سبق أن أشرنا في هذه "المعالم " إلى أن تطور الأدب كان لابد له من انتظار تطور طريقة للكتابة تبلغ من المرونة حدًا يؤهلها لنقل اتجاهات التعبير ومراميه وجمال الأصوات. وما كان الأدب المكتوب ليستطيع قبل هذا الزمان أن ينقل غير المعاني. فإن الشعوب الآرية الأولى، كان لها كما أسلفنا، أدب شعري موزون محفوظ في الصدور قبل أن تعرف الكتابة. فكانت لهم أغنيات المنشدين والشعراء المتجولين وأقاصيصهم وتواريخهم ونواميسهم الأخلاقية تحفظها طبقة اجتماعية خاصة، هي الشعراء. ولم تصبح هذه المقتنيات المتواترة ثابتة حتى دونت في أثبات [1] ويبدو أن الملحمتين الإغريقيتين الرئيسيتين وهما "الإلياذة والأوديسيا" دونتا في ثبت مكتوب حوالي سنة ٧٠٠ ق. م، وكلتاهما مكتوبة باللغة الإغريقية ذات اللهجة الأيونية. ويقال إن "بيزستراتوس" هو الذي بدأ في جمع القصائد الهومبرية، وكانت لهذه الملاحم روايات متنوعة كثيرة. ولم يستقر النص الموجود الآن إلا في القرن الثاني ق. م، وهناك ملاحم أخرى لا تخرج عن ذيول وإطنابات "للإلياذة والأوديسيا". هذا إلى قصص مغامرات منفصلة كادت اليوم أن تبيد تمامًا.

وكان الإغريق عامة مجمعين على أن "الإلياذة والأوديسيا" من عمل شاعر واحد هو "هوميروس". وهو رجل تقول الروايات إنه ولد في سبع مدن مختلفة، وفي تواريخ متباينة تتراوح بين ١١٠٠، ٨٠٠ ق. م ولا يجمع التواتر إلا على حقيقة واحدة فقط، هي أنه كان ضريرًا. وكانت هاتان الملحمتان تنزلان من قلوب الإغريق منزلة الحب والاحترام إلى حد أنه لم يحدث حتى القرن الثاني ق. م، أن واحدًا من الإغريق لاحظ الحقيقة الظاهرة، حتى في الترجمات نفسها، وهي أن هذين المؤلفين العظيمين مختلفان تمامًا في الروح والأسلوب والنوع، اختلاف صوت البوق عن صوت الناي. ولكن كما كان من المقبول لديهم عقلاً أن يولد هوميروس في أمكنة متعددة على مثل هذا المحال المتباعد ويمثل هذا المدى الزمني المديد، لم يكن في امتلاكه لعقلين وصوتين في وقت معًا ما يزيد ما له من تفرد بالعجائب والمعجزات إلا قليلاً! هذه مباحث تخص دارسي الأدب القديم. فهو وحده الذي يستطيع أن يقدر هذه المؤلفات حق قدرها. وهو يؤكد لنا أن لهما من الروعة والجمال والحكمة وحسن النغم والإيقاع ما لا تستطيع أن تنقله إلينا أية ترجمة. وما من ترجمة يمكن أن تنقل شيئًا يبرر نشوة العلماء وطربهم لهذه الدرر النفيسة الأولى في الأدب الأوربي. فإن ضربًا معينا من الإملال يتسرب إلى عمل كل مترجم كما يتسلل إليه ضرب معين من التفاهة، بل إن الألحان الإغريقية الرائعة البهجة لتبدو للأذن حين يرتلها عشاقها المتحمسون لها على مسامع غير المثقفين من المتشككين المرتابين سقيمة الجرس نابية النغم تذكرنا بتلك الأصوات الكريهة التي تصدر عن أجهزة المياه الساخن المختلة. ومع كل هذا فإن هذه الملاحم تحوي الشيء الكثير من الجمال والإمتاع. وهي مشوبة بشيء لذيذ من الروح الصبيانية، وفيها لمحات بارقة بأشد المشاعر حدة، وأشد الملاحظات نصوعًا وإشراقًا. ومن الأسف أن الدارسين المعجبين الذين يتحدثون عنها بأنها شيء رفيع سامٍ لا يلحق ولا يداني وما إلى ذلك من قول، يسرفون في القول إسرافًا مضحكًا جلب عليها إهمال القارئ العادي الذي أرهبه الفزع منها.

([1]) الأثبات جمع ثبت وهو السجل الذي يدون فيه. (المترجم)

وإلى جوار اسم هوميروس يذكر التاريخ اسم هسيود الذي كان على الأرجح شخصًا حقيقيًا. وتاريخ ميلاده معروف في مدى قرنين هما القرن التاسع والسابع ق. م. وملحمتاه وهما "الأعمال والأيام" ثم "البحث في منشأة الآلهة" تخلد إحداهما الشيء الكثير من حياة الفلاح البوءوتي وكدحه، وتبقى لنا الأخرى ما تواتر من الأخبار الجارية عن أصول آلهة الإغريق، وعلاقاتها بعضها ببعض.

وكان شعر الملاحم في بلاد الإغريق أساس كل ضروب الشعر الأخرى، وانقضت قرون عدة لم يكن القوى يعنون أثناءها إلا بهذا الشعر. فهو الشعر الآري الأصلي، ثم ظهرت أنواع أخرى بأعيانها. فكان هناك شعر المراثي وهو لطيف رقيق، ويغنّى بمصاحبة موسيقى الناي الليدي، والشعر الغنائي وهو يغنى إلى الكنّارة ذات السبعة الأوتار. ومن المستحيل التوسع في الكلام عن هذه الأشكال والضروب هاهنا. ومن العبث أيضًا أن نسرد لك أسماء الشعراء دون بعض الإشارة إلى طبيعة أشعارهم وكنهها. ولا يمكن أن يكون لاسمي بندار (Pindar) وسيمونيدس (Simonides) معنى إلا عند أولئك الذين يستطيعون أن يخصصوا قدرًا كافيًا من وقتهم لِلا يزال في متناول الأيدي من مؤلفاتهما. وربما جاز لنا أن نذكر الآن أن من بين أعظم شعراء الغزل الأولين ببلاد الإغريق امرأة هي سافو (Sappho) من أهل لسبوس.

وقد ابتدأت الدراما [1] المكتوبة مثلما ابتدأ الشعر المكتوب في العالم الإغريقي. فنشأت المسرحية بوصفها جزءًا من الاحتفال الدوري لديونيسوس (Dionysus) إله الخمر. وكان الاحتفال في الأصل أغنية جماعية ترتلها جوقة تشيد بأعمال الإله. ثم يتقدم قائد الجوقة وهو (الكوريفيوس) (corypheus) وينشد وحده وتجيبه الجوقة. ثم أدخل إيسكيلوس (Aeschylus) (المولود في ٥٢٥ ق. م) ممثلا ثانيا، كان يتقدم عن الجماعة ويجيب الأول. وأخيرا جاء الممثل الثالث على يد سوفوكليس (Sophocles) (المولود في ٤٩٥ ق. م). وتطور الحوار والتمثيل وأصبحت الجوقة في المحل الثاني من التمثيل. وكانت المسرحيات حتى ذلك الحين تمثل من فوق منصات خشبية. ولكن أخذت دور المسارح تبنى في القرن السادس. وفي هذا القدر الكفاية في "معالم تاريخية" كهذه. كذلك يسجل التاريخ أنه لم يكد يمضي قرن واحد، حتى ظهرت أعظم أيام (الدراما) الإغريقية. وأسماء إيكسيلوس وسوفوكليس ويوريبيدس (Euripides) (المولود سنة ٤٨٠ ق. م)، هي الأسماء التي بلغت الذروة بالمأساة الإغريقية. ولكنها ليست إلا أسماء مجردة هنا، لا يمكن أن يكون لها أي مغزى عند القارئ الذي لا يبحث عن مؤلفاتهم – إما في الأصل أو في الترجمات الشهيرة الموثوق بها – والذي لا يحاول أن يشهد تمثيل مسرحياتهم.

---

(1) يقصد بالدراما الأدب المسرحي بجميع أنواعه. (المترجم).

وكان يدارج تطور المأساة وهي الناحية الحدية في عبادة ديونيسوس شكل آخر للتمثيل أكثر سخرًا وتسلية هو الملهاة (الكوميديا). وكانت الملهاة منذ البداية أكثر مرونة من المأساة. وكانت تمسخ المأساة وتهزأ بها في بعض الأحايين، ولكنها في البعض الآخر، كانت تتحول إلى صور (اسكتشات) صريحة لطباع الناس وللنواحي المسلية من مظاهر الحياة. وقد ابتدع أرسطوفانيس (Aristophanes) في القرن الخامس ق. م. خليطًا بهيجًا من الخيال والتهكم السياسي. وكان ميناندر (Menander) بعد ذلك بمائة سنة، الأستاذ المبرز في الكوميديا الأخلاقية. وكانت المأساة الإغريقية لونًا موقوتًا ذا طابع شكلي، وقد تطورت حتى وصلت إلى أقصى إمكانياتها فيما يتجاوز القرن بقليل. على أن الكوميديا لازمة للجماعات البشرية ولا غنى لهم عنها. وإنك لتجد التهكم والمحاكاة والكوميديا أنى اجتمع اثنان أو ثلاثة من بني الإنسان منذ أن ابتدأ ظهور الجماعات الإنسانية. ولم يحدث قط أن وقف بالفعل تيار الكوميديا المكتوبة في العالم، منذ أن أمكن تدوين أول محاورة. ولم تبدأ القصة المكتوبة أن تنافس الكوميديا منزلتها من قلوب الناس إلا مع انتشار فن الكتابة. وكانت هناك في بلاد الإغريق مجموعات من "القصص الصالحة" وما إليها. على أن تطور فن القصة والرواية (Fiction) بوصفها فنًا عظيمًا كان ينتظر جمهورًا واسع القراءة وينتظر تكاثر الكتب وانتشارها السريع. ومن سوء الطالع أن العدد الأكبر من كل من صنفي التراجيديا والكوميديا الإغريقية باد من العالم مرة أخرى.

وابتدأ الأدب النثري لأول عهده على صورة التاريخ والمناقشة الجدية. ولعلك تذكر ما أسلفناه عن هيرودوت وما اقتبسناه من مؤلفه في أول هذا الكتاب. ولسوف يلحظ القارئ أن "أبا التاريخ" زار أثينا زمن بريكليس وأنه عندما كان يصنف كتابه، كانت المأساة الأثينية قد جاوزت من قبل أوج ذروتها. ثم تكلم ثوسيدياس (Thucydices) بعد ذلك التاريخ فروى قصة حرب البيلوبونيز. كذلك أشرنا إلى زينوفون، وكتابه "الصعود" (Anabasis) وهناك شق هام آخر من الأدب الإغريقي لا يزال باقيًا لنا، وهو الخطب التي دونت عن مختلف الخطباء المفوهين النابهين. وأخيرًا يجب أن نشير إلى البيانات النثرية الجدية والجدل النثري الذي يتجلى في الأدب العلمي على نحو ما دونه أرسطو، وأن نلحظ تحوله إلى حوار مسرحي فني في محاورات أفلاطون...

وعلى هذا النحو من الاختصار نسجل هنا ألوان أول أدب عظيم في العالم. وهذا كل ما نستطيع أن نعمله في النطاق الذي تحت تصرفنا. فمن رغب من قراء الإنجليزية في المزيد فليطلبه ومعه قدر وفير من الاقتباسات الموصولة به وصلاً يدل على المهارة في كتاب "الإغريق والبرابرة" تأليف ج. أ. ك. تومسون (J.A.K. Thomson) على أن الطريقة المثلى للإحاطة الحقة بأي أدب، إنما هي في القراءة الدقيقة لكتب خاصة فيه ومؤلفين معينين.

٨- الفن الإغريقي

لبث العالم الحديث بين عصر النهضة ونهاية القرن التاسع عشر أي قبل اكتشاف فن الشعوب الإيجية السابق على الفن الإغريقي، وقبل المعرفة بالإنتاج الفني الهائل لدى الإمبراطوريات الأولى – يولي فن التشكيل [١] الإغريقي تقديرًا لا يتناسب وما أنتجه ذلك الفن. فكان يرتسم وحده في أخيلة الناس، كأنما هو شيء قفز إلى الوجود من العدم، وكأنما كان كل ما جاء قبله قبيحًا مرذولاً، وكل شيء جاء بعده سوقيًا وضيعًا. ولكم ولّد ذلك الفن في عقول المثقفين طربًا، يملؤنا اليوم بالعجب أكثر مما يشيع في أنفسنا العطف.

وإنا لنعرف الآن أنه بينما تدل مبتكرات الإغريق الأدبية والفكرية على بداية مظهر جديد مميز من مظاهر الخبرة الإنسانية، فإن فن النحت الإغريقي لا يخرج عن كونه حلقة في تطور المدنيات التي مضت قبله. ذلك أن صوغ الذهب والجواهر والأختام والدمى الصغيرة والزهريات وما إليها مما صنعه الإغريق في هذا العصر المجيد يضارع تلك التي صنعها السكان الإيجيون السابقون وتلك الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة في مصر وإن لم يتفوق عليهما، وإن في فنهم المعماري لرشاقة وإتقانًا اختص بهما. والظاهرة الغالبة فهي هي مجاميع الأعمدة (Colonade) في شكلها الوقور النبيل بإكليلها (Capital) الدوري الضخم (Doric) أو منظرها الرشيق بإكليلها الأيوني (Ionic) وهيئتها الزهرية بإكليلها الكورنثي (Corinthian). وأصبح العمود الكورنثي بشعبه وتفريعاته في الأزمنة الرومانية وحدة عالمية في فن العمارة، وهي وحدة كانت ولا تزال تنبت في ذلك الفن كالعشب الطفيلي حيثما وجدت فروع المصارف أو الفنادق الفاخرة.

ومهما يكن من شيء فإن فن النحت الإغريقي هو وحده الذي كان علمًا على ما يمتاز به ذلك العصر من إبداع. كان في بادئ الأمر شكليًا متكلفًا، ثم وصل فيما بين عهدي بيزستراتوس وبريكليس إلى حالة من الحرية والمطابقة للطبيعة لم يسبق لها مثيل. وفي أيام إخناتون اتخذ النحت المصري اتجاهًا وتحولاً نحو اليسر والمسابقة للواقع، ولكن الناس لم يبلغوا في فن النحت قبل ذلك درجة يمكن أن تقارن بما بلغه الفن الإغريقي من حرية انطلق فيها سراحه. ويحدثوننا أن معظم النحائت الإغريقية كانت مصبوغة بالأصباغ. فذلك الجمال الخاص الأبيض الصارم الذي أضفت عليه لمسة الموت والكمال نبلاً، والذي يملك علينا الآن مشاعرنا عندما يواجهنا خير ما تبقى من الإنتاج الإغريقي، لم يكن جزءًا من غاية الفنان. وكذلك المعابد فإنها على ما بها من خرائب ذات سحر رائع يشبه سحر ضياء القمر، كما أن لها إبداعًا سماويًا كان ينقصها ولا ريب إبان شبابها الغض البهيج.

---

(١) فن التشكيل (plastic art) هو فن صوغ الأشكال ويطلق على النحت وما شابهه من فنون تمييزًا لها عن التصوير أو الدهان (Painting) وما إليه من فنون الرسم. (المترجم)



٧٧ — ڤينوس



٧٨ — آلهه يونانية

ولسنا نعرف عن فن الرسم والتصوير الإغريقي إلا القليل الطفيف. أجل ورد ذكر درر هم اليتيمة، بيد أنه ا فنيت جميعها. لذا فلسنا نستطيع أن نقضي فيه برأي إلا بسبيل ما نلقاه باقيًا منه أيام روما في عصر الإمبراطورية في صور تعتبر استمرارًا لتيار التقاليد الفنية المتدهور والتصوير الملون في مدينتي بمبياي، (Pompeii) وهركولانيوم (Herculaneum) بهيج ممتع تتجلى فيه المهارة، وهو أقرب إلى الطبيعة والوثوق بالنفس، إلى درجة لا تسمح بمقارنته إلى أي من الإنتاج المصري أو البابلي.

وكانت موسيقى ذلك الزمان عاملاً ثانويًا وتابعًا مساعدًا للأغنية، وكان يعوزها الانسجام اللحني (الهارموني). ويتحدث السير و. هـ .. هادو (Hadow) عن "قبح نماذج الموسيقى الإغريقية التي ظلت محفوظة وأمكن استجلاء كنهها".

الفصل الثاني والعشرون

سيرة الإسكندر الأكبر

١- فيليب المقدوني.

٢- مقتل الملك فيليب.

٣- أول فتوح الإسكندر.

٤- تجولات الإسكندر.

٥- أكان الإسكندر عظيمًا حقًا؟

٦- خلفاء الإسكندر.

٧- برجاموم ملاذا للثقافة.

٨- الإسكندر كبشير وداعية للوحدة العالمية.

١ - فيليب المقدوني



– فيليب المقدوني

ليس البطل الحقيقي في قصة الإسكندر، هو الإسكندر نفسه قدر ما هو أبوه فيليب. فإن مؤلف التمثيلية لا يتألق في ضياء المسرح تألق الممثل. ففيليب هو الذي دبر الشيء الكثير من العظمة التي بلغها ابنه، فهو الذي وضع أسسها وصاغ وسائلها وأدواتها وهو الذي أعد في الحق العدة للبدء في الحملة الفارسية قبيل وفاته. ولا ريب في أن فيليب كان واحدًا من أعظم الملوك الذين شهدهم العالم على كر العصور. وكان رجلاً على أقصى غايات الذكاء والكفاية. فأما مجال فكراته فيتجاوز دائرة زمانه تجاوزًا بعيدًا فاتخذ من أرسطو صديقًا له. ولا بد أنه تناقش وإياه في تلك الخطط المرسومة لتنظيم المعرفة الحقة التي قدّر للفيلسوف أن يحققها فيما بعد بواسطة هبات الإسكندر. ويبدو أن فيليب على قدر ما نستطيع أن نجزم، كان "أمير" أرسطو ومولاه، وإليه كان يشخص أرسطو ببصره كما يرفع الرجال بصرهم إلى مقام أولئك الذين يعجبون بهم ويثقون. وإلى فيليب أيضًا لجأ إيزوقراط بوصفه القائد العظيم الذي كان ينبغي عليه أن يوحد الوطن الإغريقي وأن يسمو بالحياة العامة لدى الإغريق بعد إذ شملتها الفوضى.

وتذكر الكثير من الكتب أن فيليب كان رجلاً اتصف بالاستخفاف إلى درجة لا يصدقها العقل. وكان على شهوات لا ضابط لها. حقًا إنه في الولائم شأنه شأن كل معاصريه من المقدونيين، كان يكثر من الشراب، وكان يغدو في بعض الأحيان مخمورًا ثملا – إذ الراجح أن عدم الإكثار من الشراب في الولائم كان يعد أمرًا غير ودي. ولكن لم يقم دليل ثابت على التهم الأخرى الموجهة إليه. وليس بين أيدينا لدليل عليها إلا قدح خصومه من أمثال ديموستنيز (Demosthenes)، الديماجوج والخطيب الأثيني، وهو رجل ذو بيان لا يأبه

بالعواقب. وقد يساعدنا اقتباس فقرة أو ما إليها على تبيان إلى أي حد كانت غضبة ديموستثيز الوطنية تحمله. فهو ينفث عن نفسه في إحدى "فيليبياته" – كما تسمى تنديداته بفيليب – على هذا الأسلوب.

"وفيليب، ذلك الرجل الذي لا يقتصر أمره على أنه ليس إغريقيًا، ولا يمت بحال ما بصلة إلى الإغريق، بل ليس هو حتى همجيًا من قطر محترم – كلا، وإنما هو شخص فاسد من مقدونيا، ذلك القطر الذي لا نستطيع قط أن نحصل منه حتى على عبد لائق". إلى غير ذلك من المثالب. ونحن نعرف على وجه التحقيق أن المقدونيين كانوا شعبًا آريًا شديد القرابة للإغريق، وأن فيليب كان فيما يرجح أوسع رجال زمانه علمًا. ولكن كانت هذه هي الروح التي كتبت بها القصص المعادية لفيليب.

ولما آل إلى فيليب مُلك مقدونيا (٣٥٩ ق. م.)، كانت بلاده قطرًا صغيرًا ليس فيه مرفأ على البحر ولا أية مدينة هامة. وكان سكانها جميعًا من الفلاحين، وتكاد لغتهم أن تكون إغريقية، هذا إلى أنهم على أتم استعداد لأن يكونوا إغريقًا في عواطفهم وميولهم، ولكنهم خلّص في دمهم النوردي أكثر من أي شعب يقع إلى الجنوب منهم. ولقد حوّل فيليب هذه الدويلة الهمجية الصغيرة إلى دولة عظيمة. وأنشأ أكفأ وأفضل نظام عسكري رآه العالم حتى ذلك الحين، وتمكن قبيل وفاته أن يضم شمل غالب بلاد الإغريق في عصبة واحدة بقيادته. على أن قوة تفكيره التي سما بها عن مألوف أفكار زمانه وما اتسم به من صفات خارقة للعادة، لا تتجلى في تلك الأمور العظيمة قدر ما تتجلى في العناية التي جعل المربين يدربون بها ولده حتى يواصل من بعده السياسة التي ابتدعها. فهو واحد من أولئك الملوك القليلين في التاريخ الذين عنوا بخلفهم. وكان الإسكندر – على صورة لم يصل إليها غير عدد قليل من الملوك في الدهر كله – ملكًا قد تربى تربية خاصة تؤهله لتولي شئون إمبراطورية. ولم يكن أرسطو غير واحد من بين كثير من المربين الأكفاء الذين اختارهم أبوه له. وقد استودعه فيليب سياسته وولاه الإمرة والحكم عندما بلغ السادسة عشرة، فقاد الفرسان في موقعة خيرونيا (Chaeronea) تحت بصر أبيه فهو قد درب على السلطة تدريبًا كريمًا لا تشوبه شبهة أو ريبة.

ويتضح لكل من يقرأ تاريخ حياته بعناية، أن الإسكندر تولى عمله مزودًا بعدة من التدريب ومن الأفكار القيمة التي لم يسبق لها نظير. فلما أن تجاوز حد الحكمة التي أهلته لها تربيته، أخذ يقع في الزلل ويظهر ألوانًا من سوء السلوك – مع حماقة مروعة في بعض الأحيان. وتبدت غلبة نقائصه الخلقية على تربيته قبل وفاته بزمن بعيد.

كان فيليب ملكًا من الطراز القديم، أي ملكًا قائدًا، وهو المقدم على نبلائه ذوي الطراز النوردي القديم. وكان الجيش الذي أوجده في مقدونيا يأتلف من حشد عام من الجند المشاة، وطبقة نبيلة من الفرسان تسمى "بالرفقاء". وكان الشعب فلاحين وصيادين، ألفوا بعض الشيء تناول الشراب، على أنهم كانوا على استعداد لقبول النظام وتعلم استخدام وسائل القتال الحسنة. ولئن كان القوم على الفطرة وفيهم سذاجة، فلقد عُرفت الحكومة بالفطنة واليقظة. وظلت لغة البلاط عدة أجيال هي الإغريقية ذات اللهجة الأتيكية (أي الأثينية). وبلغ من حضارة البلاط أن كان يئوي ويرحب بشخصيات عظيمة من أمثال يوريبيديس الذي مات هناك (٤٠٦ ق. م)، وزيوكسيس (Zeuxis) الفنان. وفضلاً عن ذلك فإن فيليب قبل ارتقائه العرش، أقام بضع سنين رهينة في

بلاد الإغريق. وقد نال من التربية والتعليم خير ما يمكن أن تقدمه إليه بلاد الإغريق في ذلك الزمان، فكـ ان لذلك ملمًا كل الإلمام بما نستطيع أن نسميه فكرة إيزوقراط – وهي فكرة إنشاء اتحاد عظيم للدول الإغريقيـ ة في أوربا للسيطرة على العالم الشرقي. وكان يعرف أيضًا مبلغ عجز الديمقراطية الأثينية بسـ ببـ دسـ تورها وتقاليدها عن انتهاز الفرصة الماثلة بين يديها. إذ إنها فرصة لا بد له من الإسهام فيها. فأما مغزاهـ ا لـ دى الأثينيين أو الإسبرطيين فهو السماح "لعدد جم من الأجانب" بالتمتع بمزايا المواطنية. وإن في هـ ذا لتحقيـ رًا لأنفسهم وإنزالهم إلى حد المساواة والزمالة مع المقدونيين – "وهم شعب لا نحصل منه حتى على عبد لائق".

ولم تكن هناك أية وسيلة للحصول على إجماع الإغريق على ذلك المشروع الذي أزمع عمله إلا بوسـ اطة القيام بعمل سياسي ثوري. ولم يكن حب السلام هو الذي يمنع الإغريق عن مثل هذه المغامرة، بل هو تفرقهم وانقسامهم السياسي. وكانت موارد الدول العديدة مستنفدة في سلسلة من الحروب الطاحنة فيما بينهـ ا، وهـ ي حروب طالما نشبت لأتفه الأسباب، وزادت الخطب الرنانة في تلهب أوارها. مثال ذلك أن حراثة الفـ وكيين (Phocians) لبعض الأرض المقدسة بالقرب من دلْفي، كانت ذريعة انتحلت لإشباب نـ ار حـ رب دمويـ ة مقدسة.



ش (٨٠) اتساع رقعة مقدونيا في حكم فيليب

وكرسي فيليب سني حكمه الأولى لتنظيم جيشه. وحتى ذلك الحين، كان القتال الرئيسي في أية موقعة يقوم بمعظمه في أرجاء العالم قاطبة جند المشاة وهم منتظمون في تشكيلات. وإنا لنرى في المعارك السومرية السحيقة القدم، حاملي الرماح في نظام متراص مكونين كتلة الجيش الرئيسي على نحو ما كان المشاة يفعلون في جيوش الزولو في القرن التاسع عشر. وكانت الجيوش الإغريقية في زمان فيليب لا تزال تحارب على نفس ذلك الأسلوب. وكان الفيلق الطيبي كتلة من المشاة حاملي الرماح تطعن الصفوف الخلفية منها العدو برماح أطول تخترق الصفوف الأمامية. وكانت مثل هذه التشكيلة تستطيع أن تخترق كل ما يعترضها من جيش يكون أقل منها تنظيمًا. وكان الفرسان من الناشبة (حاملي القسى) يستطيعون طبعًا أن ينزلوا خسائر جسيمة بمثل هاته الكتلة من الرجال، فلما أن استخدم الحصان في الحرب ظهر الراكبة على كلا الجانبين بوصفهم عاملاً ثانويا مساعدًا لهذا الجيش الرئيسي. ويجدر بالقارئ أن يتذكر أن الحصان لم يستخدم بطريقة فعالة تمامًا في حروب الغربيين حتى قيام الآشوريين، ولم يتجاوز استخدامه في مبدأ الأمر جر المركبات. وكانت المركبة تطعن بنفسها وبكل قوتها كتلة المشاة محاولة تحطيمها وكان التوفيق حليف المركبات ما لم يكن نظام كتلة المشاة قويًا متينًا. والقتال الذي يصفه شعر هوميروس قتال مركبات. ولا يبدأ ظهور الفرسان كقوة متميزة عن جنود المركبات وقائمة بدور خاص في خوض المعارك والحروب إلا في الألف سنة السابقة على الميلاد. ويبدو أنهم كانوا يقاتلون في مبدأ الأمر متناثرين، إذ يبلي كل رجل بمفرده أحسن ما يستطيع من بلاء. هكذا حارب الليديون قورش. ولكن يلوح أن فيليب كان أول من استحدث هجوم الفرسان فأمر "رفقاءه" أن يتدربوا على الهجوم حاشدين. كذلك قوَّى فيلقه بتزويد الرجال في الصفوف الأخيرة برماح أطول مما كان بأيديهم حتى آنذاك. وبذلك زاد في عدد صفوف فيلقه ولم يكن الفيلق المقدوني إلا مجرد صورة للفيلق الطيبي أقوى تماسكًا وأشد صلابة ترادف. وإن واحدة من تشكيلات المشاة المحشودة هذه، لم تكن مرنة مرونة تجعلها تصمد أمام هجوم من الجناح أو الخلف، فإن قوتها على المداورة (المناورة) طفيفة جدًا. ومن ثم كانت انتصارات فيليب وابنه ثمرة اتباعهما – مع شيء من التغيير والتعديل – خطة عامة من التعاون بين هذين السلاحين فيتقدم الفيلق في الوسط ويشتبك مع جيش العدو الرئيسي. وتجرف هجمات الراكبة على أحد الجناحين أو الآخر راكبة الأعداء أمامها، ثم تدور فتنقض على جناح فيلق العدو ومؤخرته، بينما يكون الفيلق المقدوني قد أنزل من قبل ضربته على مقدمته. وعند ذلك تتحطم قوى جند العدو الرئيسية وتعمل فيها السيوف عملها. ولما ازدادت خبرة الإسكندر العسكرية، أضاف كذلك استعمال المجانيق في الميدان، وهي أداة كبيرة تقذف الأحجار لتمزيق مشاة العدو. وكانت المجانيق قبل زمانه تستعمل في الحصار ولكنها لم تستعمل في المعارك أبدًا. فهو إذن أول من استحدث عملية "التمهيد بالمدفعية".

حتى إذا أيقن فيليب من جدارة هذا الجيش الجديد شرع في استخدامه، فاتجه بنظره بادئ بدء إلى شمال مقدونيا. فأنفذ الحملات العسكرية إلى إلِّيريا (Illyria) وإلى الدانوب ومدّ سلطانه أيضًا على طول الشاطئ حتى الهلسبونت واستولى على ميناء أمفيبوليس (Amphipolis) وبعض مناجم الذهب المجاورة لها. وبعد أن قام بحملات عديدة في تراقيا أخذ يوجه اهتمامه الجدّي نحو الجنوب. فنصر قضية الحلف (الأمفكتيوني) الدلفي ضد أولئك الفوكيين الذين انتهكوا حرمة معبد دلفي وبذلك ظهر بمظهر راعي الديانة الهللينية.

ويجدر بنا أن نتذكر أن فريقًا قويًا من الإغريق كان ينادي بالكتلة الهللينية التي تلم شمل الجميع، مؤيدًا زعامة فيليب للإغريق. وكان رأس كتاب هذه الحركة الداعية للكتلة الهللينية الشاملة هو إيزوقراط. وكانت أثينا من الناحية الأخرى، على رأس جبهة المعارضة لفيليب وشيعته. وكانت تربطها بفارس صلات المودة الصريحة، حتى لقد أرسلت البعوث إلى "الملك العظيم" تحذره الخطر المحدق به من اتحاد بلاد الإغريق. وليس لنا في هذا المجال الضيق من سبيل إلى سرد قصة الغدوات والروحات التي دامت زهاء اثنتي عشرة سنة. وفي ٣٣٨ ق. م. وصل النزاع بين دعاة الانقسام ودعاة الكتلة الهللينية إلى نتيجة حاسمة يوم أوقع فيليب بأثينا وحلفائها هزيمة منكرة بمعركة خيرونيا. ثم عقد مع أثينا صلحًا منحها شروطًا سخية سخاء يبعث على الدهشة. فأظهر نفسه بمظهر العازم عزمًا أكيدًا على إرضاء تلك المدينة التليدة. وفي ٣٣٨ ق. م. اعترف به مؤتمر من الدول الإغريقية قائدًا عامًا في الحرب ضد فارس.

وكان عند ذلك قد بلغ السابعة والأربعين. وكأنما كان العالم مطروحًا تحت قدميه. إذ جعل مملكته الصغيرة الدولة المتزعمة في اتحاد مقدوني إغريقي شامل وطيد، وقدر لهذا التوحيد أن يكون مقدمة لتوحيد آخر أعظم منه، هو توحيد العالم الغربي والإمبراطورية الفارسية في دولة عالمية واحدة تضم كل الشعوب المعروفة. فمن ذا يستطيع أن يرتاب في أن هذا الحلم كان يخالج فؤاده؟ وكتابات إيزوقراط تقنعنا بأنه كان يملأ جوانب نفسه. ومن ذا يستطيع أن ينكر أنه ربما تمكن من تحقيقه؟ وقد يخالجه أمل معقول في أن تتاح له فسحة من الأجل لعلها تبلغ ربع قرن آخر من الزمن المليء بالنشاط. وفي ٣٣٦ ق. م. عبرت جنوده الأمامية إلى آسيا.

على أنه لم يلحق بها لا هو ولا كتلة قواته الرئيسية؛ إذ إنه قتل غيلة.

٣- مقتل الملك فيليب

من الضروري الآن أن نلم بطرف من حياة الملك فيليب المنزلية. فإن حياة كل من فيليب وابنه، كانت تخالطها شخصية امرأة قلقة شريرة لا يستقر لها قرار هي أوليمبياس (Olympias) أم الإسكندر.

كانت ابنة ملك إيبيروس (Epirus) القطر الواقع إلى الغرب من مقدونيا، وهو كمقدونيا أرض شبه إغريقية. التقت بفيليب أو لعلها قذفت في طريقه في أحد الاجتماعات الدينية في ساموترافيا (Samotharce). ويصرح بلوتارك بأن هذا الزواج كان يقوم على الحب المتبادل. ويبدو أن هذه على الأقل إحدى المآخذ على فيليب، وهي أنه شأن الكثيرين من الرجال ذوي النشاط الجم والخيال الرحب كان ميالاً إلى هوائج الحب الجامح. تزوجها بعد أن اعتلى العرش، وولد له الإسكندر بعد ذلك بثلاث سنوات.

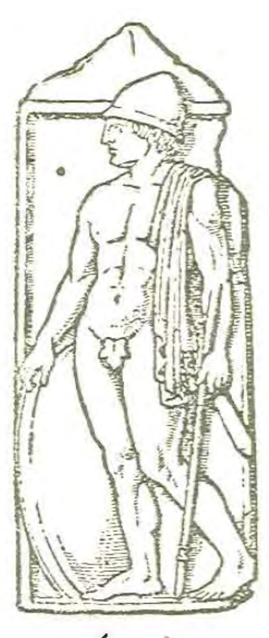
ولم يمض طويل زمن حتى دب الخلاف بين فيليب وأوليمباس عنيفًا مريرًا. فإنها كانت تغار منه، ولكن كان هناك مصدر ثان للمتاعب أشد خطورة من هذا، هو شغفها الشديد بالأسرار الدينية ذات الطقوس الخفية. ولقد بينا من قبل أن ديانة الإغريق النوردية الممتازة ذات النطاق المحدود، كانت البلاد غاصة من دونها بنحل وعبادات من نوع أقتم وأقدم، وهي عقائد أصيلة في البلاد لها أسرار ومراسيم يلقّنها من يمارسها ولها حفلات تهتكية خليعة وكثيرًا ما تصحبها طقوس قاسية فاحشة. فعقائد الأشباح هذه، وما كان يمارسه النساء والفلاحون والعبيد من أمور، هي المصدر الذي تستقي منه بلاد الإغريق معتقداتها الأورفية [١] (Orphic) والديونيسية [٢] (Doonysiac) والدميترية [٣] (Demeter). وهي قد كمنت في ثنايا تقاليد أوربا حتى ما يداني أزماننا هذه، وما أعمال السحر في القرون الوسطى وما بها من لجوء إلى دم الأطفال وإلى أجزاء من أجسام المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام والرقي والتعاويذ السحرية إلا المظاهر المتخلفة عن تلك الاحتفالات الدينية لدى البيض الداكنين. وكانت أوليمبياس حاذقة في هذه الأمور، خبيرة بها ومتحمسة لها. ويذكر بلوتارك أنها حازت شهرة واسعة لاستخدام الثعابين المستأنسة في هذه الممارسات والطقوس الورعة!!!! وكانت الحيات تجتاح جناحها المنزلي. ولم يوضح لنا التاريخ هل كان فيليب يجد فيها مادة تثير سخطه أو تبعث فيه الرهبة الدينية؟!!!... ولا بد أن أعمال زوجة فيليب هذه كانت مصدر مضايقة خطيرة له، لأن الشعب المقدوني كان لا يزال في تلك المرحلة الحاسمة من مراحل التطور الاجتماعي التي لا يستحب فيها التحمس في الورع والإفراط في التدين ولا الزوجات العسيرات القياد.

---

(١) أورفيوس: شخصية خرافية لشاعر قبل هوميروس عاش في تراقيا وصحب الأرجونوتس وهم البحارة الأبطال الذين أبحروا للبحث عن الجزيرة الذهبية (راجع المجلد الأول). وهبه أبوللو قيثارة وعلمته آلهة الفن التاسوعية Muses كيف يلعب عليها وسحرت لسماعه الحيوانات والأشجار والصخور وكانت تتحرك من أماكنها لتستمع إلى قيثارته الذهبية. (المترجم)

(٢) ديونيسوس: إله شاب بهي الطلعة متخنث، كان يعتبر إله الخمر ويسمى أيضًا باكخوس وهو ابن زيوس. وينسب إلى هذا الإله أنه هو الذي علم الإنسان صناعة النبيذ؛ والخمر هي رمز فتوته. (المترجم).

(٣) دميتر: هي إحدى الربات العظيمات عند الإغريق هي حامية الزراعة وما تخرجه الأرض من ثمار. ويقال إن مخترع المحراث ومن عرف القمح المبذور هو من أحب الناس إليها. وهي ابنة أخت زيوس. (المترجم).



(٨١)
مقاتل مقدونى
فى عهد فيليب
(عن صورة محفورة من بيلا)

وإن الدلائل على وجود عداوة مريرة بين الوالدة والوالد، لتبدو لنا من خلال الكثير من الأشياء الصد غيرة في كتب التاريخ. وواضح أنها كانت تغار من فتوح فيليب. إذ كانت تكره له ذيوع الصد يت. وهذ اك مـ ن الشواهد كثير عن أن أوليمبياس كانت تبذل قصارى جهدها لتنفر ابنها من أبيه وتضمه إلـ ى جانبها ا ضد مًا كاملاً. ويروي لنا كتاب (السير لبلوتارك" قصة تقول بأنه كلما وردت الأنباء بانتصار لفيليب مثل فتح مدينـ ـة أو الفوز في بعض المعارك الكبيرة، لم يكن يبدو على الإسكندر أي فرح عظيم لسماعها، بل كان على العكس يقول للداته وأترابه "سيحصل أبي على كل شيء مقدمًا يا صبيان. ولن يترك أي عمل عظيم أشرككم معـ ي فيه".

وليس أمرًا طبيعيًا أن يحسد ولد أباه على هذه الشاكلة دون بعض الإيحاء. وكأني بهذه العبارة تـ رن فـ ي الأذن رنين الصدى المردّد.

ولقد أوضحنا من قبل كم كان تدبير فيليب لمسألة تولية الإسكندر من بعده أمرًا بينا جليًا للعيان، وإلى أي حد كان تواقًا إلى جلب الشهرة والسلطان إلى يد الغلام. فكان الأب دائب التفكير في البناء السياسي الذي يعمل على تشييده – ولكن الأم كانت تفكر فيما تصيبه تلك السيدة العجيبة، أوليمبياس، من مجد وكبرياء. ولكنها أخفت كرهها لزوجها وأحاطته بستار من قلق الأم على مستقبل ابنها. ولما تزوج فيليب ٣٣٧ ق. م. – على عادة الملوك وأسلوبهم في تلك الأيام – زوجة ثانية مقدونية الأصل اسمها كليوبطرة "وكان يحبها حبًا شديدًا" أثارت أوليمبياس شيئًا كثيرًا من المتاعب.

ويحدثنا بلوتارك عن منظر محزن حدث في حفل زواج فيليب من كليوبطرة فلقد عاقر القوم الخمر في الوليمة ما شاءوا. وإذ كان أتالوس (Attalus) والد العروس قد ثمل من الشراب، فإنه كشف النقاب عن تلك العداوة التي كان يكنها الناس عامة لأوليمبياس وإبيروس بقوله: "إنه يأمل أن ينتج ذلك الزواج طفلاً يكون وارثًا مقدونيًا قحًا للعرش". وعندها صاح الإسكندر وكان متوثب النفس سائر الأعصاب لمثل هذه الإهانة "فماذا أنا إذن؟" ثم قذف أتالوس بكأسه. ونهض فيليب وقد ثارت ثائرته، ويقول بلوتارك إنه جرد سيفه ولكنه عثر ووقع. وقام الإسكندر وقد أعماه الحنق والحسد فعيّر أباه وأهانه بقوله: "أيها المقدونيون، انظروا ها هنا إلى القائد الذي يريد أن يزحف من أوربا إلى آسيا، كيف!!؟... إنه لا يستطيع أن ينتقل من منضدة إلى أخرى!".

فكم لا يزال هذا المنظر حيًا عالقًا بالأذهان، من ارتماء الملك على الأرض والوجوه المحمرة انفعالاً وسكرًا، وصوت الغلام الغاضب. وفي اليوم التالي رحل الإسكندر مع أمه – ولم يحاول فيليب منعهما. وذهبت أوليمبياس إلى وطنها إبيروس – ورحل الإسكندر إلى إلليريا ومن هناك أقنعة فيليب بالعودة.

ثم لم يلبث أن نشب بينهما شغب جديد فقد كان للإسكندر أخ به ضعف في قواه العقلية اسمه أريدايوس (Aridaeus) [١] رغب حاكم كاريا الفارسي في أن يتخذه صهرًا له. "هنالك أخذ أصدقاء الإسكندر وأمه يغرونه بأبيه ويبثونه الهواجس من جديد، وإن لم يكن لها ظل من الحقيقة. مدعين بأن فيليب بتدبيره هاته الزيجة النبيلة وما يترتب عليها من المساعدة، كان يرمي إلى إعطاء التاج إلى أريدايوس، ومن ثم أرسل الإسكندر – وقد أقلقته تلك الشبهات – شخصًا اسمه تسالوس (Thessalus) وهو ممثل مسرحي، إلى كاريا ليطلب من عظيمها أن يعرض عن أريدايوس غير الشرعي المولد، والناقص الإدراك؛ وأن يتخذ وريث التاج الشرعي حليفًا له وصهرًا. وبلغ سرور بكسوداروس (Pixodarus) بهذا المقترح أقصى غايته. ولكن لم يكد فيليب يسمع بالخبر، حتى ذهب إلى جناح الإسكندر مصطحبًا معه فيلوتاس (Philotas) ابن بارمنيون (Parmenio) وهو من أشد أصدقائه ورفقائه إخلاصًا، وعنف الإسكندر بمحضر هذا الصديق على انحطاطه ودناءة روحه في تفكيره أن يكون ختنًا [٢] لرجل من كاريا، هو أحد عبيد ملك همجي. وكتب في الوقت نفسه إلى الكورنثيين مشددًا عليهم بإرسال تسالوس إليه مكبلاً بالقيود. وعمد الملك إلى هاربالوس (Harpalus) ونيارخوس (Niarchus) وفرجيوس (Phrygius) وبطليموس Ptolemy وهم بعض رفقاء آخرين للأمير فنفاهم. على أن الإسكندر استدعاهم فيما بعد، وعاملهم معاملة ملؤها التقدير".

([١]) يسمى في كتب التاريخ التي تتناول ذلك العصر فيليب أريدايوس (Philip Aridaeus) (المترجم).

([٢]) الختن بفتح التاء هو زوج الابنة. (المترجم).

وهناك شيء مؤثر جدًا في هذه القصة، قصة الوالد وهو يحاج الولد الذي كان حبه الأب وي ل ه ظ اهرًا ملحوظًا، وقد حيره ذلك المقترح الوضيع الذي نسج حول خيال الفتى.

أصيب فيليب بطعنة في حفل زواج ابنته من خالها ملك إبيروس وشقيق أوليمبياس. إذ ك ان يس ير ف ي موكب إلى أحد المسارح وهو أعزل من السلاح وعليه ثوب أبيض، فطعنه أحد رجال حرسه. وك ان هن اك حصان ينتظر القاتل الذي حاول أن يفر، لولا أن اشتبك حافر حصانه في كرمة برية، فألقته عثرة الجواد من سرجه، وقتله متعقبوه.

وهكذا أصبح الإسكندر ملكًا على مقدونيا في سن العشرين وانتهى قلقه على تبوئه العرش.

وعند ذلك عادت أوليمبياس فظهرت في مقدونيا كامرأة بررت موقفها تبرير المتكبرين، ويقال إنها أصرت على أن تقدم لذكرى القاتل نفس مظاهر التكريم الجنازية التي أقيمت لذكرى فيليب.

وسرى في بلاد الإغريق سرور عظيم بذلك الحادث السعيد. فأما ديموستثيز فإنه لما أتاه هذا النبأ العظيم، خرج إلى الجمعية العمومية بأثينا في ثياب بهيجة وعلى رأسه إكليل من الزهر، ولما يمض على وفرة ابنت ه ما يجاوز السبعة أيام.

ومهما يكن أمر ما فعلت أوليمبياس بشأن قاتل زوجها، فما تحيط أية شكوك تاريخية بتفاص يل معاملتها ا لضرتها كليوبطرة. إذ لم يكد الإسكندر يغادر مقدونيا (حين شغلته على الفور ثورة رجال التلال في الشمال) – حتى قتل ابن كليوبطرة الحديث الولادة بين ذراعي أمه، ثم خنقت كليوبطرة بعد أن وجهت إليها عب ارات السباب والتقريع ولا ريب. ويقال إن هذا الغلو في المشاعر النسوية، هال الإسكندر ولكنه لم يمنعه من بس ط يدي أمه بسلطان عظيم في مقدونيا. وقد كتبت إليه رسائل في موضوعات دينية وسياسية وأظهر لها ابنها من الوفاء والبر ما جعله يرسل إليها على الدوام نصيبًا كبيرًا من الأسلاب التي كان يغنمها.

٣- أول فتوح الإسكندر

اضطررنا إلى سرد هذه الأقاصيص اضطرارًا إذ لا يستطاع فهم التاريخ بدونها. وها هو ذا عالم واسع الأرجاء يعج بالناس ممتد بين الهند والبحر الأدرياتي وهو مستعد للوحدة متأهب إلى حد لم يسبق له مثيل للانصياع لحكم من يلم شمله. وها هي ذي الدولة العظيمة – دولة الإمبراطورية الفارسية بطرقاتها ونظام بريدها وسلمها المخيم على أرجائها وشامل رخائها – مهيأة تمامًا للتأثر بما يشعه العقل الإغريقي وما ينتجه من قطوف دانية. ومع ذلك فهذه هي القصص التي تصور طبيعة المخلوقات البشرية التي أتيحت لها تلك الفرص العظيمة. فها هو ذا فيليب، ذلك الرجل العظيم البالغ النبل، ومع ذلك فهو سكير مدمن، وهو لا يستطيع أن يضبط نظام داره. وهاكم الإسكندر وهو إنسان موهوب من كثير من النواحي، مواهب أعلى مما لدى أي رجل في زمانه، ولكنه مغرور متشكك في الناس، نزق حاد العواطف، وله ذهن أحدثت أمه به انحرافًا وزيغًا.

وقد شرعنا الآن في فهم شيء مما عسى أن كان يئول إليه العالم، وشيء مما عسى أن كان يصير إليه جنسنا، لولا طبيعتنا البشرية التي لا تزال فجة غريرة، ولم يكد يتجاوز ما مضى بين عصرنا وبين الإسكندر ما يزيد على سبعين جيلاً؛ كما لا يكاد يفصل بيننا وبين أجدادنا الصائدين المتوحشين الذين كانوا يضهبّون [١] طعامهم على الحمر أو يأكلونه نيئًا، – ما يتجاوز الأربعمائة أو الخمسمائة جيل. ولن يتهيأ مجال كبير لدخول التعديل على نوع من الأنواع الحية في مدى أربعمائة أو خمسمائة جيل. وما عليك إلا أن تثير فيمن حولك من الرجال والنساء مشاعر الغيرة أو الخوف أو السكر أو الغضب إلى درجة كافية حتى تبدو لك فيهم عيون رجال الكهوف الحمراء محملقة إليك اليوم. وقد تهيأت لدينا الآن المعرفة بالكتابة وتوفر التعليم والعلوم وتسخير القوى. وقد روضنا الوحوش وسخرنا البرق. ولكننا لا نزال ندلف [٢] نحو النور وئيدًا في تعثر. أجل روضنا الوحوش وربيناها. ولكن بقي علينا أن نروض أنفسنا ونربيها.

([١]) من ضهب اللحم إذا شواه قليلا ولم ينضجه . (المترجم)

([٢]) دلف دلوفًا: مشى كالمقيد وقارب الخطو في مشيه. (المترجم)

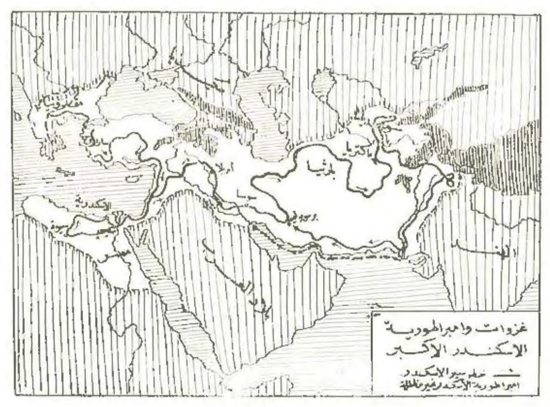


(٨٢) الإسكندر الأكبر

أظهرت أعمال الإسكندر منذ أول بدايات حكمه، إلى أي حد كبير تمثّل خطط أبيه وسار على نهجها، وإلى أي حد كانت كفاياته عظيمة. ولا بد لنا من خريطة للعالم المعروف لتبين مجرى حياته. ففي أول الأمر بعد أن حصل على التأكيدات من بلاد الإغريق، بأنه سيكون القائد العام للجيوش الإغريقية، سار مخترقًا تراقيا إلى نهر الدانوب، وعبر النهر وأحرق إحدى القرى، وبذا أصبح الملك العظيم الثاني الذي أغار على الـ بلاد الإسكيذية فيما وراء الدانوب، ثم عاد فعبره واتجه غربًا وبذا قفل بطريق إلليريا. وفي ذلك الوقت كانت مدينة طيبة أعلنت العصيان عليه، فكانت ضربته التالية في بلاد الإغريق. فإن طيبة – ولم تساعدها أثينا بالطبع – قهرت ونهبت وعوملت معاملة عنف مسرف. إذ هدّت كل مبانيها اللهم إلا المعبد ومنزل الشاعر بندار (Pindar) وبيع ثلاثون ألف نسمة من سكانها رقيقًا في أسواق النخاسة. فصعقت بلاد الإغريق. وأصبح في ميسور الإسكندر بذلك أن ينطلق حرًا للقيام بالحملة الفارسية.

وكشف تدمير طيبة على هذا النحو عن مسحة من القسوة والعنف في سيد أقدار البشرية الجديد. إذ كانت تلك ضربة أثقل من أن يقدم عليها إنسان بل كان إتيانها عملاً وحشيًا غشومًا. فلئن قضي بها على روح العصيان، فقد قضي كذلك على روح العون. فإن دول المدن الإغريقية ظلت جامدة منذ ذلك الحين، فلا هي تشغب عليه ولا هي تعينه. وأبت تلك المدن أن تمد الإسكندر بسفائنها، وهو أمر كانت نتيجته مضايقة خطيرة له.

وهناك قصة يرويها بلوتارك عن هذه المذبحة الطيبية بوصفها أمرًا يشرف الإسكندر. لكنها لعمري تبين كيف أن جوانبه السليمة التي تتم عن التعقل وجوانبه الأخرى التي بها مس من الجنون كانت في صراع. وهي تحدثنا عن ضابط مقدوني وسيدة من طيبة. كان هذا الضابط ينهب مع الناهبين، فدخل إلى منزل هاته المرأة، وأوقع بها من الإهانات والأضرار ما لا يمكن التعبير عنه، ثم سألها آخر الأمر عما قد يكون لديها مخبأً من كنوز الذهب أو الفضة. فأخبرته بأن كل كنوزها مخبوءة في البئر وقادته إليه، وبينما هو مائل يتأمل قاعه، قذفته فيه على الفجاءة ثم قتلته بإلقاء الأحجار الضخمة عليه. ووصل إلى المكان بعض الجنود الموالين، وأخذوها إلى الإسكندر ليقضي فيها برأي.



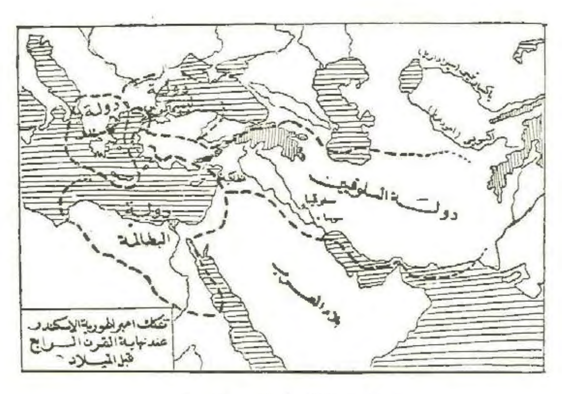
ش (٨٣) غزوات الإسكندر الأكبر وامبراطوريته

فتحدته، وكان دافع الغلو والتطرف الذي حدا به إلى القيام بالمذبحة قد أخذ في التناقص والتضاؤل. فلم يكتف الإسكندر بالعفو عنها، بل أمر برد عائلتها وممتلكاتها وحريتها إليها. ويفسر بلوتارك هذا بأنه كرم خلق وسماحة نفس ولكن المسألة أعقد من ذلك. إذ إن الإسكندر هو الذي كان ينهب ويستعبد وينتهك حرمات طيبة بأكملها. فذلك الوحش المقدوني المسكين المتردي في البئر. ما كان يفعل إلا ما قيل له إن له ملء الحرية أن يفعله. فهل يجوز لقائد أن يصدر في مبدأ الأمر أوامر قاسية، ثم يعود فيعفو عمن يقتلون أعوانه بل ويكافئهم؟ إن هذه البارقة من وخز الضمير في حالة امرأة واحدة ربما لم يكن يعوزها مظهر الكرامة الحزينة والجمال الأسيف، إنما هي عوض زهيد في مقابل هلاك مدينة عظيمة.

وقد اجتمع في نفس الإسكندر خليط من جنون أوليمبياس الذي ورثه عنها وما أخذه عن أبيه من رجاحة عقل وما تلقاه عن أرسطو من تعاليم. ولا مراء أن حادث طيبة هذا أزعج خاطر الإسكندر. فكان كلما لقي الطيبيين فيما بعد حاول أن يظهر لهم عطفًا خاصًا. ومما يذكر له بالفضل أن شبح ما جنت يداه في حق طيبة كان دائم الملاحقة له.

ومع ذلك فإن ذكرى طيبة لم تنقذ ثلاث مدن أخرى عظيمة من مثل تلك العاصفة العقلية الهوج اء. فإذ ه دمر صور (Tyre) وغزة ومدينة ببلاد الهند، سقط أثناء فتحه إياها عنوة وجرح في قتال شريف، ولم ي نج من هذه المدينة الأخيرة نفس واحدة، حتى الأطفال. فلا بد أن ما استولى عليه من الذعر كان شد ديدًا حت ى اجترح مثل هذا الانتقام الذريع.

وعند ابتداء الحرب كان للفرس عليه ميزة فائقة. إذ كانوا في واقع الأمر سادة البحر. لأن سفن الأثينيين وحلفائهم كانت معرضة غاضبة لا تعين الإسكندر. ولكي ينتقل الإسكندر إلى آسيا، اضطر أن يطوف معرجًا حتى عبر عند الهسبونت. فلو أنه تقدم متوغلاً في الإمبراطورية الفارسية، لتعرض لخطر قط ع مواصلاته تمامًا عن قاعدته. وعلى ذلك كان أول واجب عليه أن يقصم العدو في البحر. ولم يكن هذا في مسـ تطاعه إلا بالمسير على محاذاة ساحل آسيا الصغرى والاستيلاء على الميناء تلو الميناء، حتى يتم تدمير كـ ل القواعـ د البحرية الفارسية. فلو أن الفرس تجنبوا الالتحام معه في المعارك وانصرفوا إلى غشـ يان خـ ط مواصلاته الطويل، لقضوا عليه فيما يرجح ولكنهم لم يفعلوا ذلك. فإن جيشًا فارسيًا لا يزيد عن جيشه كثيرًا اشتبك معه في معركة على ضفاف نهر جرانيكوس (Granicus) (٣٣٤ ق. م.) فباء بالتدمير. وبذلك أصبح الإسـ كندر مطلق اليد في الاستيلاء على سارديس وأفيسوس وميليتوس ثم بعد قتال عنيف على هاليكارناسـ وس. وفـ ي الوقت نفسه كان الأسطول الفارسي عن يمينه يفصل بينه وبين بلاد الإغريق، وهو يهدده أكثر التهديد ولكنـ ه لا يفعل شيئًا.



ش (٨٤) تفكك إمبراطورية الإسكندر

وفي (٣٣٣ ق. م.) وحين كان يتابع هجومه هذا على القواعد البحرية، سار بمحاذاة الشاطئ حت ى رأس الخليج المسمى اليوم "خليج إسكندرونة". وكان هناك جيش فارسي جرار تحت قيادة الملك العظيم دارا الثالث متغلغل في داخلية البلاد إلى جوار خط سيره، تفصله عن الشاطئ الجبال. وتقدم الإسكندر عن هـ ذه القـ وة المعادية قبل أن يدرك هو أو يدرك الفرس ما بينهما من تدان، إذ كانت أعمال الاستطلاع – كما هو واضح – على أسوأ حال لدى الإغريق والفرس على السواء وكان الجيش الفارسي حشدا هائلاً سيئ النظام: من الجنود

والدواب ووسائل النقل ومنتجعي المعسكرات [1] ومن إليهم. ونذكر على سبيل المثال، أن دارا كان مصحوبًا بجريمة، وكان هناك عدد حاشد من إماء الحريم والموسيقيين والراقصين والطباخين. وكان الكثيرون من كبار الضباط قد أحضروا عائلاتهم ليشهدوا مصرع الغزاة المقدونيين. وقد جمعت الجيوش من كـ لـ ولايـ ـة فـ ـي الإمبراطورية، ولم يكن لديهم تقاليد متعارف عليها أو مبدأ يجمعهم ويؤلف بينهم في عمل موحـ ـد. وتملكـ ـت "دارا" فكرة قطع السبيل على الإسكندر إلى بلاد الإغريق فساق هذا الجمع الحاشد من فـ ـوق الجبـ ـال حتـ ـى البحر، ومن يمن طالعه أن اجتاز الممرات دون أن يعترض سبيله معترض، ثم عسكر فـ ـي سـ ـهل إيسـ ـوس (Issus) بين الجبال والساحل. وهناك هزمه الإسكندر وكان قد عاد ليلاقيه. إذ كر الفرسان وحطم الفيلق هذا الجيش العظيم الهش كما يهشم الحجر الزجاجة، فتفرق بددًا. وفر "دارا" من مركبته الحربيـ ـة – تلـ ـك الآلـ ـة العتيقة الطراز – ممتطيًا صهوة جواده، تاركًا كل شيء حتى حريمه في أيدي الإسكندر.

وكل الأقاصيص التي تروى عن الإسكندر بعد هذه المعركة تصوره على خير ما يكون الخلـ ـق الكـ ـريم فتظهره متحرزًا مسماحًا. فعامل الأميرات الفارسيات بأقصى ما يكون من الأدب، وتملـ ـك ناصـ ـية رشـ ـده، واستمسك استمساكًا وثيقًا بخطته، وترك دارا يهرب إلى سوريا ولم يتعقبه. ثم واصل مسيره علـ ـى قواعـ ـد الفرس البحرية – أي على ميناءي صور وصيدا الفينيقيين؛ فسلمت صيدا، وقاومته صور.

فلئن أتيح لنا أن نجد في مكان ما دليلا على مقدرة الإسكندر الحربية الفائقة، فهاهنا موضـ ـعها ومجلاهـ ـا. كان جيشه من صنع أبيه، ولكن فيليب لم يظهر في حصار المدن نبوغًا أبدًا. ولما كان الإسكندر غلامًا فـ ـي السادسة عشرة رأى مدينة بيزنطة الحصينة على البوسفور تصد أباه. وها هو ذا يواجه مدينة منيعة صـ ـمدت لحصار بعد حصار، وقاومت نبوخذ ناصَّر العظيم أربعة عشر عامًا. إذ إن الشعوب السامية صاحبة قصـ ـب السبق في احتمال الحصارات. وكانت صور عند ذلك جزيرة تبعد عن الشاطئ نصف ميل، وأسطولها سليمًا لم يصب بسوء، وكان الإسكندر من الناحية الأخرى، قد سبق فتعلم الشيء الكثير أثناء حصاره قلعة هاليكـ ـار ناسوس، وضم إليه هيئة من المهندسين من قبرص وفينيقيا، وكان أسطول صيدا معه. وما لبث ملك قبـ ـرص أن انضم إليه بمائة وعشرين سفينة جعلت سيادة البحر في يده. وفضلاً عن ذلك فإن قرطاجة الكبيرة لم ترسل أي عون – إما اعتمادًا منها على قوة المدينة الأم أو خروجًا منها عن الولاء لها – فضلاً عـ ـن أنهـ ـا كانـ ـت مشتبكة في حرب في صقلية.

وكان أول ما اتخذه الإسكندر من تدابير أن بنى جسرًا من أرض القارة إلى الجزيرة، ولا يزال هذا السـ ـد باقيًا إلى يومنا هذا. وأقام الإسكندر على طرفيس هذا الجسر عند اقترابه من أسوار صور أبراجه ومجانيقـ ـه وأكباشه [2]. ثم شد كذلك إلى الأسوار سفنًا، أقيمت عليها الأبراج والمجانيق. واستخدم أهل صور الحراقـ ـات (سفن النيران) ضد هذا الأسطول الصغير، وأخذوا يلاحقونه بالخروج المباغت من مينائهم. وحدث في إحدى

([1]) يزاد بها من يتعقبون المعسكرات من رجال ونساء للاستفادة من الجند. (المترجم)

([2]) الكبش: المنطاح (battering ram) آلة كانت تستعمل قديمًا في هدم أسوار الأماكن المحاصرة، تتكون من عرق عظيم من الخشب برأس من حديد قريبة الشبه برأس الكبش، ومنه اتخذ اسمها. (المترجم).

غاراتهم المفاجئة على السفن القبرصية أن أمسك بهم المغيرون وأوقعوا بهم أضرارًا جسيمة، وأصيب الكثير من سفنهم بقذائف المجانيق. ووقعت فورًا في أيدي قوات الإسكندر سفينة كبيرة مخماسة، أي ذات خمس طبقات من المجاديف، وأخرى ذات أربع طبقات – ثم فتحت آخر الأمر ثغرة في الأسوار – وبعد أن تسلق المقدونيون الأنقاض من سفنهم فتحوا المدينة عنوة.

استمر هذا الحصار سبعة أشهر، وقاومته غزة شهرين. وحدثت في كلتا الحالتين مذبحة كما حدث أن نهبت المدينة وبيع الأحياء من أهلها بيع الرقيق. ثم دخل الإسكندر مصر قرب نهاية (٣٣٢ ق. م.) وثبتت له سيادة البحر. فأما بلاد الإغريق – وكانت طيلة ذلك الزمان تتأرجح في سياستها – فإنها انتهت آنذاك إلى التصميم على الانحياز إلى جانب الإسكندر. وقرر مجلس دول المدن الإغريقية المنعقد في كورنثة إهداء تاج نصر من الذهب "لقائده العام". ومنذ ذلك الحين ظل الإغريق منضمين إلى المقدونيين.

وكان المصريون أيضًا في صف المقدونيين، على أنهم كانوا مع الإسكندر منذ البداية. فإن الحكم الفارسي أظلهم قرابة مائتي سنة. ولم يكن لمجيء الإسكندر من معنى عندهم سوى ذهاب سيد وقدوم آخر، ولكنه تغيير كان في جملته تغيرًا إلى أفضل. فسلمت البلاد من غير قتال. وأظهر الإسكندر الاحترام البالغ نحو شعورها الديني، فلم يكشف اللفائف عن أي مومياء كما فعل قمبيز، ولم يعتد على حرمة آبيس عجل ممفيس المقدس. وفي تلك البلاد لمس الإسكندر في نفسه في ظلال المعابد الضخمة وعلى نطاق واسع كثيرًا من الشواهد والأدلة على وجود ميل إلى تدين خفي غير منطقي يذكره بأسرار وخفايا طالما اعتنقتها والدته وأثرت في طفوليته أيما تأثير. وظل أربعة أشهر في مصر يداعب العواطف الدينية وتداعبه.

ولا بد لنا أن نتذكر أنه كان لا يزال شابًا يافعًا، منقسمًا على نفسه. أجل إن سلامة العقل القوية التي ورثها عن أبيه جعلت منه جنديًا عظيمًا. وحبته تعاليم أرسطو بشيء من النظرة العلمية إلى العالم. أجل إنه دمر صور. بيد أنه أنشأ في مصر عند أحد مصبات النيل مدينة جديدة هي الإسكندرية، لتحل محل ذلك المركز التجاري القديم. وأنشأ إلى الشمال من صور وبالقرب من إيسوس، مرفأ ثانيًا هو الإسكندرونة. ولا تزال كلتا هاتين المدينتين زاهرة إلى يومنا هذا. كما أن الإسكندرية انقضى عليها دهر ربما كانت فيه أكبر مدينة في العالم. فلا بد إذن أن موقعيهما اختير اختيارًا حكيمًا. على أن الإسكندر كانت لديه كذلك روح التخيل العاطفية الهوجاء التي كانت لأمه. فإنه إلى جانب هذا العمل الإنشائي كان مستغرقًا في مغامرات دينية إذ استحوذت آلهة مصر على لبه. وإذا هو يسافر أربعمائة ميل إلى واحة قصية لزيارة وحي آمون. ذلك بأنه كان يريد أن يبت في شكوك معينة كانت تساوره عن حقيقة نسبه ومولده. فإن أمه طالما ألهبت ذهنه بالتلميح والإشارة والألفاظ المبهمة عن سر عميق يكتنف حقيقة أبوته. فهل كان إنسان عادي مثل فيليب المقدوني أباه حقًا؟

وقد لبثت مصر قرابة أربعمائة سنة وهي قطر لا يعتاد به من الوجهة السياسية، يغزوها الإثيوبيون آونة ويغزوها الآشوريون أخرى والبابليون تارة والفرس طورًا. ولما أن أصبح تفكير المصريين فيما هم فيه من حاضر المهانة والاتضاع أمرًا بغيضًا إلى نفوسهم، أصبح الماضي والعالم الآخر أكثر روعة في نظرهم. وما تنشأ الدعاية الدينية المتبجحة بالمفاخرة والاغترار بالماضي إلا عن طول شعور الشعوب بالمذلة المزمنة الأليمة. فإن المقهور

يستطيع أن يقول للظافر "ليس هذا الظفر بشيء ذي بال في نظر الآلهة الحقة". وهكذا اضطر ابن فيليب المقدوني وسيد بلاد الإغريق العام إلى أن يحس صغاره وضآلة قدره بين المعابد الضخمة المشمخرة. وكان للإسكندر نصيب غير عادي مما هو مألوف من طموح الشباب الطبيعي إلى التأثير في كل من يحيط بهم من الناس. فكم كان ارتياحه واطمئنان نفسه عظيمًا إذن حين يكتشف لتوه أنه ليس مجرد مخلوق موفق، وليس واحدًا من أولئك السوقة من هؤلاء الإغريق العصريين وإنما هو قديم أزلي قدسي ابن إله، وهو الإله فرعون بن آمون رع!!!...

ولقد سبق لنا أن قدمنا لك في فصل سابق وصفًا لتلك المقابلة في معبد الصحراء.

ولم يقتنع الشاب تمام الاقتناع. نعم أطافت به في بعض الأحايين لحظات الاقتناع. كما كانت تنتابه في أحيان أخرى أطوار من سلامة العقل، عند ما كان الأمر أقرب إلى مزاح. فأبدى في حضرة المقدونيين والإغريق الشك في أنه إله حقًا. فلما انطلق دوي الرعد القاصف، أقدم السفيه أريستارخوس (Aristarchus) على سؤاله "ألا تنوي أن تفعل شيئًا من هذا القبيل يابن زيوس"، ولكن الفكرة الجنونية جعلت مع ذلك تطيف بذهنه منذ ذلك الحين وهي مستعدة لأن يلهب أوارها النبيذ أو الملق.

وفي الربيع التالي (٣٣١ ق. م.) عاد إلى صور، وزحف من هناك نحو مملكة آشور جاعلاً الصحراء السورية عن يمينه، فوجد في انتظاره عند خرائب نينوي المنسية جيشًا فارسيًا عظيمًا، طفق دارا يجمعه منذ معركة إيوس. وكان يتألف من خليط هائل آخر من فرق الجند، ويعتمد في قوته الرئيسية على ذلك السلاح البالي العتيق حتى في ذلك الوقت: وهو المركبة الحربية. وكان لدارا من هذه قوة عدتها مائتان، وقد ربطت بعجلات كل مركبة وإلى عريشها وجسمها مناجل. ويبدو أنه كان بكل مركبة أربعة خيول، فبات واضحًا أنه إذا جرح أحد هذه الخيول بنبل أو سهم، تعطلت المركبة. وكانت الخيول الخارجية تعمل أكثر ما تعمل كوقاية لخيول العجلة الداخلية. ولذا كانت تشبك إلى المركبة بسير خارجي مفرد يسهل قطعة، ولكن إصابة أحد خيول العجلة (أي الخيل الداخلية) كان يفضي إلى تعطيل العربة كلية. ولمثل هذه العربة أثر ساحق عظيم إذا هي استعملت ضد جيش مفكك من المشاة أو نفر من المحاربين الفرادى. ولكن دارا ابتدأ المعركة بقذفها على الخيالة وعلى المشاة الخفاف، فبلغ القليل منها هدفه وسرعان ما تم القضاء على هذه أيضًا بسهولة. وأجريت المناورات لتخير مواقع أفضل والاعتصام بها، وانطلق المقدونيون المدربون أحسن تدريب يسيرون في خط مائل صوب الجبهة الفارسية محتفظين بحسن نظامهم. فأما الفرس فإنهم في تعقبهم لهذه الحركة حتى الجناح، فتحوا في صفوفهم ثغرات. وعلى حين بغتة كر الفرسان المقدونيون المنظمون في أحد هاته الصدوع وصدموا قلب الجيش الفارسي. وعلى أثر كرتهم مباشرة تقدم المشاة يتبعونهم، فتمزق قلب الفرس وميسرتهم. وقد تقدمت الراكبة الخفيفة في الميمنة الفارسية فترة من الزمان فاكتسبت من ميسرة الإسكندر أرضًا، وكأنها لم تفعل ذلك إلا لكي تمزقها فرسان تساليا إربًا. وكانت في ذلك الوقت أصبحت تقارب في حسن دِربتها نموذجها المقدوني المحتذى، ولم تعد القوات الفارسية تشبه الجيش بالمعنى المعروف. فإنها انحلت إلى جمع غفير من الفارين تنساب ثلله تحت غمامات عظيمة من القتام. وليس بينها سبب واحد يلم شعثها وهي تسير عبر السهل الحار نحو أربيل (Arbela). وانطلق المنتصرون بخيلهم خلال الغبار والجمهور الهارب وهم يقتلون ويذبحون حتى خيم الظلام ووضع للمذبحة حدًا. وقاد دارا المتقهقرين.

تلك هي معركة أربيل (أربيلا) التي حدثت في اليوم الأول من أكتوبر (٣٣١ ق. م.). وإنا لنعرف تاريخها بمثل هذا الضبط الشديد، لأن التاريخ سجل لنا أنه اتفق قبل حدوثها بأحد عشر يومًا أن كان المنجمون على كلا الجانبين في شغل شاغل بخسوف القمر.

وفر دارا شمالاً إلى بلاد الميديين، وتقدم الإسكندر إلى بابل.

وكانت المدينة القديمة مدينة حمورابي (الذي حكم قبل ذلك بسبع عشرة مائة من السنين) ومدينة نبوخذ ناصَّر العظيم ونابونيداس، لا تزال على العكس من نينوي مركزًا هامًا ناجحًا. والبابليون شأنهم في ذلك شأن المصريين، لم يكن ليعنيهم كثيرًا أمر انتقال الحكم من الفرس إلى المقدونيين. وكان معبد بعل – مردك قد أصبح حطامًا وخرائب ومحجرًا تؤخذ منه مواد البناء، بيد أن تقاليد الكهنة الكلدان كانت لا تزال باقية، وقد وعد الإسكندر بإعادة بناء المعبد.

ومن ثم سار إلى سوسا، التي كانت يومًا ما مدينة العيلاميين البائدين المنسيين، والتي أصبحت العاصمة الفارسية.

ثم سار إلى برسيبوليس حيث أمر – وقد بلغ انتشاؤه بالخمر في إحدى المآدب ذروته – بإحراق بيت ملك الملوك. ثم أعلن فيما بعد أن هذا هو انتقام بلاد الإغريق لإحراق إجزرسيس أثينا.

٤- تجولات الإسكندر

هنا يبدأ طور جديد من أطوار قصة الإسكندر. فإنه ظل السنوات السبع التالية يتجول بجيش معظمه من المقدونيين، في شمال وشرق الجزء الذي كان عند ذلك يُعد العالم المعروف. ابتدأ أولاً بالسير في أعقاب دارا، ثم لا ندري بعد ذلك ماذا أصبح...؟ فهل كان الأمر أمر مسح منظم لعالم كان ينوي أن يوحد أجزاءه ويؤلف منه دولة كبرى، أم هو مجرد سير على غير هدى كطراد الإوز البري في صيد؟ لقد كان جنوده أنفسهم بل خاصة أصدقائه يعتقدون في الرأي الأخير، وأخيرًا أوقفوا مدْرجه وراء السند. والواقع أن عمله هذا يبدو على الخريطة أشبه الأشياء بطراد إوز برى، وكأني بهذا الطراد لا يهدف إلى شيء بوجه خاص ولا يرمي إلى الوصول إلى مكان ما.

وسرعان ما انتهى به تعقبه دارا الثالث إلى مسرح خاتمته المحزنة. إذ يلوح أن قواد الملك العظيم أنفسهم ثاروا عليه بعد معركة أربيلا، ناقمين منه ضعفه وعدم كفايته. فسجنوه وأخذوه معهم على الرغم من رغبته في أن يلقي بنفسه بين يدي سماحة قاهره، واتخذوا من بيسوس (Besst) حاكم باكتريا قائدًا لهم. وانتهى الأمر بالإسكندر إلى طراد جدي حامي الوطيس يتعقب آثار القافلة الهاربة التي كانت تحمل ملك الملوك الأسير. وعند الفجر، وبعد مطاردة دامت الليل كله، لاحت القافلة في الأفق البعيد، وأصبح الفرار جموحًا جنونيًا، فإن بيسوس وقواده تركوا المتاع والنساء وكل شيء آخر، كما تركوا من خلفهم أيضًا عائقًا آخر، فإلى جوار بركة ماء منعزلة عن الطريق العام سرعان ما وجد جندي مقدوني عربة متروكة لا تزال بغالها مشدودة إليها، في تلك العربة كان يرقد دارا صريعًا، وهو مطعون في عشرات الأماكن من جسمه والدم يتدفق منه حتى الموت، ذلك أنه رفض أن يواصل المسير مع بيسوس، وأبى أن يمتطي الجواد الذي قدم إليه. ولذا طعنه قواده بحرابهم ثم تركوه، فسأل آسريه بعض الماء. ولسنا ندري إن كان قد قال شيئًا آخر غير هذا. على أن المؤرخين رأوا من اللائق أن يلفقوا عليه حديث النزع الأخير، وهو ما لا يقبله العقل. ولعله لم يقل إلا الشيء القليل الطفيف.

ولما أن وافى الإسكندر بعد شروق الشمس بقليل كان دارا قد قضى نحبه...

ولتجوالات الإسكندر عند مؤرخ العالم أهمية خاصة بها، منفصلة تمامًا عن الضوء الذي تلقيه على أخلاقه. فكما أن حملة دارا الأول رفعت الستار من خلف بلاد الإغريق ومقدونيا، وأظهرتنا على شيء مما يقع خلف الأستار الشمالية الصامتة من وراء تاريخ المدنيات الأولى الذي تنقله إلينا السجلات، فإن حملات الإسكندر تنقلنا كذلك إلى أقاليم لم يكن أحد دون عنها حتى ذلك الوقت أي شيء جدير بالثقة.

فيتكشف لنا أنها لم تكن مناطق صحراوية، بل كانت زاخرة بحياة جماعات ذات طابع خاص.

سار الإسكندر إلى شواطئ بحر قزوين، ومن ثم اتجه شرقًا عبر ما يسمى الآن باسم "التركستان الغربيـ ـة"، وأسس مدينة تسمى الآن هيرات (Herat) ومنها سار شمالاً بطريق كابول وما يسمى الآن باسم سمرقند، حتى وصل إلى جبال التركستان الوسطى، ثم عاد أدراجه جنوبًا وانحدر إلى الهند مخترقًا ممر خيبر، والـ ـتحم فـ ـي معركة عظيمة على السند الأعلى مع ملك شجاع مديد القامة، هو الملك بوروس (porus) وفيها التقت المشـ ـاة المقدونية بجمع من الأفيال وهزمته. ولعله كان يرغب في مواصلة السير شرقًا عبر الصـ ـحراوات إلـ ـى وادي الجانج، بيد أن جنوده أبت مواصلة السير، ويحتمل أنهم لو لم يفعلوا ذلك في تلك الآونة أو بعدها، لواصل السير حتى يبيد من التاريخ شرقًا، ولكنه اضطر أن يحول وجهته مرتدًا، فبنى أسطولاً انحدر به إلى مصـ ـب السـ ـند. وهناك قسم قواته، فأخذ الجيش الرئيسي وسار على امتداد الشاطئ القاحل قافلاً به إلى الخليج الفارسي، وقاسـ ـى الجيش في الطريق متاعب وأهوالا جمة، ومات منه الكثير من الرجال عطشًا، وتبعه الأسطول بحرًا، ولحق به عند مدخل الخليج الفارسي. وكان في خلال رحلته أثناء هذه السنوات الست يشتبك في معـ ـارك، وتـ ـدين لـ ـه بالخضوع كثير من الشعوب العجيبة، وينشئ المدن. ولقد رأى جثة دارا في يونيـ ـه (٣٣٠ ق. م) وعـ ـاد إلـ ـى سوسا (٣٢٤ ق. م.) فوجد الإمبراطورية في اختلال. ووجد ولاة الأقاليم (الستاربة) ينشئون لأنفسـ ـهم جيوشـ ـًا خاصة بهم. وألفى باكتريا وميديا في ثورة، ووجد أوليمبياس جعلت مهمة الحكومة في مقدونيا أمرًا مسـ ـتحيلاً. كما أن هاربالوس خازن الملك فر بكل ما خف حمله من الخزانة الملكية، وأخذ يشق طريقه إلى بلاد الإغريـ ـق وهو يرشو الناس في رحيله. ويقال إن بعض أموال هاربالوس وصل إلى جيب ديموستثيز.

على أننا قبل أن نعالج الفصل الختامي لقصة الإسكندر، نرى أن نقول كلمة عن تلك الأقاليم الشمالية التي تجول فيها. وواضح أنه من إقليم الدانوب وعبْر جنوب روسيا قدمًا، وعبْر القطر الواقع إلـ ـى شـ ـمال بحـ ـر قزوين قدمًا، والقطر الواقع إلى شرق بحر قزوين فما تلاه حتى الكتل الجبلية في هضبة البامير، ثم شرقًا إلى حوض نهر تاريم بالتركستان الشرقية، – كانت تنتشر آنذاك سلسلة من قبائل وشـ ـعوب همجيـ ـة (متبربـ ـرة) متشابهة كلها وهي جميعًا على مرحلة واحدة من الثقافة تقريبًا، وهي في معظم أمرها آرية في لغتها، ولعلهـ ـا نوردية في جنسها. وكانت مدنهم قليلة العدد إذ هم في الكثير الغالب من المترحلين، وقد يستقرون في بعـ ـض الأحيان استقرارًا موقوتًا رغبة في زراعة الأرض. ولا ريب أنهم كانوا قبل ذلك يختلطون في آسيا الصغرى بالقبائل المغولية. بيد أن تلك القبائل المغولية لم تكن آنذاك منتشرة هناك.

وقد تعرضت تلك الأجزاء من العالم لعملية هائلة مستمرة من جفاف الجو وارتفاع السطح ظلـ ـت تحـ ـدث طيلة العشرة آلاف سنة الأخيرة. فمنذ عشرة آلاف سنة كاملة كان هناك – فيما يرجح – حاجز مياه متصـ ـل الحلقات يمتد بين حوض نهر الأوبي (Obi) وبين بحر آرال – قزوين. وإذ إن هذا البحر قد جف، وأصبحت أراضي المستنقعات قطرًا شبه سهوبي، فإن الرحل النورديين القادمين من الغرب والرحل المغول من الشرق التقوا واختلطوا وعاد حصان الركوب إلى العالم الغربي. وواضح أن هذه المنطقة المترامية أخذت تتحول إلى مركز تتجمع فيه هذه الشعوب البربرية. وكان ارتباطهم بالأرض التي يحتلونها ارتباطًا مفكـ ـكًا الأوصـ ـال، فكانوا يعيشون في خيام وعربات أكثر منهم في منازل. وكانت دورة وجيزة من سني الوفرة وانتشار الصحة أو انقطاع الحروب بين القبائل أثناء عهد أحد الحكام الأقوياء، تؤدي إلى زيادة جسيمة في عدد السكان فـ ـإذا أتت سنتان أو ثلاث من العسيرات العجاف فإنها تكفي لعودة القبائل إلى تجوالها من جديد التماسًا للغذاء.

ومن قبل بزوغ فجر التاريخ المدوّن، كان إقليم التجمع البشري هذا بين الدانوب والصين، يلقى على التناوب قبائل تنهال مثل شآبيب المطر المتتابع زاحفة جنوبًا ونحو الغرب. فكانت تلك المنطقة من خلف المناطق المأهولة بالسكان أشبه بسحب الغمام المتراكم، يتجمع فيها الغزاة ثم ينفذون كالسيل الطامي. ولقد لاحظنا كيف هبطت الشعوب الكلتية غربًا كطل [1] خفيف، وكيف أن الإيطاليين والإغريق وذوي قرباهم من سكان إبيروس والمقدونيين والفريجيين انحدروا جنوبًا. ولاحظنا كذلك حركة الكمريين من الشرق وهي تتدفع عبر آسيا الصغرى كشؤبوب فجائي من البرابرة؛ كما شهدنا انحدار الإسكيذيين والميديين والفرس جنوبًا وهبوط الآريين إلى الهند. وحدثت قبل عهد الإسكندر بما يداني القرن غزوة آرية جديدة لإيطاليا على يد شعب كلتي، هو الغال الذين سكنوا وادي نهر بو (Po)، فهؤلاء الشعوب، على اختلاف أجناسهم، هبطوا من غمرات الحجب الشمالية إلى ضياء التاريخ. وفي الوقت ذاته كان المستودع، أعني إقليم التجمع، خلف ذلك الضياء لا يفتر عن تجميع الشعوب استعدادًا لفيضانات جديدة. فمسير الإسكندر في آسيا الوسطى يدخل الآن في تاريخنا أسماء جديدة على أسماعنا، هي أسماء البارثيين (Parthians) وهم شعب من الراكبة الرماة بالقسي، كتب لهم أن يمثلوا دورًا هامًا في التاريخ بعد ذلك بقرن تقريبًا. والباكتريين، الذين كانوا يعيشون في الموطن الرملي للجمل. ويبدو أنه حيثما طاف الإسكندر لقي شعوبًا تنطق بالآرية، وكان البرابرة المغول في الناحية الشمالية الشرقية لا يزالون مجهولين. ولا أخال أحدًا كان يتصور أن هناك أيضًا مستودعًا آخر عظيمًا من السكان فيما وراء الإسكيذيين وأقربائهم مقره شمالي الصين، قدر لهم أن ينسابوا هم أيضًا من ثم وهم متدفقين تدفقًا جديدا، نحو الغرب والجنوب، ويختلطوا أثناء مجيئهم بالإسكيذيين (الأشقوذيين) النورديين وبكل من يلتقون به من شعوب أخرى ذات عادات مماثلة لعاداتهم. وحتى ذلك الحين لم يكن أحد غير أهل الصين يعرف شيئًا عن الهون (Huns). ولم يكن هناك أتراك في التركستان الغربية أو في أي مكان آخر آنذاك. ولم يكن ثمة أي تتار في العالم.

إن هذه اللمحة عن الأحوال السائدة في التركستان في القرن الرابع ق. م. لمن أمتع مظاهر تجولات الإسكندر. وهناك غارة أخرى، هي غارته على أرض البنجاب. فإن مما يستثير غضب رواة القصة البشرية، أنه لم يواصل مسيره حتى إقليم الجانج (الكنج)، وأننا لم نحصل نتيجة لذلك على أوصاف وتفاصيل قائمة بذاتها دبجها كتاب الإغريق عن الحياة في البنغال القديمة. على أن هناك مجموعة ضخمة من المؤلفات في لغات هندية متنوعة تعالج تاريخ الهند وحياتها الاجتماعية، وهي لا تزال في حاجة إلى من ينفض عنها الغبار، ويقدمها إلى القراء الأوروبيين.

[1] الطل: المطر الخفيف؛ والوابل الثقيل؛ والشؤبوب: الدفعة الواحدة من المطر. (المترجم)

٥- هل كان الإسكندر عظيمًا حقًا؟

ظل الإسكندر ست سنوات يمتلك الإمبراطورية الفارسية غير منازع، وك ان عن د ذل ك بل غ الحادي ة والثلاثين. ولم يستحدث في هذه السنوات الست شيئًا يذكر. فاستبقى معظم نظم المقاطعات الفارسية، وع ين حكامًا (Satraps) جددًا أو استبقى السابقين منهم. وكانت الطرق والموانى ونظم الإمبراطورية لا تزال على ما تركها سلفه الأعظم قورش. واكتفى في مصر باستبدال حكام جدد بحكام الأقاليم القدماء، وقهر في الهن د بوروس ملكها ثم تركه على قدر من القوة لا يقل عما وجده عليه؛ اللهم إلا أن بوروس أصبح يسميه الإغريق ساتراب. وخطَّط الإسكندر عددًا من المدن، قدر لبعضها أن تنمو وتزدهر فتصبح مدنًا عظيمة. فإنه أسس ما يبلغ في مجموعة سبعة عشر إسكندرية تعاورت على أسمائها تغيرات شتى – مثال ذلك قن دهار (إس كندر) وسيكندر أباد. على أنه دمر صور، ودمر مع صور كل أمن وطمأنينة تستظل بها الطرق البحرية التي كانت حتى ذلك الحين المنفذ الرئيسي لبلاد ما بين النهرين نحو الغرب. ويقول المؤرخون إنه "هلَّ ن" الش رق، أي صبغه بالصبغة الهللينية. على أن مملكة بابل ومصر كانتا تعجان بالإغريق قبل زمانه. فه و إذن ل م يك ن السبب في هذ العملية بل كان أحد عواملها. وبفضله ظل العالم بأسره ردحًا من الزمان، من البحر الأدري اتي إلى نهر السند تحت لواء حاكم واحد. وبذا يكون قد حقق أحلام إيزوقراط وآمال فيليب أبيه. ولكن إلى أي حد كان يسعى إلى جعل هذا الاتحاد مستديمًا وطيد الأركان؟ وهل كانت إمبراطوريته حتى آنذاك إلا زخرفًا براقًا يبهر الأبصار ورواء مؤقتًا لشخصه العظيم الأخاذ؟.

لم يعمد إلى إنشاء طرق عظيمة، ولا إقامة مواصلات بحرية آمنة مضمونة ومن السخف أن نتهمه بأن ه أهمل التعليم، لأن الفكرة القائلة بأن الإمبراطوريات يجب أن يربط التعليم أجزاءها، كانت لا تزال غريبة عن الفكر البشري. بيد أنه لم يحط نفسه بأية طائفة من الساسة ولا كان يفكر في أي خلف له، ولم يعم ل عل ى ابتداع أي تقاليد، بل إن ما أنشأه لا يعدو أن يكون أسطورة تدور حول شخصه. ويلوح أنه لم يدر بخل ده أن الفلك سوف يواصل الدوران من بعده، وأن العالم لن تشغله أمور أخرى عدا التحدث بفخامته وروعته. ك ان لا يزال صغير السن لا جرم. ولكن ألا ترى أن فيليب قبل أن يصل إلى الحادية والثلاثين من عمره ب زمن بعيد كان يفكر في تعليم الإسكندر؟

وقد يتساءل الإنسان عما إذا كان الإسكندر صاحب فكرة في السياسة على الإطلاق؟

إن بعض دارسي تاريخ حياته يؤكدون أنه كان من أرباب السياسة والتدبير، وأنه شغل يوم كان في سوسا بوضع الخطط لإقامة إمبراطورية عالمية؟. وأنه كان لا يرى فيما يعمل مجرد فتح مقدوني للعالم، بل صهرا ومزجًا لتقاليد الأجناس البشرية بعضها ببعض. ومهما يكن من شيء فإنه فعل شيئًا واحدًا، يلمح إل ى ه ذه الفكرة تلميحًا خفيًا، إذ أقام وليمة عرس كبرى، تزوج فيها هو وتسعون من قواده وأصد دقائه م ن ع رائس فارسيات. فأما هو فقد تزوج بنت دارا، وإن كانت لديه من قبل زوجة آسيوية هي روكسانا (Roxana) ابنة ملك سمرقند. وأقام لهذا الزواج الجماعي حفلاً رائعًا جدًا. وفي الوقت نفسه، ق دم ه دايا الع رس للجن ود

المقدونيين الذين تزوجوا من عرائس آسيويات، والذين كان يبلغ عددهم عدة آلاف. وقد سمي هذا "زواج أوربا وآسيا". إذ كان لا بد للقارتين من الارتباط على حد قول بلوتارك "برباط زواج شرعي وبجامع الاتصال والاشتراك عن طريق الذرية والنسل". ثم أخذ بعد ذلك يدرب المجندين من فارس ومن الشمال، أي من الفرس والباكتريين ومن على شاكلتهم – على فنون الحرب التي تتميز بها الأنظمة الخاصة بالفيلق والفرسان. فهل كان ذلك أيضًا لكي يتم مزج آسيا وأوربا؟ أم كان يرمي من وراء ذلك إلى الاستقلال بنفسه عن رجاله المقدونيين؟ لقد اشتمُّوا منه رائحة الفكرة الثانية على كل حال، فتمردوا عليه، واستطاع في شيء من الصعوبة أن يرجعهم في حال من الضراعة والندم، واستمالهم إلى الاشتراك في وليمة عامة جمعت بينهم وبين الفرس. ولقد أجرى المؤرخون على لسانه حديثًا بليغًا مستفيضًا لهذه المناسبة... كان بيت القصيد فيه أنه أمر رجاله المقدونيين أن يرحلوا، ولم يوضح لهم الطريقة التي يرى أن يخرجوا بها من فارس إلى وطنهم. فبعد أن قضوا ثلاثة أيام في هلع، خضعوا له والتمسوا منه الصفح والغفران.

والواقع أن هذا الموضوع يمكن أن يكون موضع بحث شائق. فهل كان الإسكندر حقًا ينوي إدماج الأجناس ومزجها بعضها ببعض، أم أن كل ما في الأمر أن قلبه تعلق بحب ما يستمتع به الملك الشرقي من عظمة وقدسية؟ وكان لذلك يريد أن يتخلص من هؤلاء الأوربيين الذين لا يعدونه إلا ملكًا قائدًا؟ على أن كتّاب عصر الإسكندر، والكتاب الذين عاشوا في زمن قريب من عصره أميل كثيرًا إلى الأخذ بالفكرة الثانية. وهم يؤكدون لنا أنه كان مغرورًا غرورًا لا حد له، ويقصون كيف أنه أخذ يرتدي أثواب ملوك الفرس وتيجانهم، "يرتديهما أولاً أمام البرابرة وعلى انفراد وبين خاصته، ولكنه ما لبث حتى أخذ يرتديهما على الملأ عند جلوسه لتصريف الأمور" وسرعان ما طلب من أصدقائه مظاهر الخضوع والخشوع على الطريقة الشرقية.

ولعل هناك شيئًا واحدًا يقوي الظن بوجود غرور شخصي عظيم في الإسكندر. فإن صورته نقشت ونحتت مرارًا كثيرة، وهو يبدو فيها على الدوام في صورة الشاب الجميل ذي الذوائب المدهشة التي تتدلى إلى الخلف كاشفة عن جبين عريض. وكان معظم الرجال في سالف الزمان يرخون لحاهم، ولكن الإسكندر الذي فتن بجماله وغضارة شبابه كان يأبى أن تفارقه نضرة الصبا. لذا ظل غلامًا زائفًا في سن الثانية والثلاثين فكان حليق الوجه وبذلك استن للإغريق وإيطاليا سنّة دامت قرونًا كثيرة.

وقصص العنف والغرور في سنيه الأخيرة تتجمع متكاملة حول ذكراه. فإنه أصغى ذات مرة إلى هذر نمام وشى له بفيلوتاس بن بارمينيون أحد أشد قواده إخلاصًا وفوزًا بثقته. إذ أبلغه أن فيلوتاس، قال متفاخرًا بنفسه أمام امرأة كان يغازلها: "إن الإسكندر إنما هو مجرد غلام. وإنه لولا رجال من أمثال أبيه وأمثاله لما تم له غزو فارس وأشباهها من البلدان". ومثل هذه الروايات تنطوي على عنصر رمعين من الصدق. وأحضرت المرأة بين يدي الإسكندر، فأصغى إلى غدرها وخيانتها. واتهم فيلوتاس للساعة بالتآمر عليه، ثم أمر به فعذب وأعدم بناء على أدلة بتراء ناقصة. ثم فكر الإسكندر في بارمينيون، الذي مات ولداه الآخران من أجله (أي الإسكندر) في ميدان القتال. فأرسل رسلا سراعًا ليقتلوا الشيخ المسن قبل أن يبلغه مقتل ولده وكان بارمينيون هذا من أكثر قواد فيليب تمتعًا بثقته، وبارمينيون هذا هو القائد الذي قاد الجيوش المقدونية

إلى آسيا قبل مصرع فيليب. وليس هناك أقل شك في صحة جوهر هذه القصة وصدق ما ت روي. ولا ف ي إعداد كاليسثنيز ابن أخت أرسطو الذي رفض أن يقدم للإسكندر مراسم التقديس. ثم "أخذ يسير ف ي كبري اء واختيال كمن دك طغياناً، على حين كان الشبان يتبعونه بوصفه الرجل الحر الأبي الوحيد بين آلاف الرجال". ويختلط بأمثال هذه الحوادث تلك القصة التي لها دلالتها – قصة الشجار الذي قتل فيه الملك كليت وس أثن اء معاقرتهما الخمر. ذلك أن الملك ورفاقه أكثروا ذات ليلة من الشراب. فأطلق الشراب الألسنة وجعل الح ديث عاليًا حرًا وانطلقت ألسن بالملق الكثير "للإله الصغير" مع الإسراف في الحط م ن ق در فيلي ب، وابتس م الإسكندر لذلك ابتسامة الرضا. وكان ذلك الاغتباط النفسي المخمور فوق ما يطيقه المقدونيون، فث ارت لـ ه ثائرة كليتوس – وهو أخوه في الرضاع – ثورة جنونية. فلام كليتوس الإسكندر على ارتدائه الثياب الميدي ة وأثنى على فيليب. وعقب هذا شجار صاخب، ودفع أصدقاء كليتوس به إلى خارج الحجرة لوضع حد له ذا الشجار. على أنه كان مع ذلك في حالة السكر التي تبعث العناد فعاد من مدخل آخر وسمع في الخارج وه و ينشد مقتبسًا هذه الأبيات من شعر يوريبيدس في نبرة جريئة مليئة بالازدراء "أهذه ع اداتكم؟ أهك ذا ب لاد الإغريق تكافئ مقاتليها؟ أيدعي رجل واحد الغنائم التي غنمها الآلاف؟".

وعند ذلك اختطف الإسكندر حربة من أحد حراسه وأنفذها في جسم كليتوس وهو يرفع الستار ليدخل...

والإنسان مضطر إلى الاعتقاد بأن هذا هو الجو الحقيقي لحياة الفاتح الشاب. ثم إن قصة مظ اهر حزن ه الجنوني الشديد على هيفايستيون Hephaestion لا يمكن أن تكون كلها اختلاقًا ولا من نسج الخيال تمامً ا، فلئن صحت كلها، أو كانت صحيحة في بعض أجزائها، فإنها تكشف عن ذهن مضطرب لا يعرف الات زان، ومحصور تمامًا في صغائر الأمور الشخصية، ذهن لم تكن الإمبراطورية لديه إلا مجالاً للمظهر الأناني، ولا موارد العالم بأسرها إلا مادة لنوبات من ذلك النوع من السماحة والكرم الذي يسرق ألف إنسان لكي ينت زع إعجاب شخص واحد مبهور بما يجزل له من عطاء.

فإن هيفايستيون الذي كان مريضا فرضت عليه تغذية خاصة دقيقة – عمد أثناء غياب طبيبه في المس رح إلى دجاجة محمرة فتناولها، واحتسى قنينة من النبيذ المثلوج فمات على الأثر. وعند ذلك آلى الإسكندر عل ى نفسه أن يقيم مظاهر الأسى والأحزان. وكان حزنه هذا حزن مجنون معتوه. فأمر بالطبيب فص لب، وأم ر بقص شعر كل حصان وبغل في بلاد فارس وهدم جميع حصون وطوابي المدن المجاورة، ومنع الموس يقى بتاتًا في معسكره مدة طويلة. ولما أن استولى على قرى معينة من قرى القوزيين (Cusaeans) أم ر بك ل البالغين فيها فذبحوا قربانًا لروح هيفايستيون، ثم خصص ما لا يقل عن عش رة آلاف ت النتوم (talentum) لإقامة قبر له. وكان هذا بالنسبة لتلك الأيام مبلغًا هائلاً من المال. وليس في واحد من هذه الأمور أي تك ريم حقيقي لهيفايستيون، بيد أنها أظهرت للعالم المأخوذ فرقًا ورعبًا كم يكون حزن الإسكندر هائلاً مروعًا!!

وقد تكون هذه القصة الأخيرة والكثير من أمثالها ترهات وأكاذيب أو تشويهات أو مبالغات، بيد أن بينه ا سببًا يجمعها. وبعد حفل صاخب في بابل اشتد فيه الشراب، ألمت بالإسكندر حم ى مباغت ة (٣٢٣ ق. م.) فاعتل ومات وهو بعد في الثالثة والثلاثين لم يتجاوزها. ومنذ ذلك الحين تجد الإمبراطورية العالمي ة، الت ي كان اختطفها وأمسك بها بين يديه، كما يفعل الطفل بزهرية ثمينة، قد سقطت إلى الأرض وتحطمت إربًا.

فاختفى بموته كل ما لاحت بوارقه في مخيلة الناس من نظام حكم عالمي شامل، ووقعت البلاد من بعـ ده بين براثن حكم استبدادي مطلق أو أوتوقراطي همجي يغشاه الاضطراب. وأخذ كل حاكم من حكام الأقـ اليم يشيد لنفسه ويعمل لحسابه. ولم تمض أعوام قليلة حتى أبيدت كل عائلة الإسـ كندر بأسـ رها فقـ د سـ ارعت روكسانا زوجته الأعجمية إلى قتل ضرتها ومنافستها ابنة دارا. ثم وضعت – للوقت – ابناً للإسكندر ولد بعد وفاته، وكان يسمى هو أيضًا الإسكندر. ثم ما لبث أن لقي مصرعه معها بعد ذلك ببضـ ع سـ نين (٣١١ ق. م.). وقتل أيضًا هرقل (Hercules) الابن الآخر الباقي للإسكندر؛ وكذلك قتل أيضًا أريدايوس أخو الإسكندر غير الشقيق الضعيف العقل. ولم يفت بلوتارك أن يلقي لمحة أخيرة إلى أوليمبياس في أثنـ اء فتـ رة وجيـ زة استمتعت فيها بالقوة والسلطان في مقدونيا. وقد أخذت تتهم هذا الشخص أولاً ثم ذاك، بتهمة دس السم لولدها الرائع، فقتلت الكثيرين في ثورة حنقها، وأمرت بجثث بعض خاصته الذين ماتوا بعد وفاته، فاستخرجت مـ ن قبورها. ولسنا ندري هل ألقى هذا البحث والنبش لجثث الموتى أي ضياء جديد على وفاة الإسكندر. وأخيـ رًا قتلت أوليمبياس في مقدونيا، إذ اغتالها أصدقاء أولئك الذين قتلتهم.

٦- خلفاء الإسكندر

وسرعان ما برزت من حمأة الإجرام هذه شخصيات رئيسية ثلاث. فإن شطرًا كبيرًا من الإمبراطورية الفارسية القديمة يمتد حتى السند شرقًا، وحتى ما يكاد يداني ليديا غربًا، تملكه قائد واحد اسمه سلوقوس (Seleucus) أسس أسرة مالكة هي الأسرة السلوقية. وانتقلت مقدونيا إلى يد قائد مقدوني آخر هو أنتيجونوس (Antigonus). واستحوذ على مصر مقدوني ثالث هو بطليموس (Ptolemy)، فجعل من الإسكندرية قصبة لبلاده، وأسس قوة بحرية متفوقة تكفل له الاحتفاظ بقبرص ومعظم ساحل فينيقيا وآسيا الصغرى في حوزة يده. ودامت إمبراطوريتا بطليموس وسلوقوس زمانًا طويلاً. على أن أوضاع الحكم في آسيا الصغرى والبلقان كانت أقل استقرارًا. وإنا لموردون للقارئ خريطتين لتساعداه على تفهم ما كان يطرأ على الحدود السياسية في القرن الثالث ق. م. من التقلبات الكثيرة. وهزم أنتيجونوس وقتل في معركة إبسوس (Ipsus) (٣٠١ ق. م) تاركًا ليسيماخوس (Lysimachus) والي تراقيا، وكساندر (Cassander) والي مقدونيا وبلاد الإغريق، خلفين له وإن لم يمكثا في الحكم طويلاً.

واقتطع حكام أقل شأنًا ولايات صغرى لأنفسهم. وفي نفس الوقت كان البرابرة يتدفقون من الغرب والشرق إلى عالم المدنية المفكك الأوصال الواهن القوي. وجاء الغال من الغرب، وهم شعب وثيق القرابة بالكلت، فأغاروا مجتاحين مقدونيا وبلاد الإغريق حتى دلفي (٢٧٩ ق. م.) وعبر فرعان منهم البوسفور إلى آسيا الصغرى. كانوا في مبدأ الأمر يستخدمون جنودًا مرتزقة، ثم أخذوا يعملون لحسابهم الخاص كناهبين مستقلين. وبعد أن مضوا في غاراتهم حتى جبال طوروس تقريبًا، استقروا في أرض الفريجيين (Phrygians) القديمة ملزمين من حولهم من الناس بدفع الجزية. (وقد أصبح غال فرجيا هؤلاء هم الغلاطيين (Galatians) المذكورين برسالة القديس بولس) وأصبحت أرمينيا والسواحل الجنوبية للبحر الأسود منطقة مضطربة لكثرة من تقلب عليها من حكام. وظهر في كبادوكيا (Cappadocia) وفي بلاد بونتش (Pontus) وهي الساحل الجنوبي للبحر الأسود وفي بيثونيا (Bithynia) وفي برجامة، ملوك شبوا متشبعين بالأفكار الهللينية. ومن الناحية الشرقية تقدم كذلك نحو الجنوب الإسكيذيون والبارثيون والباكتريون. واستدامت هناك دول باكتيرية يحكمها الإغريق لم تنفك تتحول تدريجيًا إلى الطابع الشرقي. وفي القرن الثاني ق. م.، أغار بعض مغامري الإغريق من باكتيريا منحدرين حتى شمال الهند. وأسسوا هناك ممالك قصيرة الأجل، وهي آخر موجة للإغريق نحو الشرق، ثم أخذت الهمجية (البربرية) تتدلى تدريجيًا كالستار وتحجب الهند عن المدنيات الغربية [1].

([1]) عن تفاصيل العصر بعد وفاة الإسكندر، انظر للمترجم: "الحضارة الهللينية"، الألف كتاب والأنجلو.

٧- برجامة ملاذًا للثقافة

هناك دويلة صغيرة تنهض بارزة بين أشلاء هذه الإمبراطورية الهللينية المحطمة وتطالبنا بأن نفرد لها قسمًا وجيزًا على الأقل – تلك هي مملكة برجامة (Pergamun). وقد سمعنا باسم هذه المدينة لأول مرة بوصفها مركزًا مستقلاً إبان النزاع الذي انتهى بمعركة إبسوس. وبينما كان سيل غزو الغالة يرغي ويزبد ويدور جيئة وذهابًا في آسيا الصغرى بين سنتي ٢٧٧ و ٢٤١ ق. م.، ظلت برجامة تدفع الجزية للغالة حينًا من الزمان، على أنها احتفظت باستقلالها العام. وانتهى الأمر في موقعتين فاصلتين. وظلت برجامة بعدها حرة طليقة مدة تزيد على قرن من الزمان (أي حتى ١٣٣ ق. م.)، ولعلها كانت خلال تلك المدة أسمى دول العالم مدنية. وقد أقيمت على تل الأكروبوليس مجموعة فخمة من المباني والقصور والمعابد، كما أقيم متحف ومكتبة ينافسان متحف ومكتبة الإسكندرية اللذين سنتكلم عنهما من فورنا، ويكادان يكونان أول ما ظهر من نوعهما في العالم. وقد ازدهر الفن الإغريقي للمرة الثانية بفضل رعاية أمراء برجامة. وإن فيما صنع هناك من النقوش البارزة بمذبح معبد زيوس، ومن تماثيل الغالة المقاتلين، وتماثيل الذين في النزع الأخير لجزءًا خالدًا من ذخر الإنسانية الفني.

ولم يمض طويل زمن كما سنبين ذلك فيما بعد، حتى أخذ الناس يشعرون في شرقي البحر المتوسط بسلطان قوة جديدة، هي الجمهورية الرومانية، التي كانت ترتبط ببلاد الإغريق وبالمدنية الإغريقية بشعور المودة. ووجدت الجاليات الهللينية ببرجامة ورودس، في تلك الجمهورية الرومانية حليفًا طبيعيًا نافعًا ومعينًا لها على الغلاطيين والإمبراطورية السلوقية المصطبغة بصبغة شرقية. وسنقص عليك فيما بعد كيف انتهى الأمر بأن امتد نفوذ الدولة الرومانية إلى آسيا، وكيف أنها هزمت الإمبراطورية السلوقية في معركة ماجنيزيا (١٩٠ ق. م) وطردتها من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس وكيف انتهى الأمر (١٣٣ ق. م.) بأن استسلم أتالوس الثالث آخر ملوك برجامة إلى إحساسه بالمصير المحتوم، فجعل الجمهورية الرومانية وارثة لمملكته التي أصبحت عند ذلك ولاية "آسيا" الرومانية.

٨- الإسكندر كبشير
وداعية للوحدة العالمية

يكاد كل المؤرخين تقريبًا ينزعون إلى اعتبار سيرة الإسكندر الأكبر مؤذنًا بعهد جديد في الشئون البشرية. فإنها ضمت شتات العالم المعروف كله باستثناء الجزء الغربي من البحر المتوسط فجعلت منه مسرحية واحدة. على أن الآراء التي كونها الناس عن الإسكندر ذاته، تتفاوت تفاوتًا بعيدًا. فإنهم ينقسمون في غالبيتهم إلى مدرستين رئيسيتين. ففريق من العلماء يسحره شباب ذلك الفتى وبهاؤه وجلاله. ويبدو أن هؤلاء القوم من عباد الإسكندر ميالون لقبوله على أساس التقدير الذي يقدره هو لنفسه متغاضين عن كل جريمة ارتكبها وكل طيش ونزق بدر منه، إما بِعَدِّها مجرد ثوران لطبيعة خصبة أو أشياء اقتضتها الضروريات المريرة التي حتمتها إحدى الخطط الهائلة، واعتبار حياته مصوغة في خطة مرسومة من الحنكة والسياسة والتدبير بصورة لا تكاد معها معرفتنا الواسعة وأفكارنا الفسيحة الآفاق في هذه الأيام الحديثة تكفي لإدخالها في مجال فهمنا وإدراكنا!!؟!... وهناك من الجانب الآخر، من يرون فيه مجرد محطم لما كان يتكون ويستحصد من احتمالات لتحقيق عالم حر هادئ مهلَّن.

ويحسن بنا قبل أن ننسب إلى الإسكندر أو إلى أبيه فيليب وضع خطط للسياسة العالمية جديرة بأن يقرها المؤرخ الفيلسوف في القرن العشرين، أن نتأمل بغاية العناية أقصى ما كان في إمكان المعرفة والفكر أن يبلغاه في تلك الأيام. فإن عالم أفلاطون وإيزوقراط وأرسطو، لم يكن لديه بالفعل أي تراث تاريخي ينتهي منه على الإطلاق، فإلى ما قبل العصر الحديث بقرنين، لم يكن لدى العالم ذلك الشيء المسمى بالتاريخ، وأعني به التاريخ مميزًا عن مجرد المدونات التاريخية الكهنوتية. ولم يتهيأ لأوسع الناس علمًا ومعرفة إلا أضيق الفكرات عن الجغرافيا والبلدان الأجنبية. إذ كان العالم لا يزال في نظر معظم الناس مسطحًا لا تُعرف له نهاية. وكانت الفلسفة السياسية الوحيدة المنسقة تقوم على تجارب دويلات مدن صغيرة، فلم تأبه بالإمبراطوريات ولم يكن أحد ليعرف شيئًا عن أصول المدنية، ولم يسبق لأحد قط أن تأمل في الشئون الاقتصادية قبل ذلك الزمان. ولم يكن أحد قط استنبط نتيجة تفاعل إحدى الطبقات الاجتماعية في الأخرى. وإنا لنسرف ميلنا إلى اعتبار حياة الإسكندر وأعماله تاجًا على مفرق بعض عمليات كانت قائمة على قدم منذ زمان بعيد، وأن نعتبرها أوج رفعة وصعود، ولا شك أنه كان كذلك من ناحية ما. بيد أننا نكون أقرب كثيرًا إلى الصدق حين نقرر أنها لم تكن نهاية قدر ما كانت بداية. فكانت أول وحي أوحى إلى الخيال الإنساني عن وحدة الشئون البشرية. وكان أقصى ما بلغه فكر بلاد الإغريق قبل زمانه، هو النظر في فكرة صبغ الإمبراطورية الفارسية بصبغة هللينية، وفي بسط سيادة المقدونيين والإغريق على العالم ولكن قبل أن يقضي الإسكندر نحبه، بل وبعد أن مات وتهيأ للناس الزمن لإعادة التفكير في أمره، كانت فكرة إيجاد قانون ونظام للعالم أصبحت فكرة عملية تستطيع عقول الناس أن تتمثلها.

وظل الإسكندر الأكبر بضعة أجيال وهو في عين العالم رمز النظام والسلطان العالمي وعنوانهما الماثل، فأصبح كائنًا خرافيًا. وإن رأسه المزدانة بالرموز المقدسة لهرقل نصف الإله أو للإله آمون رع، لتظهر على عُملة كل من استطاع من خلفائه أن يدعي لنفسه أنه وارثه. ثم حمل لواء فكرة السيادة العالمية، شعب آخر عظيم هو الرومان، وهو شعب أظهر طوال عدة قرون نبوغًا سياسيًا يعتد به. وقد حجبت شخصية مغامر بارز آخر هو قيصر، ضياء الإسكندر في أنظار النصف الغربي من العالم القديم.



(٨٥) سلوقوس الأول



وعلى هذا فإنا عند مستهل القرن الثالث ق. م.، نجد أن ثلاثًا من الفكرات البناءة العظيمة التي تتسلط على عقل الجنس البشري المعاصر، قد أخذ عودها يشتد في المدنية الغربية للعالم للقديم. ولقد تتبعنا فيم ا سـ لف تحرر الكتابة والمعرفة وتخلصهما مما كان يحيطهما به كهنة العالم القديم من أسرار وخفايا، وأشـ رنا إلـ ى تدريج المبتدئين في الكهنوت في درجات الأسرار المقدسة خطوة خطوة، كما تعقبنا تطور فكرة جعل المعرفة في متناول الجميع وفكرة التاريخ والفلسفة اللذين يمكن فهمهما ونقلهما بين الناس كافة. واتخذنا من شخصـ ي هيرودوت وأرسطو شاهدين نموذجيين على هذه الفكرة العظيمة الأولى، فكرة العلم، مع استعمال كلمة "العلم" بأوسع معانيها وأصحها لتشمل التاريخ وتدل على صورة واضحة للإنسان في علاقته بالأشياء المحيطة بـ ـه. وقفونا أيضًا تعميم الديانة عند البابليين واليهود وغيرهما من الشعوب السامية، أي نقلها من العبادة الخفية في المعابد والأماكن المقدسة لبعض الأرباب المحليين أو القبليين إلى عبادة علنية "لإله واحد للكون كلـ ـه نـ دعو للصلاح والبر" معبده العالم بأسره. وتتبعنا أيضًا منذ هنيهة كيف نبتت لأول مرة فكرة "سياسة عالمية". أمـ ا باقي تاريخ الجنس البشري فهو في معظمه تاريخ لهاته الفكرات الثلاث: فكرة العلم، وفكرة البـ ر والصـ لاح الشامل، وفكرة إقامة حكومة عامة للجنس البشري كافة – في أثناء ذيوعها وانتشارها من أذهـ ان النـ ادرين الأفذاذ من الأفراد والشعوب التي نبتت فيها لأول مرة، إلى أن استقرت في الوعي العام للجـ نس البشـ ري؛ وحين أسبغت عليه في مبدأ الأمر لونًا جديدًا، ثم أعارته روحًا جديدة، ثم وجهته توجيهًا جديدًا فـ ي الشـ ئون الإنسانية.

الفصل الثالث والعشرون

العلم والديانة في الإسكندرية

١- علم الإسكندرية.

٢- فلسفة الإسكندرية.

٣- الإسكندرية مصنعًا للديانات.

٤- الإسكندرية والهند.

١- علم الإسكندرية

كانت مصر من أشد أجزاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر العالمية الوجيزة الأمد، نجاحًا ورفاهة. وكاذ ت من نصيب بطليموس الذي عرفنا فيه من قبل صديقًا من أصدقاء الإسكندر الذين نفاهم الملك فيلي ب. وك ان القطر على بعد يجعله في حرز حريز من الغالة السالبة وبارثيا الناهبة. وكان تدمير صور والقضـ اء عل ى البحرية الفينيقية وإنشاء الإسكندرية، قد أتاحا لمصر سلطانًا ورفعة بحرية موقوتة في شرق البحر المتوسـ ط. فنمت الإسكندرية نموًا هيأ لها أن تنافس قرطاجة وأصبح لها في الناحية الشرقية تجارة خارجية عن طري ق البحر الأحمر مع بلاد العرب والهند.؟ ونافست تجارتها في الناحية الغربيـ ة التجـ ارة القرطاجيـ ة. وكتـ ب لأهميتها التجارية أن تعمر قرونًا عديدة قدر لها كذلك أن تبلغ بالفعل أقصى حد لنموها فـ ي ظـ ل أبـ اطرة الرومان.

ووجد المصريون في حكام البطالمة من مقدونيين وإغريق حكومة أشد عطفًا وأكثر تسامحًا من أية حكومة عرفوها منذ أن انتهى عهدهم بحكومتهم الإمبراطورية المستقلة. وفي الحق إن القول إن مصـ ر هـ ي الت ي غلبت البطالمة سياسيًا وضمتهم إليها أدنى إلى الصواب من القول بأن المقدونيين هم الـ ذين سـ ادوا مصـ ر وحكموها.

والحق إن الذي حدث كان عودة إلى الأفكار السياسية المصرية أكثر منه محاولة لصبغ حكومـ ة الـ بلاد بصبغة هللينية. وأصبح بطليموس هو الفرعون، الملك الإله، كما أن نظامه الإداري كـ ان امتـ دادًا للتقالي د القديمة من عهد بيبي وتحتمس ورمسيس ونخاو. وكان للإسكندرية مع ذلك دستور من طراز دساتير المـ دن الإغريقية يصرِّف الشئون الداخلية للمدينة مع خضوعها لسيادة فرعون الإلهية. وكانت لغة البلاط والحكومـ ة هي اللغة الإغريقية الأتيكية [١]. كما أن اليونانية صارت اللغة الشائعة بين طبقة المتعلمين في مصر إلى حـ د أن الجالية اليهودية هناك وجدت لزامًا عليها أن تُترجِم التوراة إلى تلك اللغة، إذ لم يعد كثير من بني جنسـ هم قادرين على فهم العبرانية. ولبثت اليونانية الأتيكية بضعة قرون قبل المسيح وبعده لغة جميع المتعلمين مـ ن البحر الأدرياتي إلى الخليج الفارسي.

ويبدو أن بطليموس وهو أحد الشبان الذين أحاطوا بالإسكندر، قد انفرد وحده ببذل أقصى جهده في تحقيق الأفكار المنطوية على تنظيم المعرفة تنظيمًا دقيقًا كما أوحاها وبثها أرسطو في بلاط فيليب المقدوني. وكـ ان بطلميوس رجلاً أوتي مواهب عقلية خارقة، يجمع بين قوة الابتكار والتواضع ويخامر نفسه اسـ تخفاف – لا يغيب عنا سببه – بالأثر الوراثي الذي خلفته أوليمبياس في عقل الإسكندر. وقد اندثر كتابه الموسوم "التاريخ المعاصر لحملات الإسكندر" ولكنه كان مصدرًا استُقِيت منه جميع الروايات الباقية وكانت مدينة لـ ه بـ أعظم الفضل.

---

(١) الأتيكية نسبة إلى أتيكا وهي المنطقة المحيطة بأثينا. (المترجم)

